د. سمير سرحان







إهـــــــداء2006

ورثة الكيمياني/ محمد فاروق الفران

الإسكندرية

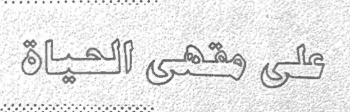
د. سمير سرحان

على مقهى الحياة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الغلاف والرسوم الداخلية	الإخراج الفنى
محمد قطب	البير جورجى


على مقهى الحياة

الإهــداء

إلى ولدى حاتم سمير سرحان
إليك ياولدى أهدى قطرات من رحلة
عمر هى أيضا من عمر الوطن .. لعلك
تذكرنى عندما تعيش الغد فى مصر
الأجمل .. والأنبل .

سمير سرحان

على سبيل التقديم

جلس كاتب هذه السطور على مقهى الحياة منذ أن كان شابا يافعا ، أو ربما صبيا فى الخامسة عشرة من عمره . . اختلف منذ البداية إلى « قهوة عبد الله » الشهيرة التى توسطت يوما ما ميدان الجيزة وكانت مركزا للحركة الأدبية والثقافية فى أواخر الخمسينات ، ثم اختلف بعدها إلى سائر المقاهى الأدبية الشهيرة فى تلك الفترة ، وحتى النصف الأول من الستينات . . « صان سوسى » ، و « انديانا » ، و « ريش » ، . . وحتى « كافيتريا سميراميس » القديم ، وبعدها فى سنوات البعثة بالخارج .

وكان كل مقهى فى هذه المقاهى حياة كاملة . . حياة زاخرة بالأفكار والأحداث والشخصيات الذين كانوا نجوم الفكر والفن والثقافة فى تلك الفترة . . شكلوا أهم وأخطر فترة من فترات الإزهار الثقافى ، وهى تلك التى اصطلحنا أن نسميها بفترة الستينات ، . . وهى فترة كانت انعكاسا لأهم فترة من فترات التحول الاجتماعى والسياسى فى هذا الوطن . . لكنهم كانوا من البشر . . لديهم لحظات التألق . . ولديهم

أيضا لحظات الضعف التى تدعو أحيانا إلى الرثاء . . وشخصيات أخرى كانت من الناس العاديين أو من مجتمعات أخرى لكنها حفرت فى نفس كاتب هذه السطور أخاديد عميقة من المشاعر الإنسانية . .

والفتى الذى نظر إلى هذه الشخصيات والأحداث . . وإلى هذا المسرح الثقافى والفكرى والسياسى الزاخر من منظور الدهشة والبراءة هو ذلك الذى يرجع الفضل فى تكوينه إلى « طه حسين » العظيم وأيامه الرائعة . . فهو الجد وهو الأصل . . لكنه تربى أيضا فى كنف آباء عظام كان له حظ أن يجالسهم على هذا المقهى أو ذاك . . ويسامر أغلبهم على صفحات ما كتبوه من كتب . . فنا كانت أو نقدا أو فكرا . . وهو لذلك يعتقد أنه قد نشأ فى « عزوة » حقيقية . . هى التى صنعت روحه ووجدانه . . « عزوة » قوامها هؤلاء الرجال العظام من مثقفى مصر الذين صنعوا مجد الستينات وصنعوا أيضا انهيارها . .

ولقد اختار « الفتى » بعد أكثر من خمسة وعشرين عاما من ذاك الزمان الأول - وقد أنضجت التجربة روحه - أن يكتب ما قد رآه وعاشه وهو جالس على المقهى . . مقهى الحياة بمعناها الواسع . . لا هذا المقهى أو ذاك بالتحديد . . فهو قد رأى الأشياء والأشخاص وهو جالس على رصيف مقهى يتسع اتساع الحياة نفسها . . وانطبع كل ذلك فى نفسه ووجدانه بشكل هو وحده المسئول عنه لا التاريخ ولا الأشخاص ولا الأحداث . . فآثر أن يكتب ما كتب فى شكل لا هو بالمقال ولا هو بالقصة . . وإنما هو أقرب فى كل جزئية من جزئياته إلى

اللقطة الفنية . . تلتقطها عين الكاميرا التى يقول النقاد إنها تميز الفنان ، لكنها تكتسى لحما وشحما بإثبات الشخوص بأسمائها الحقيقية ، وإن كانت تبدو فى النهاية شخصيات تتحرك داخل عمل فنى أو ملحمة كبرى ، وإثبات الأحداث بتواريخ وقوعها وتفاصيلها الحقيقية وإن كانت تبدو بعد هذا البعد الزمنى وكأنها نسيج من خيال فنان . لكن هذه التفاصيل كلها يحكمها فى النهاية نمط واحد و « نسق » واحد يحاول أن ينفذ بها مباشرة إلى قلب الأشياء ومعناها . وهكذا فلا يستطيع كاتب هذه السطور أن يسمى هذه الأوراق مجموعة من المقالات أو مجموعة من القصص . . وإنما هى فى تصوره صور متناثرة تكوّن فى مجموعها « بانوراما » لفترة توهجت فيها الروح القومية بتألق الفكر والثقافة والسياسة ، ثم أصابها الانكسار العظيم ذلك الصباح الأسود من عام ١٩٦٧ .

وهى « بانوراما » تستمد أيضا روحها العامة من تقليد كان رائعا ثم اختفى مع زحمة الحياة . . أن يجتمع المفكرون والفنانون والأدباء إذا حل المساء على رصيف المقهى . . يشربون الشاى والقهوة . . ويتناقشون كثيرا . . ويثرثرون كثيرا . . ويصنعون خلال كل ذلك هذا الوهج الذى نسميه ثقافة مصر ، وحضارة مصر . . وكأنهم أبطال « تشيكوف » العظيم . . تتغير مصائرهم ومصائر بلادهم ، وتشيع فى حياتهم روح الشعر وهم يأكلون ويشربون ويتحدثون ويمارسون حياة النثر . ولقد اختفى بقدوم الحياة المادية هذا الوهج ، واختفت معه حياة الفكر على

المقاهى ، فلم نعد نسمع عن معركة فكرية أو قضية أدبية . . ولم يعد هناك كتاب ينفذ فينا كالسهم بمجرد أن يُنشر سوى كتب المذكرات السياسية أو الفرائض الغائبة ، ولم تعد هناك مسرحية نحضر افتتاحها كليلة عرس سوى ذلك الضجيج الخاوى من شرارة العبقرية ، ولم يعد يُزف كل يوم إلى حياتنا أديب جديد أو مفكر جديد أو فنان جديد يقلب رتابة هذه الحياة رأسا على عقب . . أو يتحدانا حتى نفكر وحتى نشعر . . وإنما أصبحنا نسمع كثيرا عن ذلك الذى هرب إلى الخارج ببضعة ملايين . . أو عن أطفال صغار لاقوا الموت لأننا أصبحنا نهز أكتافنا فى استخفاف مرددين أن لا شىء يهم !

يا سيدى القارىء . .

هذه بعض من أوراقى . . أو قل بعض من أيامى . . أضعها بين يديك . . ولتغفر لى إن كنت قد نسيت أو أخطأت . . فعذرى الوحيد أنى كتبتها بكل الحب لمن فيها من أبطال ومن أحداث . . وبالكثير الكثير من الصدق .

سمير سرحان

میلاد کاتب

ميــلاد كـاتـب

● الزمان : القاهرة فى أواخر الخمسينات .

● المكان : مقهى محمد عبد الله الشهير حينئذ . . يتوسط ميدان الجيزة مقهى عادى مثله مثل آلاف المقاهى التى تمتد على أرصفة الأحياء الشعبية بأية مدينة عربية لكن هذا المقهى بالذات قدر له أن يلعب دوراً خطيراً فى تكوين مجموعة كبيرة من المثقفين المصريين والعرب الـذين قادوا الحركة الثقافية فى العقدين الأخيرين وحتى الآن .

قهوة عبد الله . . مقهى عادى فى مظهره ، لكنه لم يكن عاديا بما كان يضم كل ليلة من صفوة المثقفين والأدباء والنقاد : الدكتور عبد القادر القط ، الـدكتـور لـويس عـوض ، أنـور المعـداوى ، صـلاح عبـد

الصبور ، رجاء النقاش ، محمود السعدنى ، أحمد رشدى صالح ، عبد المعطى حجازى ، نجيب سرور ، سعد الدين وهبة ، نعمان عاشور ، نجيب سرور ، أحمد عباس صالح ، وغيرهم وغيرهم .

كان هذا الجمع المتميز من الأدباء والنقاد يلتقون على رصيف مقهى عبد الله بالجيزة كل ليلة . . يتحاورون ، يقرأون لبعضهم البعض آخر إنتاجهم الأدبى ، يشكلون ملامح نهضة أدبية وثقافية جديدة . تدور بينهم أحيانا المعارك الأدبية بين القديم والجديد . . بين أنصار التراث وأنصار الحداثة . . بين أنصار الرومانسية ودعاة الواقعية .

فى أحد شوارع الجيزة الضيقة يقطن فتى يافع لم يتعد بعد عامه السادس عشر . . انتهى لتوه من الشهادة الثانوية ويتأهب لدخول الجامعة . تعتمل فى صدر الفتى أحاسيس كثيرة . . يشعر أنه خلق ليكتب . كان يقرأ كثيرا . . نماذج من الأدب العربى والأدب العالمى وكان يقرأ فى الانجليزية ويجيدها إلى حد كبير بالنسبة لسنه اليافع ، وكان يسمع عن قهوة عبد الله القريبة من منزله . . وكان يقرأ لكل الأسماء التى يراها عن بعد جالسة فى المقهى . وكان يخشى الاقتراب منهم . . رهبة للكلمة ، وخشية من سطوة القلم . لكن غروره كان يصور له وهو يرمق هذه الأسماء اللامعة عن بعد . أنه يوما ما وقريبا جدا سيكون واحدا

منهم ، ولم يكن يدرى ـ فى سذاجة ويفاعة الشباب الأول ـ ان الطريق طويل طويل . وشاق وشاق .

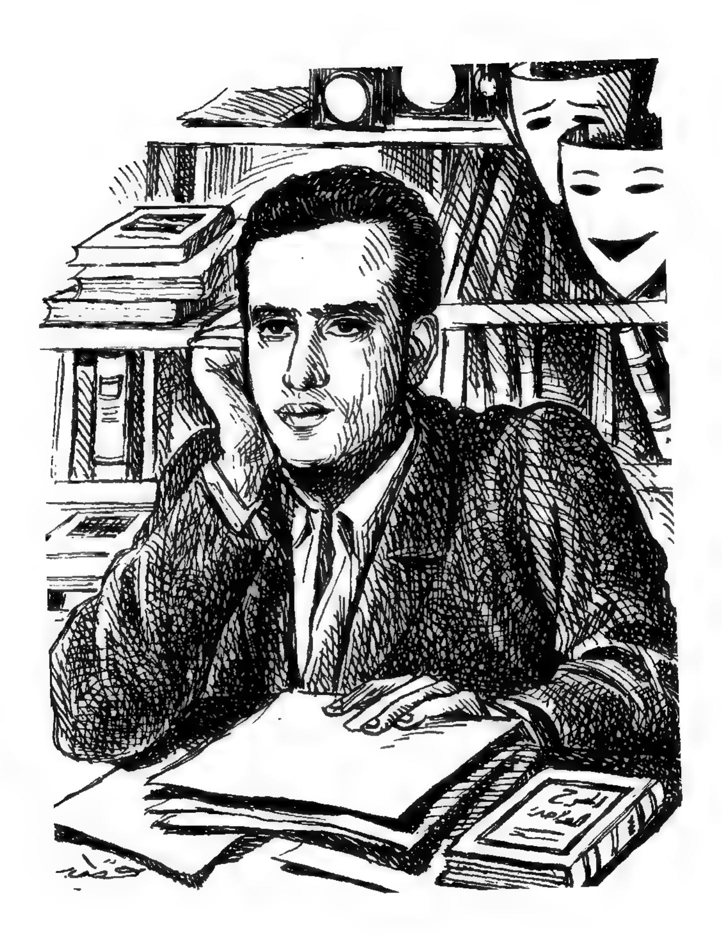
واتخذ الفتى القرار . . أن يصبح واحدا من رواد قهوة عبد الله ، كاتبا مثل بقية الكتاب الجالسين على رصيفها الزاخر نقاشا وحوارا ، وصخبا . وكان لابد لتنفيذ هذا القرار أن ينشر الفتى كتابا كاملا يصبح جواز سفره إلى الندوة الليلية بمقهى عبد الله . . يجلس مع الجالسين ، أو على الأقل واحدا من قبيلتهم . . هكذا صور له غروره الساذج . . انكب الفتى على مجموعة قصص يكتبها وأخرى يترجمها لكبار الكتاب العالميين عن الانجليزية . . قصص أحبها وهو يقرأ ، وتمثل نفسه كاتبا لها ، وتمنى أن يكتب مثلها . وشعر بالعجز ـ إلى درجة البكاء ـ لأن موهبته الغضة لا تمكنه من أن تطاول عظمتها وعندما اكتمل الكتاب ترجمة وتأليفا . . اتجه بأصوله فى ثقة يحسد عليها إلى دار الفكر العربى من أكبر دور النشر المصرية والعربية وقتها . كان صاحب الدار ـ الحاج عبد المنعم ـ رجلا طيبا ، بشوشا . لكنه كان أيضا تاجرا ماهرا و «رجل سوق» يعرف ما ينفع فى تجارة الكتب وما لا ينفع . وكان العصر عصر قراءة . لم يكن قد أفسده بعد التليفزيون وثقافة « السندوتش »السريعة فى وسائل الاعلام . . وكانت القصة القصيرة قد بدأت بفضل يوسف

إدريس فى مصر وسهيل إدريس فى لبنان ، وغيرهما فى أرجاء الوطن العربى ، تجتذب أعدادا ضخمة من القراء .

إتجه الفتى بمجموعة قصصه التى سمّاها «سبعة أفواه» باسم القصة الأولى فى المجموعة إلى صاحب دار النشر ليطلب نشرها . . هكذا . دون مقدمات !! ولم يكن «الحاج» قد سمع من قبل بطبيعة الحال عن هذا الفتى اليافع الذى بلغت به الجرأة أن يقدم مجموعة كاملة من القصص لينشرها مثله مثل أى كاتب شهير . وكان من الممكن أن تأخذه القسوة بالفتى اليافع فيصرفه من مكتبه ساخرا من جرأته وتجاسره لكنه — حتى لا يكسر خاطره فيوئد موهبته فى مهدها إن كان لديه ثمة موهبة — آثر أن يطلب منه شرطا تعجيزيا . قال : « إن أنت أتيتنى بمقدمة لهذه المجموعة بقلم ناقد شهير — وأطرق يفكر قليلا ثم أردف — كأنور المعداوى مثلا ، فإننى سوف أنشر لك المجموعة» .

كان أنور المعداوى ناقدا ملء السمع والبصر ، وكان الحصول منه على كلمة نقدية فى جريدة ناهيك عن دراسة نقدية كاملة تتصدر مجموعة قصص لكاتب ناشىء لم تتأكد موهبته بعد بمثابة الخوض فى دروب المستحيل .

لكن الفتى — بجسارة الشباب وسذاجته — اتجه إلى مقهى عبد الله


المسرح
المعاصر

فى الجيزة ، وقدم نفسه إلى أنور المعداوى وطلب إليه أن يكتب الدراسة النقدية لمجموعة قصصه !

لم يندهش أنور المعداوى لجسارة الفتى . . فقد كان أستاذا بحق ، يقدر الموهبة الوليدة حق قدرها . . يرعاها . . يتعهدها . . يحدب عليها ، حتى تثمر وتينع . وقد وجد فى عينى الفتى اللامعتين بالطموح والأمل . وإصراره على تحقيق ذاته شيئا ربما يتطور فى المستقبل إلى مشروع كاتب . . فكان قراره أن يأخذ المجموعة ويقرأها فإن أعجبته فسيكتب لها المقدمة المنشورة . وضرب أنور المعداوى للفتى موعدا بعد شهر وظل الفتى لا يخالجه النوم إلا ساعات قلائل قلقة طول أسبوع كامل . . ينتظر الحكم بالميلاد أو الإعدام . ولم يطق صبرا أن ينتظر شهرا كاملا كأنه الدهر بلا نهاية ، فذهب إلى المقهى بعد أسبوع واحد من اللقاء الأول . وهناك وجد أنور المعداوى بابتسامته العريضة وشاربه الرفيع المصقول وقامته الشامخة يرحب به ، ويأخذه بين أحضانه . . كان المعداوى قد كتب المقدمة !

وكان ميلاد كاتب من جيل تعلم ونشأ فى كنف أساتذة كبار .

فلهفى على الجيل الحالى الذى يصرخ كل يوم فى طلب الأساتذة !

كبرت مائة عام !

كبرت مائة عام !

الكتاب الأول لأى كاتب حدث جلل فى حياته . . لحظة الميلاد مليئة بالشغف والحزن الرقيق والفرح الغامر . وعندما يمسك الكاتب فى يده بكتابه الأول يشعر أنه قد كبر فجأة مائة عام . . ذلك أنه يدخل منذ تلك اللحظة عالم الكبار . . عالم المسئولية عن كل حرف يكتب بعد ذلك . . المسئولية عن موقف معين لابد أن يتخذه من الكون ، والحياة ، والناس ، والأشياء .

فالكاتب لا يكتب لمجرد ان يسطر أحرفا على ورق ، لكنه يكتب لكى يكتشف موقفه من الحياة !

منذ أن نشر الفتى اليافع كتابه الأول «سبعة أفواه» بمقدمة نقدية . لناقد كبير هو « أنور المعداوى » . شعر بفداحه المسئولية . . كيف يكتب بعد ذلك ، ولماذا يكتب ؟ وهذا هو السؤال . فداحة العبء الخطير تفقد الفتى شعوره بصباه . كان من المفروض ان يسير بين أقرانه من الفتيان يلهو بالحديث عن فتاة . . يدخن سيجارته الأولى على استحياء . يدخر نقوده ليشاهد أحد الأفلام . يهتم بالمنتصر أو المهزوم فى مباريات الكرة . يهيم فى مساء الطرقات مع أقرانه ضاحكا مستبشرا .

لكنه عندما أمسك بين يديه بكتابه الأول : حلم صباه وأمل المستقبل ، انتابه حزن عميق . . حزن صادر من أعماق سحيقة لا يدرى من أين . وابتعد عن رفاقه من الفتيان . . غابت عنه ضحكاتهم المجلجلة وقلوبهم التى لم تتعود بعد تحمل الهموم ، ووجد نفسه فجأة يكبر مائة عام .

كان الفتى قد تقاضى من كتابه الأول مبلغ اثنى عشر جنيها دفع بها إلى والدته التى لم تكن تجد قوت أطفالها الخمسة ففرحت بها وأشعرته أنه أصبح فجأة رجل البيت . . يكسب من عرق الجبين ، وأنه حل حقا محل والده المتوفى عن معاش ضئيل لا يملأ فراغ الأفواه المفغورة . ووجد نفسه فجأة الكبير ، وأصبح الجميع يعاملونه باحترام وتوقير لا يتناسب

مع سنه الصغير ، وكان عليه أن يقبل الدور الذى فرضته عليه هذه المجموعة من الأوراق المطبوعة التى تحمل كلماته الكسيرة ، فارتدى البدلة الداكنة الألوان ، وربطة العنق ، واتجه إلى قهوة عبد الله ليجلس مع الكبار وليقطع كل صلة برفاقه من الفتيان ، ويتبادل اللفائف مع من قطبوا جبينهم بحثا عن حل لمشكلة تؤرق مجتمعهم الأدبى . . هل الشكل يأتى أولا أم المضمون ؟!

لكن الفتى عندما كان يعود إلى غرفته الصغيرة فى المساء . . مثقلا بالمناقشات الحامية حول القضايا النقدية لم يكن يدرى بالضبط ما أهمية تلك القضايا إزاء لحظة إبداع واحدة . . كان يهوى وقتها قراءة القصص القصيرة . وذات مساء فتح أحد الكتب ، وقرأ قصة للكاتب الروسى تشيكوف ، اسمها : «الأسى» ، فى القصة يتحدث الكاتب عن الفلاح العجوز الذى أخذ يسوم امرأته العذاب طيلة أربعين عاما من زواجهما . كان فظا فى معاملتها لأن همومه الكثيرة فى الحقل ومعركته المريرة مع الفقر لم تترك له الفرصة لكى يهدى لها ذرة من الحنان طيلة هذه الأعوام ، وكانت هى تحتمله . . تتحمل إهاناته ومعاملته الفظة وتقدر له انشغاله بالكفاح من أجل لقمة العيش . كانت امرأة صبور وفية محبة . . مثل آلاف النساء البسيطات اللواتى يفنين حياتهن من أجل الزوج والولد . وذات يوم سقط جسدها الصابر العليل تحت وطأة المرض القاسى ،

وحملها الزوج فى عربته الصغيرة التى يجرها الحصان إلى المدينة التى تبعد عشرات الأميال حتى يعرضها على الطبيب . كانت الزوجة الوفية ملقاة يفترسها المرض والإعياء فى المقعد الخلفى من العربة ، وكان هو يجلس فى المقعد الأمامى يلهب ظهر حصانه بالسياط لعله يسرع بخطواته المتثاقلة فى قطع الطريق الطويل الشاق .

وفجأة . . شعر الزوج العجوز بمرارة السنوات الأربعين فى حلقه ، وأحس بالحنين والحب الجارف لهذه الزوجة العجوز الوفية التى قطعت معه رحلة الحياة صابرة جامدة دون أن تلقى منه كلمة طيبة واحدة طيلة حياتهما معا . وشعر أن الحياة ظلمتهما معاً عندما فرضت عليهما أن يدورا فى طاحونة الصراع مع الفقر والحاجة فلم يجدا الوقت لكى يتبادلا كلمة رقيقة أو ابتسامة عذبة أو لحظة حنان .

وفجأة وجد نفسه يحكى لها . . يكلمها . . يبثها حبه وحنانه وهى ملقاة خلفه فى العربة . كأنه كان يريد أثناء الرحلة أن يعوضها عن أربعين عاما مع العذاب . كان يقول لها : سوف تشفين بإذن الله ، وعندما نعود إلى منزلنا وأنت سليمة معافاة سوف أعوضك عن كل سنوات المعاناة . وكل لحظات الألم . ويبكى . . قال لها : كنت فظا معك ، وكنت غليظ القلب . . لكنى أقسم أن أيامنا المقبلة سوف تكون

هناء فى هناء . وسوف أعوضك بحنانى عن كل شىء . . ولم يسمع لها صوتا .

والتفت العجوز وراءه ليجد زوجته الوفية المخلصة قد ماتت فى الطريق !

شعر الفتى ليلتها بعد قراءة هذه القصة أن كل المناقشات النقدية عن الشكل والمضمون على مقهى عبد الله هى مناقشات عقيمة لا تساوى شيئا أمام عظمة لحظة الإبداع . . وشعر أيضا بما هو أقسى . إن مصاحبة الكبار فى مقهى عبد الله لا تغنى عن التجربة المباشرة فى الحياة .

فالحياة هى مادة الكاتب ، والحياة لا تنتظر . . أما المناقشات النقدية . فيمكن لها أن تنتظر ، ورغم أن الفتى شعر بعد نشر كتابه الأول أنه كبر مائة عام ، فقد شعر مع قراءة هذه القصة الرائعة أنه مازال صغيراً . . صغيراً .

ثلاث مقالات

ثـلاثة مقاه

فى أوائل الستينات ، انتقلت الحياة الأدبية الزاخرة بالقاهـرة من قهوة عبد الله بالجيزة إلى قهوة انديانا بالدقى . . لم يكن لقهوة «انديانا» نفس المذاق الشعبى الصرف الذى كان يميز قهوة عبد الله ، وإنما كانت تنتمى أكثر إلى روح الطبقة الوسطى . فروادها ــ من غير الأدبـاء ــ كانوا فى معظمهم من الأفندية والموظفين الذين ، لولا قيام الثـورة فى مصر ، لارتدوا الطربوش وأمسكوا بالمنشـة ، بعكس رواد قهوة عبـد الله ــ من غير الأدباء أيضا ــ الذين كـانوا فى معـظمهم من أصحاب الجلاليب .

كان محمود السعدنى وزكريا الحجاوى هما رمز قهوة عبد الله بولعهما الشديد ــ بل وعشقهما ــ لحوارى الجيزة القابعة خلف قهوة عبد الله الرابضة فى الميدان . . وكان هذا الامتداد الشعبى وراء القهوة خلال الأزقة ، والحوارى المتعرجة وصولا إلى ميدان سوق الأحد الشعبى ، وحتى منطقة « ساقية مكى » التى تفصل حضر الجيزة عن ريفها هى عالم زاخر بالشخصيات ، والأنماط الشعبية والتراث هو ــ فى اعتقادى ــ الذى أعطى زكريا الحجاوى تلك الشرارة المقدسة التى أطلقته باحثا فى أرجاء مصر كلها عن حكمة هذا الشعب ممثلة فى الكلمة والموال والحكاية والأغنية . . تراث شفاهى عريق كان الحجاوى هو فارس اكتشافه وعاشقه الأول . . إنطلق من حوارى الجيزة خلف قهوة عبد الله يجمعه ويبعثه من جديد أغنيات ومواويل وحكايات على لسان الفنان الشعبى التلقائى لابس الجلابية الفلاحى أو الصعيدى . . محتضن الربابة . .

وإلى جانب الحركة الثقافية والفكرية والنقدية الزاخرة التى ارتبطت بقهوة عبد الله ، فقد ارتبطت بها أيضا حركة اكتشاف الينابيع الأصيلة للأدب الشعبى والفنون الشعبية ، وإثارة الاهتمام بالفولكلور بوصفه الكنز الهائل للموروث الشعبى الذى شكل وجدان الشعب وشخصيته الثقافية المميزة على مر العصور . وإذا كان زكريا الحجاوى هو فارس هذه الحركة على المستوى الشعبى ، فإن أحمد رشدى صالح هو فارسها أيضا



على المستوى الأدبى والأكاديمى . . وقد كان رشدى صالح أيضا من رواد قهوة عبد الله . . إرتبط بجلستها الليلية شأنه شأن بقية أدباء المقهى . . لكنه كان كثيرا ما يخلد إلى جلسة أخرى فى كازينو يقع على الجانب الآخر من ميدان الجيزة العتيد . . هو كازينو « صان صوصى » . . وهى كلمة بالفرنسية تعنى « بلا أحزان » !

وفى هذه الجلسة المنعزلة التى غالبا ما كانت تتم فى الظهيرة ، وليس فى المساء ، كان رشدى صالح يختلى بأخلص أصدقائه حينئذ . . الكاتب المسرحى نعمان عاشور ، والناقد الدكتور على الراعى . . وكان الفتى أحيانا يختلف إلى « صان صوصى » للقراءة أو لكتابة محاولاته الأولى فى المسرحية . . ولم يكن هذا — على أية حال — هو مقصده الحقيقى من الذهاب إلى « صان صوصى » فى الظهيرة . . بل كان يتعلل بذلك لكى يرى هؤلاء الثلاثة ان تصادف ووجدهم وهم يجالسون بعضهم البعض ، ويحتسون المشروبات المثلجة . ويتبادلون الحديث الضاحك . . ويجلس معهم لحظات كانت بالنسبة إليه ثمينة مشبعة . . فقد كان الثلاثة يمثلون لديه روافد حركة أدبية هامة فى دراسات الأدب الشعبى أو الفولكلور ، وفى فن المسرح ، وفى النقد الأدبى . .

كان رشدى صالح ونعمان عاشور يتميزان بروح السخرية العذبة

التى تجعلهما ، فى عين نقدية نافذة ، يسخران من كل شىء ، وكانت ضحكاتهما تدوى سعيدة مجلجلة مشرقة ، أما صاحبهما الثالث ، الدكتور على الراعى ، فقد بدا للفتى أنه متجهم الوجه دائما ، مفتقرا إلى روح الدعابة والسخرية ، كأنما يأخذ الأمور ، حتى أكثرها هزلا ، بجدية شديدة ، يخفى وراء قناع وجهه الهادىء شيئا غير قليل من العصبية وعدم الرضا عن الأشياء . . كل الأشياء . . وبالرغم من شهرته التى كانت حينئذ قد بدأت ترسخ بوصفه من كبار النقاد ، ونقاد المسرح على وجه الخصوص ، وبالرغم من أن الفتى كان يقرأ له بانتظام مقالاته النقدية وكتبه ، خاصة عن مسرح برنارد شو وهو رسالته للدكتوراه ، إلا أن جلسة « صان صوصى » جعلته ينفر منه ، بالرغم من أن الدكتور الراعى كان أحد أساتذة الأدب الإنجليزى ، وهو نفس فرع تخصص الفتى ، الذى كان وما يزال يكن له فى قلبه اعزازا خاصا وضعفا معينا .

وربما كانت جلسة « صان صوصى » فى الظهيرة ، وما لاحظه على الدكتور الراعى من جدية وتجهم دائمين هو السبب فى نفور الفتى منه حتى الآن . فلا يذكر الفتى أنه فى لقاءاتهما القليلة فى ذلك الوقت أو بعد ذلك حين كان الفتى يلتقى بالدكتور الراعى مصادفة فى أحد المسارح أو المحافل الأدبية أو فى رحاب الجامعة أنه رأى الابتسامة تعلو شفتيه ولو للحظة خاطفة ، فاستقر فى نفس الفتى أنه يحرص على أن يباعد بينه

وبين غيره ، خاصة من يظن أنهم دونه فى العلم أو المكانة ، وأنه يختلف عن جيل الأساتذة الكبار مثل مندور ولويس عوض ورشاد رشدى والمعداوى الذين كانوا يحدبون على تلاميذهم ويأخذون بيدهم . . ولا يبخلون عليهم بعلمهم وتوجيهاتهم ، ويفتحون أمامهم كل السبل حتى يشتد عودهم . .

وبالرغم من شعور الفتى بالنفور الشخصى من هذا الناقد الكبير ، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يقرأ له ويتعلم منه أحيانا . . فقد أضاف الراعى إلى المكتبة المسرحية عدة دراسات هامة وأثيلة فى منهجها وفكرها ، يعتقد الفتى أن ما سيبقى منها للزمن هى دراسته عن توفيق الحكيم الذى سماه ـ بحق ـ فنان الفرجة والفكر ، معارضا بذلك تلك النظرة التقليدية لمسرح الحكيم على أنه مسرح ذهنى صرف . وقد أثبت د. الراعى فى هذه الدراسة الهامة أن جوهر مسرح الحكيم لا يقتصر على تجسيد الأفكار وتصارعها ، وإنما هو يتميز بوجود وسائل درامية جذابة تجعل منه أيضا مسرحا نابضا بالحياة حافلا بمتعة الفرجة .

ويعتقد الفتى أيضا أن من أهم دراسات د. الراعى التى ستبقى للزمن لتفردها ، وجدة منهجها ، وتميزها بالقدرة على البحث والابتكار كتابه عن «الكوميديا المرتجلة فى المسرح المصرى» الذى أعاد فيه اكتشاف فنون وأشكال مسرحية شعبية سبقت ظهور المسرح الرسمى .

أما صاحباه فى جلسة الظهيرة بكازينو « صان صوصى » ، أحمد رشدى صالح ونعمان عاشور ، فقد كانا ـ كما سبق القول ـ مختلفين أشد الاختلاف عن د. الراعى فى نزوعهما الدائم إلى السخرية والمرح . وكانت ضحكاتهما المجلجلة التى يمتزج فيها المسرح الخالص بالسخرية المرة تشيع البهجة فى نفس الفتى ، وتشعره بأن الفنان الحق هو ذلك الذى يعيش الحياة بعمق إحساس الفنان وعقل الناقد معا ليتمكن من رؤ ية نقائصها ،ويسخر من مظاهر العوجاج والشذوذ عن المألوف بها مستخلصا من كل ذلك رؤ ياه الخاصة لمستقبل أفضل لمجتمعه وللإنسان على وجه العموم .

وإذا كان رشدى صالح هو ـ بحق ـ أبو الدراسات الفولكلورية أو دراسات الأدب الشعبى بما جذب إليه الأنظار فى كتابه العظيم «الأدب الشعبى» من كنوز الوجدان الشعبى كما يتمثل فى التراث الشفاهى المتراكم عبر السنين المعبر عن حكمة الشغل وأصالته ، فإن نعمان عاشور هو بحق أبو المسرح المصرى الحديث . فمنذ مسرحية «المغناطيس» التى عرضها له المسرح الحر عام ١٩٥٨ و «الناس اللى تحت» مسرحيته العظيمة التى عرضت بعد ذلك بسنوات قليلة فى المسرح الحر أيضا ، أصبح اسم نعمان عاشور مقرونا بالتيار الواقعى الحديث فى المسرح المصرى بل والعربى . وبظهور هاتين المسرحيتين على وجه

التحديد انتهى عصر المسرح الغربى الكلاسيكى الذى يستمد أحداثه من التاريخ أو قصص البطولات ، كما انتهى عصر الميلودراما كما تجلت فى مسرح يوسف وهبى ، وبدأ عصر جديد هو عصر الواقعية . .

من قهوة عبد الله إلى كازينو صان صوصى إلى قهوة انديانا بالدقى كانت حركة أدبية كـاملة قد تشكلت ورسمت معـالم واضحة لـلأدب المصرى بل والعربى كله .



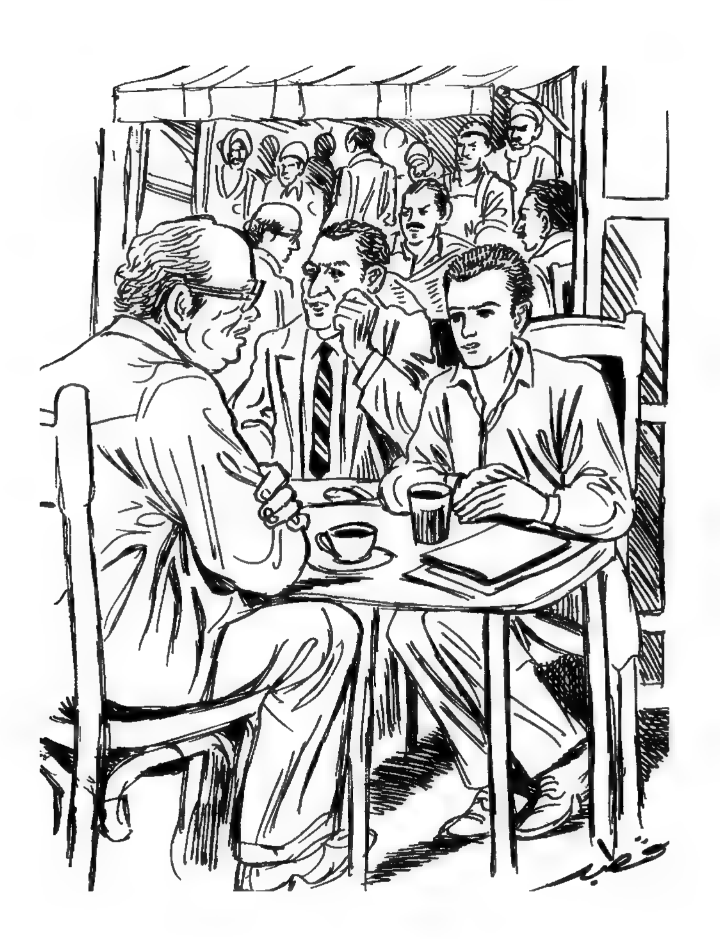
قهوة أنديانا !

قهـوة انديـانا !

لا يدرى الفتى على وجه التحديد ما السبب فى أنها كانت تسمى قهوة انديانا . . فمن الـواضح أن الكلمـة هى اسم لولايـة أمريكيـة ريفية مترامية الخضرة كثيفة المطر فى الصيف شديدة البرودة فى الشتاء . . وقـد تصادف بعـد ذلك أن الفتى ذهب يتلقى علومـه العليا بـإحدى جامعات هذه الولاية بالذات . . واسمها أيضا جامعة انديانا . . فتذكر حين وصل إليها تلك القهوة المشرفة على ميدان الدقى بالقـاهرة والتى انتقل إليها زبائن قهوة عبد الله لتبدأ هى الأخرى مسيرتهـا فى تشكيل ملامح الحركة الأدبية المصرية فى أوائل الستينات . . بعد أن كانت قهوة عبد الله هى بطلة الخمسينات بلا منازع !

كانت ملامح قهوة انديانا تختلف إلى حد كبير عن سابقتها الواقعة فى ميدان الجيزة . . فحى الدقى كان حينئذ ــ وما يزال إلى حد بعيد ــ حى البورجوازية المصرية . . حى كبار الموظفين أصحاب الياقات البيضاء وغيرهم من أرباب المهن المتخصصة من محامين وأطباء وضباط . . ووكلاء للوزارات .

وقد انعكست هذه الروح المحيطة بالمقهى على المقهى نفسه . . فبالرغم من أن المقهى ــ أى مقهى ــ ليس أكثر من مكان لشرب الشاى والقهوة . . وأحيانا لعب الورق والنرد وتبادل الأحاديث فى جو من الاسترخاء المحبب بعد عناء يوم من العمل ، إلا أن الغريب أن المقهى يكتسب شخصيته ، وربما روحه العامة ، من الجو المحيط به . . وهكذا كان الحال مع قهوة عبد الله فى ميدان الجيزة . . فقد كانت قهوة شعبية بكل ما تحمل الكلمة من معنى . . وربما كان هذا هو السبب فى أن حركة الاهتمام بالأدب الشعبى والمأثورات الشعبية والفولكلور قد ولدت فى هذه القهوة بالتحديد وما أحاط بها من حوار وأزقة حى الجيزة . . الذى يجمع بين طابع الأحياء الشعبية بالقاهرة وبدايات الريف الممتد حتى أعماق الصعيد . . أما قهوة انديانا . . ــ ومع الأخذ فى الاعتبار اسمها الأجنبى ــ فقد كانت تمثل شيئا آخر . . فإلى جانب وجودها فى قلب حى الطبقة الوسطى المصرية ، فإنها كانت تمثل اهتماما خاصا للحركة الأدبية



فى أوائل الستينات . . وهو الاهتمام بمشاكل الطبقة الوسطى ـ وبصراعاتها . . وبنزوعها نحو التسلق . . وبأزماتها الاجتماعية الخاصة . .

كان نجيب محفوظ قد كتب روايته الشهيرة «بداية ونهاية» مصورا فيها ذلك الضابط الذى يخرج من بيئة شعبية محضة ليتنكر لأسرته . . أمه ، وأخته التى تنكب على ماكينة الخياطة طيلة النهار وجزءا كبيرا من الليل حتى تكسب قوت العائلة وتساعد شقيقها على إكمال تعليمه . . وعندما يتخرج هذا الأخ فى الكلية الحربية يتمرد على هذه البيئة الشعبية التى نشأ فيها ويراها غير لائقة بمقامه الجديد . . ويمزقه ذلك الصراع القاتل بين انتمائه الأصيل إلى الحارة المصرية بكل نماذجها الشعبية الطيبة ، وبين رغبته فى أن يرتقى السلم الاجتماعى ليصبح عضوا فى طبقة ليست بالتأكيد هى الطبقة التى خرج منها . .

وهكذا كانت أيضا قهوة انديانا . . رمزا للمثقفين المصريين الذين يخرجون من بيئة شعبية ليحتلوا مراكز اجتماعية مرموقة . . وليصبحوا نجوما للصحافة والأدب . .

من بين رواد المقهى الذين انتقلوا إليها من قهوة عبد الله كان أنور المعداوى فى أيامه الأخيرة . . فبعد سنوات من انتقاله إلى انديانا ـ وكان

لا يزال يعمل بالتربية والتعليم ــ مر بضائقة مالية شديدة اسلمته إلى حالة من الاكتئاب ثم اختفى فجأة من على كرسيه الأثير فى مقدمة المقهى . . وسمع الجميع أنه مات ! . . مات موتاً عبثياً لا معنى له ، إذ عاد ذات مرة فى المساء إلى شقته فى حى الدقى . . والتى كان يعيش فيها وحيدا بلا زوجة أو ولد ــ فهو لم يتزوج أبدا . . عاد إلى هذه الشقة . . ومات ! هكذا فجأة وبدون مقدمات . . وكأن الانتقال إلى قهوة انديانا بالنسبة له كان يعنى الانتقال إلى حياة المدينة بكل قسوتها . . وبشوارعها البورجوازية المسفلتة الصماء . . وبأبنيتها المرتفعة التى تشبه علبا من الخرسانة والزجاج لا روح لها ولا قلب . . تخنق فردية الانسان ، وتوقف ما بينه وبين الآخرين من أسباب التواصل الإنسانى والتعاطف الذى لا يجده المرء إلا فى حياة الريف أو حياة الحى الشعبى . . وكأن أنور المعداوى لم يحتمل هذا الانتقال . . فمات !

لم يكن غريبا اذن أن ترتبط قهوة انديانا فى نفس الفتى بهذا الانتقال فى روح المجتمع نفسه . . من الشعور بالراحة والاطمئنان والتواصل الإنسانى الذى يصاحب مجتمع البيئة الشعبية المشرف عند نهايته على الريف الفسيح ، إلى مجتمع الحضر . . مجتمع المدينة الكبيرة التى بلا قلب . . تسحق الإنسان البسيط . . وتحوله إلى ترس فى آلة . . أو رقم فى مجموع . .

كـان أحد رواد مقهى انـديانـا ، المختلف أحيـانـا إلى جلسـاتـه المسائية ، فتى يافعا يميل رأسه إلى الصلع وهو بعد فى مقتبل العمر . . قدر له بعد ذلك أن يصبح واحدا من أكبر شعراء العربية المعاصرين . . كان فتى حاد الملامح والقسمات . . على وجهه مسحة حزن دفين تختلط بغير قليل من الدهشة . . دهشة الانسان البسيط البرىء الذى يصطدم لأول مرة بالإدراك الهائل أن الحقيقة أعقد كثيرا مما يتصـور . . ويخيل إليك أن مصدر الحزن الدفين على قسمات الوجه الريفى الصبوح أنه ذلك الحزن المصاحب دوما لفقدان البراءة ! أو ذلك الألم العميق عندما يدرك الإنسان أن الطفل فيه على وشك أن يموت ليحـل محله الرجـل الناضج المثقل بالهموم .

جاء هذا الفتى الشاعر إلى المدينة الكبيرة من أعماق الريف يقطر حبا ويقطر شعرا . . وظل يبحث فيها عن رفيق يأتنس به . . أو لحظة دفء تشعره بأن الحياة مازالت كما كانت عليه حين كانت القرية كلها تهرع لمشاركة أحد أبنائها الفرحة بيوم زفافه . . أو تسير كلها باكية خلف جنازة عزيز مات من أبنائها . . ولكنه يدرك فى النهاية أنها مدينة بـلا قلب !

ولا يزال يتردد فى سمع الفتى عبر أكثر من عشرين عـاما مضت قصيدة أحمد عبد المعطى حجازى الرائعة التى حملت عنوان ديوانه الأول

«مدينة بلا قلب» . . والتى يصور فيها ذلك الفنى الريفى الجائع الدائخ الضائع فى شوارع المدينة القاسية ، يتجه إلى مسجد السيدة زينب طالبا الأمان والسكينة فلا يدله على المسجد أحد . . ولا يأخذ بيده أحد . . ولا يكاد ينظر إليه أحد . . لكأن هذه الجموع من البشر قد أصبح كل منهم جزيرة معزولة عن الآخرين . . لا يكاد الواحد منهم ينظر إلى أبعد من موطىء قدميه . . تقطعت بين بعضهم البعض كل سبل التواصل والتعاطف . . ولكأن المدينة ذاتها قد تحولت إلى كائن شائه غريب بلا قلب وبلا روح . . لا يتوقف لحظة فى زحمة الحياة ليلقى نظرة عطف على إنسان جائع غريب . . أو ليأخذ بيده نحو الأمان :

- ياعم
من أين الطريق
أين طريق السيدة
- أيمن قليلا ثم أيسر يا بنى
قال ولم ينظر إلى . .
وسرت ياليل المدينة
أرقرق الآه الحزينة
أجر ساقى المجهدة
للسيدة

بلا نقود جائعا حتى العياء

بلا رفيق

كأننى طفل رمته خاطئة

فلم يعره العابرون فى الطريق

حتى الرثاء .

وعلى الجانب الآخر كان صلاح عبد الصبور فى ديوانه «أحلام الفارس القديم» يعبر عن مشاعر مشابهة فى قصيدته الرائعة التى ضمها هذا الديوان «أغنية للقاهرة» :

لقاك يا مدينتى حجى ومبكايا

لقاك يا مدينتى أسايا

وحين رأيت من خلال ظلمة المطار

نورك يا مدينتى

عرفت أننى غللت للشوارع المسفلته

إلى الميادين التى

تموت فى وقدتها خضرة أيامى . .



شعر الفتى أن الانتقال من قهوة عبد الله إلى قهوة انديانا قد حمل له

معانى ودلالات كثيرة . فلم يكن ذلك الانتقال مجرد رحلة فى المكان إذ لا يفصل القهوتين عن بعضهما البعض سوى عدة كيلو مترات محدودة ، وإنما كان انتقالا يحمل الحياة الأدبية كلها إلى تأمل نوع الحياة الذى تفرضه المدينة . . وهى حياة تخلت عن عفويتها وتلقائيتها لتفرز فى أوائل الستينات أنماطا جديدة من الإبداع والفكر . . فها هو الشعر على يد صلاح عبد الصبور وحجازى يتخلى عن خطابيته وحتى رومانسيته ليعانق مشكلات الانسان الصغير ساكن المدينة المسحوق تحت عجلة الحياة فيها ، فى لغة شعرية جديدة ، ليس فيها شىء من فخامة اللغة الكلاسيكية عند البارودى أو شوقى ، وليس فيها عمومية ناجى ورومانسية على محمود طه الذى يسبح فتاه على صفحة النيل فى «زورق من نور مذاب» وإنما هى لغة نابعة من تفاصيل الحياة اليومية وقسوتها ، وها هو الشاعر يحطم عمود الشعر التقليدى ليسمح لنفسه بأوزان أكثر حرية تجعله قادرا على التعبير الذى يجسد تلك الحياة اليومية من حوله فى المدينة ، بل والأهم من ذلك تجعله قادرا على التعبير عن حساسية جديدة تماما منتصرا للإنسان الصغير المقهور فى ظل حياة لا ترحم . .

وها هى الرواية على يد نجيب محفوظ تصور ذلك الانسان البورجوازى الصغير فى تطلعاته وانسحاقه معا فى «بداية ونهاية» وفى

«خان الخليلى» وغيرها . . وها هى القصة القصيرة على يد يوسف ادريس تتخذ شكلا جديدا تماما حيث تصبح اللقطة الموحية ــ دون حكاية أو حدوته ــ للانسان البسيط فى صراعه مع قوى القهر فى حياة المدينة فى مجموعة «أرخص ليالى» و «أليس كذلك» و «قاع المدينة» تصبح تجسيدا حقيقيا لهذه المرحلة الجديدة من الانتقال ــ ليس فقط من قهوة عبد الله إلى قهوة انديانا ــ وإنما من عصر الرومانسية إلى عصر الصفاء والنقاء فى الريف أو الحى الشعبى إلى عصر الولوج إلى خضم هائل من صراعات الحياة فى المدينة الكبيرة التى تسحق انسانية الانسان . .

إنها حقا عدة كيلو مترات قليلة تفصل بين قهوة عبد الله فى الجيزة . . وقهوة انديانا فى الدقى . . لكنها وان كانت خطوات قصيرة فى المكان إلا أنها كانت تمثل قفزة هائلة فى الروح والمزاج والحساسية التى ميزت الأدب المصرى والعربى فى أوائل الستينات .

هل قدر لهذا المقهى المستطيل . . القبيح الشكل . . المطل على ميدان الدقى أن يرمز إلى كل ما فى حياة المدينة من دلالات ، أن يكون هو الرمز لهذا الانتقال الغريب من مرحلة إلى أخرى . . لست أدرى . كل ما أدريه أن هذا ما ينطبع فى نفس الفتى كلما مر بميدان الدقى فى ترحاله اليومى إلى رحاب الجامعة ليتوقف قليلا . . ويتذكر !

العنزة .. في قسم الشرطة!

العنزة .. فى قسم الشرطة !

أدرك الفتى أنه مهما أطال فى مجالسة الكبار فلن يصبح كاتبا . . وانما عليه أن ينزل معترك الحياة . فتجاربه القليلة المحدودة لا تعدو محيط أسرته . . وحدبه على أمه واخوته . . وقراءاته التى كانت تصيبه بالكثير من الدهشة . . والكثير من خيبة الأمل . . الدهشة لأن العقل الإنسانى يمكن أن يملك كل هذه الموهبة التى تمكن صاحبها من تلخيص الحياة فى قصة . . أو الكشف عن أسرارها فى لوحة . . وخيبة الأمل لأنه لا يستطيع أن يكتب مثلهم أو يبلغ موهبتهم . . وإن جالس بعضهم فى قهوة عبد الله . . فكانَ عندما يرتمى على رصيف القهوة فى المساء يشعر بأنه غريب ، أو بأنه ليس له حق الكلام مع هؤلاء الذين تنشر الصحف

مقالاتهم وقصصهم وأشعارهم . . بينما لا يستطيع هو أن يجد ما يكتب عنه . . لأنه لم يعرف الحياة .

ولكى يعرف الحياة . . قرر الفتى أن يعمل صحفيا . . أخذه صديق إلى إحدى المجلات الأسبوعية . . وهناك قبلوا أن يعمل معهم تحت الاختبار . . وكان أول تكليف له كصحفى أن يغطى رحلة بعض السادة الذين سيذهبون فى فجر اليوم التالى لصيد البط فى بحيرة قارون بالفيوم .

ومع الفجر وجد الفتى نفسه مع هذه المجموعة من الأثرياء يرتدون ملابس الصيد : سراويل منتفخة داكنة الصفرة . وقمصانا حريرية زاهية ، وقبعات كاكية مستديرة كتلك التى كان الفتى يراها فى أفلام الأدغال الأجنبية يرتديها المستعمرون الأوروبيون فى هجومهم على الانسان والحيوان من أهل البلاد التى يغزونها . وكان كل واحد من أفراد المجموعة التى يبلغ عددها عشرة أشخاص أو نحو ذلك يتربص وراء « خص » من القش شاهرا بندقيته نحو تلك الطيور البريئة التى كانت قد فتحت لتوها أعينها وأخذت ترفرف فى بشر بأجنحتها فرحا بمقدم الصبح الجديد .

وكان من أصول اللعبة أن يمسك أحد بصفارة تطلق صوتا يشبه



صوت البط البرى السابح فى البحيرة حتى يجذبه نحو بنادق الصيادين المتربصين . ولما لم يجدوا أحدا يقوم بهذه المهمة التفت أحدهم إلى الفتى وسأله عن سبب وجوده فى هذا المكان .

وأجاب الفتى : أنه فى مهمة صحفية لتغطية هذه المعركة التى بدت له غير متكافئة بين الانسان بأسلحته التى تفتك بكل ما هو جميل فى الحياة . . وبين تلك الطيور التى لا تدرى فى أمر من يتربصون لها شيئا ، ولم يفهم الصياد من هذا الكلام شيئا انها سفسطة لا لزوم لها ودفع فى فمه بالصفارة وأمره بالنفخ فيها حتى تصدر صيحات متقطعة منتظمة تجذب البط .

وأسقط فى يد الفتى . . ووجد نفسه ينفخ فى الصفارة فيصدر أصواتا كصوت البط . . وخيل إليه للحظة أنه تحول إلى بطة ، وأن كل البنادق مصوبة إليه ، وأنه يخوض معركة رهيبة ضد وابل من الرصاص الذى سينهال عليه بعد لحظة . . وشعر أن الحياة هى أثمن ما فى الوجود . . فوجد نفسه فجأة يلقى بالصفارة . . ويطلق ساقيه للريح .

كانت لحظة كشفت فى وعى الفتى إحساسا لم يشعر به أو يفكر فيه من قبل . . الموت . فى لحظة ممكن أن تنطلق رصاصة فينتهى كل شىء . وتعجب لماذا يفعل الانسان وحده ــ دون مخلوقات الله جميعا ــ ذلك ؟

لماذا يضطهد غيره من مخلوقات الله ؟ لماذا تتملكه تلك الرغبة الشريرة فى تدمير غيره فيمسك البندقية ويقتل ؟ وتساءل الفتى فى نفسه : هل رأى أحد يوما عنزة تمسك بعنزة أخرى وتقتادها إلى قسم الشرطة ؟

وهل رأى أحد يوما حمارا أو حصانا أو حتى أسدا يمسك ببندقية يطلق رصاصها فيمزق أحشاء إخوته من المخلوقات دون أن يرمش له جفن ؟

ولماذا تكون للانسان وحده كل هذه الطاقة على القتل . . والخراب . . والدمار ؟

وعاد الفتى إلى المجلة ليقدم استقالته من الصحافة . . فقد أدرك أنه لن يكون أبدا صحفيا لأنه لا يستطيع أن يتجرد من مشاعره ليصف الحقيقة كما حدثت . . لا كما يراها هو ، أو كما تنطبع على وعيه . وكان عليه لكى يعرف الحياة . . أن يختط لنفسه طريقا آخر .

وأصدرت السيارة حشرجة عجيبة !

وأصدرت السيارة حشرجة عجيبة !

وجد الفتى نفسه يعرج فى آخر المساء إلى قهوة عبد الله بميدان الجيزة مرة أخرى . . لم يشعر بمرارة الفشل فى حلقه لأنه لم يستطع أن يختار الصحافة طريقاً له فى الحياة . . بل شعر بسعادة لاحد لها لأن هذا الفشل أثبت له أن الأدب هو طريقه الوحيد لا الصحافة . . كانت فى نظره أن يتعلم كيف يكتب ما حدث . . أما هو فكان يريد أن يكتب عن ما يحلم أن يحدث . .

وكان يشعر فى قرارة نفسه أن الكاتب هو فى خلاف دائم مع الواقع . . فهو دائماً يحلم بما هو أفضل . . ولذلك تظل الجذوة متأججة

دوما فى صدره . . وفى اللحظة التى يكف فيها عن الحلم يكف أيضاً عن الحياة .

كانت قهوة عبد الله بالنسبة إلى الفتى ذاك المساء قطعة من الحلم المتأجج فى صدر أمة بأكملها . . ففيها تجلس عقولها . . وصناع وجدانها . . وفيها يعانون من الواقع . . ويحاولون بالكلمة تغييره . . كان ينظر إليهم فى ذلك المساء كمجموعة من أبطال الأساطير . . ليسوا من طينة البشر جلس إلى إحدى الموائد بجوار الناقد الكبير أنور المعداوى فوجده شامخا بشاربه المصقول وقامته المهيبة ورأسه المرتفع دوما صوب السماء المظلمة . . ونظر فى ركن آخر فوجد الناقد الكبير الدكتور عبد القادر القط يجالس كاتبا كبيرا آخر هو أحمد عباس صالح . . كان الفتى قد سمع فى نفس اليوم عبر أثير الاذاعة مسلسلاً عن أبى ذر الغفارى كتبه عباس فهالته عباراته الشاعرية وتصويره المعاصر لشخصية أبى ذر . . ونظر إلى الدكتور القط وعباس صالح فوجدهما يكادان يفرغان من آخر دور من أدوار لعب الشطرنج فشعر بأن العقول العملاقة لابد أن تستريح قليلاً فتلعب . . حتى تتأهب للمعركة الفكرية التالية ! .

ودخل محمود السعدنى وزكريا الحجاوى . . وسبقتهما ضحكاتهما المجلجلة . كان السعدنى فى بداية أوج شهرته . كاتبا ذكياً . . ساخراً

إلى درجة البكاء . . مغلفاً ضحكاته التى تبدو بريئة دائماً بروح نـاقدة تكشف دفعـة واحـدة عن كـل مـا فى الحيـاة من أخـطاء . . وكــان الحجاوى ـــ رفيق عمره وابن موطنه فى شوارع الجيزة وأزقتها ـــ قد بدأ منذ زمن يخوض معركته بمفرده لجمع كنوز الأدب الشعبى من القرى والدساكر كان يؤمن بأن اكتشاف الروح الحقيقية لهذا الشعب تكمن فى اكتشاف ما أبدعه من أشعـار وألحان وحكم وأمثـال تراكمت عبـر السنين . . أنات حنين هذا الشعب إلى الحرية . . معاناتـه من سنين القهر . . غناؤه نحو المستقبل . .

ونظر الفتى إلى الحجاوى فرأى فيه الفارس جاسون الذى قرأ عنه فى أساطير اليونان القديمة . . يخرج مفردا فى رحلة الأهوال ليعود بالفروة الذهبية . . وهكذا كان الحجاوى فى نظره . . فارس مصرى أسمر . . ملتهب العينين ببقايا رمد قديم كذلك الذى يصيب آلاف المواطنين من فلاحى مصر . . لكن فى العيون توهج غريب . . واصرار على اعادة اكتشاف وجدان هذا الشعب . . بكل صدقه وأصالته فعاد من رحلته عـلى طـول مصـر وعـرضهـا بـآلاف الأشعـار والحـواديت والغنـاوى والآهات . . يطلقها أفراد فـرقته للغنـاء والآلات الشعبية . . تعـزف وتغنى تراث هذا الشعب الأصيل على الربابة والأرغول . . وكـما وقع

الحجاوى فى حب الوطن . وقع فى غرام خضرة . . الفلاحة السمراء القادمة معه من أعماق ريف مصر تغنى بصوت قوى كأنـه يصدر من أعماق السنين السحيقة عذابات وأفراح عمر الوطن الممتد على ضفاف النيل . . فتزوجها . .

وفى ركن قصى من المقهى جلس نجيب سرور الشاعر الذى أصبح له فيها تلا من أيام شأن كبير . . كان يبدو كسيرا وحيدا مهزوما . . لكن عيناه كانتـا تتألقـان بوهـج وحشى . . كان يغنى للفقـراء والمقهورين البسطاء . . وكانت الكلمات فى يده سلاحاً بتاراً لا يعرف الهوادة . .

كان هو الشاعر الذى عاش يحلم للفقراء . . . ومات فقيراً غريبا بعد أن أجهض الحلم شعر الفتى بأنه أقرب رفقة إلى نجيب . . فعمد إلى طاولته ليجلس بجواره . . وأنشده نجيب بعض أشعـاره فانتشى . . وشرب الشاى . وكان يشعر بحب شديد لنجيب . . لأنه بجانب كونه شاعرا رجل مسرح وكان الفتى يشعر بحب دافىء للمسـرح . . وكان نجيب أيضا ممثلاً ومخرجاً . . ومحبا لتشيكوف ويستعد لاخراج إحدى مسرحياته لكنه لم يكن قد أصبح بعد واحدا من هؤلاء العمالقة الذين يخشى التقرب إليهم لأنه لا يستطيع أن يطاولهم قامة . . جلس الفتى بجوار نجيب يختلس النظر إلى الجالسين حول الشطرنج . . وقد اتسعت

الحلقة لتضم إلى جانب القط وعباس صالح ـ المعداوى والسعدنى والحجاوى والكاتب القصصى عبد الرحمن فهمى . وخيل إليه وهو يراهم من طاولته فى ركن المقهى أن هناك دخاناً شديد الرقة بدأ يتصاعد فى أرض المقهى شيئاً فشيئاً . . دخانا رمادياً تشف فيه الأجساد فتصبح كأطياف حلم . . ورآهم يكبرون شيئا فشيئاً ويكبرون . . وخيل إليه أن المكان كله قد تحول إلى أطياف ضخمة تسبح فى فضاء القهوة . .

تضحك أحيانا وتصرخ أحيانا . . وتهمهم بهمهمات لا يدرى معناها . . وشعر بنفسه يدق حجما بينما تكبر الأطياف من حوله وتختلط ببعضها البعض وهى تسبح . . وإذا بالقهوة تتحول إلى كتاب ضخم هو فاوست للشاعر الألمانى جيتة ووجد نفسه والقهوة وأطيافها السحرية جميعاً تتحول إلى مشهد ليلة الجحيم فى مسرحية جوتة . . ويتحول الأطياف إلى أشباح . . والأشباح إلى أرواح هائمة تجردت من أجسادها ورقت وشفت . . واخترقت حجب الحاضر والماضى والمستقبل . . تماما كشخصيات «ليلة الجحيم» فى كتاب جوتة التى رأت من أحوال هذه الدنيا ما لم تره عين . .

واستيقظ على نداء من نجيب سرور . . .

– هل معك خمسة عشر قرشاً ؟ .

– لماذا ؟ .

أردف نجيب . . ـ نفسى فى كباب . . أريد أن آكل كبابا وليس معى ولا قرش . . انقشع الضباب الرمادى فجأة. وشعر الفتى أنه هوى من حالق وسمع صوت السعدنى وهو يصيح . . هيا بنا أوصلكم بسيارتى . .

كان السعدنى هو الوحيد فى أفراد المجموعة الذى يملك سيارة متهالكة قديمة وضعها أمام رصيف القهوة ونهض الجميع ليركبوا السيارة . . إلا الفتى وصاحبه نجيب سرور اللذين أخذا يرمقان الجمع العائد فى آخر المساء وحلم الكباب يراودهما فلا يستطيعان تحقيقه بقروشهما القليلة وأصدرت السيارة عندما حاول صاحبها أن يدير موتورها ـ أصوات حشرجة عجيبة انخلع لها قلب الفتى ، وصاح السعدنى بضحكته المجلجلة . . «هيا زقوا يا أولاد أل . . حتى أوصل كل واحد إلى بيته» واختفت السيارة القديمة بخمسة عمالقة بأحلامهم العظيمة يدفعونها من الخلف فى مساء طريق الجامعة ، ، ،

الحلم والمهمة الخطيرة



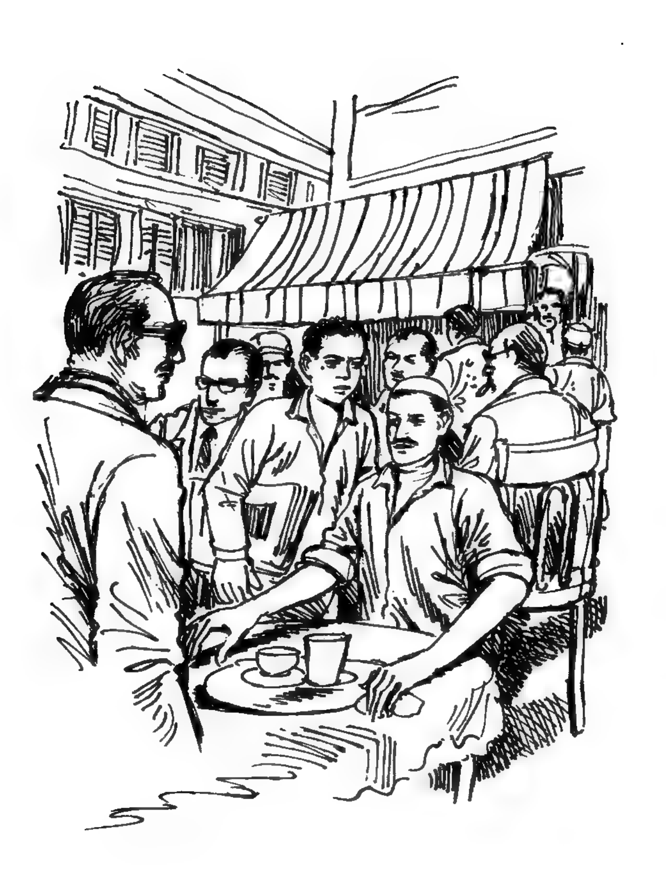
الحلم والمهمة الخطيرة

ذات مساء فوجىء الفتى وهو يجلس على رصيف المقهى مع أستاذه أنور المعداوى بسيارة سوداء فارهة تقف أمامها . . يقودها سائق مقطب الجبين كأنه جاء فى مهمة خطيرة . . وفى المقعد الخلفى جلس رجل بدا للفتى من وراء زجاج السيارة ومع اللون الرمادى الباهت الذى يفصل النهار عن ساعات المساء الأولى صارم الوجه ، حاد الملامح ، ذا عينين ثاقبتين وشارب رفيع مصقول . لاحظ الفتى أنه انتظر قليلا ليفتح له السائق باب السيارة ولم يشأ أن يفتحه بنفسه فاستقرت فى نفس الفتى بعض الخشية وغير قليل من الرهبة . كان الرجل فارع الطول ، عريض المنكبين ، بادىَ الأناقة مما جعل الفتى

يشعر أن حالته المادية لابد أن تكون أفضل بكثير من فقراء الأدباء الذين يرتادون المقهى كل مساء .

ونظر الفتى إلى أستاذه يبحث فى عينيه ، عن إجابة للكثير من التساؤلات التى جالت فى نفسه لمرأى السيارة وراكبها وسائقها جميعا ، فلم يكن من الأمور المعتادة أن يأتىَ أديب إلى رصيف المقهى بسيارة يقودها سائق . ولا أن تكون السيارة بهذه الفخامة التى توحى بأهمية صاحبها لا سيارة السعدنى المتهالكة التى كانوا يدفعونها كل مساء أملا فى أن يدور محركها ، ولا أن يكون الأديب نفسه بهذا الطول الفارع والهندام المتناسق والوجه الذى يوحى بالنعمة والراحة ، لا القلق والشحوب والاضطراب الذى ينبىء عن أن صاحبه قد حمل على كتفيه هموم العالم !

وتهلل وجه أنور المعداوى وهو يصافح القادم الذى لم يكن الفتى قد رآه من قبل على رصيف المقهى ، وقدمه إلى الفتى فادرك أنه الكاتب المسرحى سعد وهبة ، وكانت مسرحيته الأولى « المحروسة » قد أحدثت منذ شهور قليلة دويًا قفز بكاتبها إلى الصف الأول بين كتاب الواقعية الحديثة فى المسرح المصرى والعربى ، وكان الفتى شديد الاعجاب بمسرحية « المحروسة » وكاتبها دون أن يراه ، وكان قد شاهد المسرحية تمثل على المسرح القومى فى الأزبكية فراعه التصاقها الشديد بطين



مصر ، وتعبيرها الأصيل عن قوى التغيير التى كـانت تعتمل فى رحم المجتمع فى أواخر الخمسينات . كما استمتع بما يحمله حوارها من روح فكاهية عذبة وصافية ويهر لرؤ ياها المستقبلية التى كانت تنشد فى شخص الضابط الجديد سعيد ــ أحد شخوص المسرحية ــ مجتمعا جديدا فى كل شىء !

وبدا له أن هناك تناقضا بين هذا الرجل الفارع الطول العريض المنكبين الحاد الملامح المصقـول الشارب وبين الكاتب الـذى كتب « المحروسة » بروحها الفكاهية العذبة وفهمها العميق للحياة المصرية فى الريف ونماذجها الانسانية التى تقطر مصرية ، فـلا تملك إلا أن تحبها جميعا ، حتى أكثرها التواء وشرا مثل المأمور أو العمدة .

ولكن سرعان مازال عن الفتى إحساسه بالتنـاقض بين الشخص الجالس معهما على الرصيف والكاتب الذى أبـدع « المحروسـة » . إذ تكشفت أمامه من حديث سعد وهبة مع أستـاذه أنور المعـداوى عوالم سحرية من الخبرة الانسانية والفهم العميق للروح المصرية الأصيلة من خلال ما مضى الكاتب المسرحى يحكيه للأستاذ من نوادر وحكـايات ومواقف ساخرة صادفها أثناء عمله ضابطا للشرطة فى مختلف أنحاء ريف مصر ، يومها أحب الفتى سعد وهبة من قلبه ، وتمنى لو أنه قد جاء إلى

رصيف المقهى دون السيارة ودون السائق ، فلا يُلقى ما ألقاه فى نفس الفتى لأول وهلة من خشية ورهبة .

وانطلقت ضحكات الفتى صافية وهو يستمع من سعد وهبة إلى حكاية زوجة وكيل النيابة فى إحدى قرى شمال مصر التى كانت تحصر كل اهتمامها فى أن تمر « تشريفة » الشرطة الأسبوعية من أمام منزلها قبل مرورها من أمام منزل المأمور ، وأى الزوجتين كانت تتنازع السلطة من الأخرى تأكيدا لمكانة زوجها وهيبته فى « الحكومة » ووقوع الفلاحين الغلابة والمساكين فريسة هذا الصراع الدامى بين زوجة المأمور وزوجة وكيل النيابة . وهما قطبا السلطة فى القرية ، وكانت هذه اللقطات الحية التى عاشها سعد وهبة أثناء عمله فى الشرطة مخزونا هائلا جعلت من مسرحياته الأولى نبضا حيا لمرحلة هامة من مراحل التغيير الاجتماعى فى مصر .

وبعد لحظات من الحديث أفصح سعد وهبة عن السبب فى زيارته . أنه بصدد أن يصدر مجلة أدبية شهرية ، وأنه اختار لها اسما هو مجلة « الشهر » ومقرا فى شارع سليمان أحد الشوارع الهامة فى وسط المدينة . وأنه يدعو الأستاذ أنور المعداوى لزيارته فى مساء اليوم التالى ليتدارسا معا أمور المجلة الأدبية الجديدة . وكما جاء سعد وهبة فى كامل أبهة السيارة

السوداء الفارهـة والسائق المقـطب الجبين انصـرف تتابعـه عينا الفتى والسيارة تبتعد شيئا فشيئا يبتلعها الميدان المزدحم ثم مساء الـطريق .
ونظر الفتى إلى أنور المعداوى فوجده قد ضاعف من شد قامته المشدودة أصلا فأدرك أن الأستاذ قد غلب عليه الزهو الشديد وزاد اعتداده المعهود بنفسه وبمكانته . فها هو كاتب شهير وصاحب مجلة أدبية وليدة قد تجشم مشقة المجىء إليه يخطب وده ، وينشد معونته . وكان يمكن أن يرسل إليه من يستدعيه إلى مكتبه لكنه جاء بنفسه ، بسائقه وسيارته ، وبقامته الفارعة .

- سأله الفتى
- ماذا ستفعل يا أستاذ ؟

أجاب الأستاذ

- سأذهب غدا وستذهب معى ، ستكون سكرتيرا لتحرير المجلة الجديدة !!

ولم يذكر الفتى أنه سمع الكاتب سعد وهبه يعرض عـلى الأستاذ مسؤولية رئاسة تحرير المجلة الجديـدة ، لكنه أدرك أن الأمـر لابد أن يكون كذلك مادام الأستاذ قد قال ذلك .

وفرح فرحا شديدا باختيار الأستاذ له سكرتيرا لتحرير المجلة ، ولم

يرد أن يجادل « الأستاذ » فى أمر الغرض من زيارة سعد وهبة له ، فلم يكن الأستاذ ليتصور أن يجيء إليه الكاتب وصاحب المجلة بأقل من هذا العرض .

ومضى الاستاذ يحدث الفتى فى أمر المجلة الجديدة ، ويرسم امامه صورة عريضة لما يحلم به . كان يقول انه منذ زمن طويل ، وبالتحديد فى ايام مجلة الرسالة التى كان يصدرها أحمد حسن الزيات ، وأثارت المعارك الأدبية العظيمة وانعشت المناخ الفكرى لا فى مصر وحدها ، ولكن فى العالم العربى كله — لم تصدر مجلة أدبية لها ثقل الرسالة ، أو لعبت دورها الخطير فى التكوين الفكرى لأجيال عديدة من المفكرين والكتاب والأدباء . وأنه يريد « مجلته » الجديدة « الشهر » أن تلعب دور الرسالة فتثير المعارك الأدبية ، وتعيد تقييم الأدب العربى ، وتقدم الحركة الأدبية الجديدة التى كانت تبشر حينئذ بخصوبة لا حد لها .

فها هى القصة القصيرة تأخذ على يد يوسف ادريس ومجموعته الأولى « أرخص ليالى » مكانتها فى التعبير عن أحلام البسطاء ، كما تكتسب شكلها المميز بالتركيز الشديد فى رسم شريحة من الحياة الواقعية ، وفى روح الشعر التى كانت تشيع فيها وفى صدقها الشديد فى تصوير مشاكل المجتمع وها هو صلاح عبد الصبور يتغنى فى ديوانه الأول

بالناس فى بلادى ، الجارحون كالصقور الطيبون كالحياة ، وها هو احمد عبد المعطى حجازى يكتب القصيدة عن طفل مصرى يبيع الليمون فى الميدان المزدحم فتبتلعه الحياة ، وها هو بـدر شاكـر السياب ، ونـازك الملائكة وغيرهم وغيرهم من شعراء العرب يفتحون آفاقا جديدة للتعبير الشعرى لا تقتصر كما اقتصر القدماء على المديح والغزل والرثاء ، وإنما تجوب الشوارع والحارات ، وتتمطى فى خضرة الحقول وتزمجر مع آلات المصانع لترسم صورة جديدة للحياة العربية التواقة إلى العدل والحرية .

وها هو نجيب محفوظ ينشر ثـلاثيته الجـديدة « بـين القصرين » فترسم ملامح جديدة لمسيرة الرواية العربية ، ويطل من بين دفـات الكتاب المتخم بمئات الصفحات شخصية أحمد عبد الجواد الكاشف ، كروح الوطن ، عن التناقض والانفصام بين عالمين ، عالم الهيبة والمهابة وعالم الانطلاق والتحرر من كل قيد ، وها هو بطل « محروسة » سعد وهبة ذاته ــ الضابط الجديد سعيد ــ يصرخ فى وجه الزيف الاجتماعى وازدواجية القيم ، وها هو بطل مسـرحية « القضيـة » للطفى الخولى يحلم فى لحظة تكشف نادرة بان يمسك بيديه السحاب ! ملامح جديدة تكشفت عنها الثقافة العربية فى مرحلة من أخطر مراحل التغيير تنشد كلها أدبا جديدا ، ومجتمعا جديدا ، ومستقبلا يسود فيه العدل والأمن والحرية .

مضى أنور المعداوى يحدث الفتى بما يمكن لهذه المجلة الوليدة « الشهر » أن تفعله تحت رئاسته من رصد هذا الوجدان الجديد المتلاطم الأمواج بمئات القضايا والأحلام ، وكانت عيناه تتألقان فرحا ، وكان يشعر أن أمامه مهمة خطيرة .

وفى مساء اليوم التالى شعر الفتى وهو يطرق مع أنور المعداوى باب سعد وهبة أن الأستاذ لم يكن أبدا بهذا التألق والحيوية ، وشعر الفتى نفسه بأنه يولد من جديد ، فها هو سيصبح تحت رئاسة الأستاذ سكرتيرا لتحرير مجلة أدبية كبرى ينتظر لها أن تهز الدنيا .

ومع رشفات القهوة وابتسامة سعد وهبة العريضة تحت شاربه الأسود المصقول بادر الأستاذ قائلا :

– أريدك يا أستاذ أن تكتب لنا مقالا شهريا وسوف يكون تعاونك مع المجلة شرفا لنا جميعًا .

وابتلع الأستاذ غصة وشعر الفتى بأن الارض تميد تحت قدميه حين قال سعد وهبة :

– إننى كرئيس للتحرير أعتز اشد الاعتزاز أن يكون من بين كتاب

المجلة ، الاستاذ أنور المعداوى .

ولم يكلف سعد وهبة نفسه أن ينظر ناحية الفتى ! وتذكر الفتى السيارة الفارهة وهى تبتعد شيئا فشيئا كأنها حلم يذوب فى ظلمة الطريق .



ونزل العمّ من السفينة حطاماً !

ونزل العم من السفينة حطاما !

شعر الفتى بعد هذه الضربة القاصمة بخيبة أمل لا حدود لها . لقد كانت ثقته فى استاذه انور المعداوى لا يعدلها شىء آخر فى الحياة . وما دام الاستاذ قد قال ـ أو ظن ـ انه سيصبح رئيسا لتحرير المجلة فلابد أن يكون كذلك . . . فلم يكن ليتصور الاستاذ ـ ومعه الفتى ـ أن يأتى صاحب المجلة ليعرض عليهم مهمة أقل من مهمة رئيس التحرير . . وشعر أن أحلامه فى أن يخوض بحر الحياة الأدبية بجوار استاذه سكرتيرا لتحرير مجلة الشهر قد اصطدمت بصخرة الواقع الصلبة . برغم من اعتداد الأستاذ بنفسه وثقته المطلقة فى مكانته ، وثقته فى المكانة التى يضعه فيها الآخرون . . عاد الفتى ليلتها إلى حجرته الصغيرة محزونا مهموما . . ولم يطرق النوم جفنه ، فقد أدرك أن الحياة

لا تسير سهلة ميسورة ، وأن الأحلام الوردية لا تتحقق بمجرد التفكير فيها . . . وأن بحر الواقع متلاطم الأمواج ملىء بالعواصف والأنواء . . والمصالح المتعارضة .

وعاد إلى كتبه يقلب فيها . . لعله يجد فيها العزاء عما يشعر به فى قرارة نفسه من مرارة لا يستطيع ان يخفيها أو يتجاوزها . . وعثر على مجموعة قصص للكاتب الفرنسى الأشهر جى دى موباسان مترجمة إلى اللغة الانجليزية . . . وفى هذه المجموعة عثر على قصة شديدة الجمال . . . شديدة العذوبة . . تصادف ــ بعد أن قرأها ــ أنها كانت تعبر أصدق التعبير وأبلغه عما كان يشعر به الفتى من خيبة للأمل واجهاض للحلم .

كانت القصة . . واسمها . . « العم جول » تتحدث عن أسرة فرنسية صغيرة . . عن أب فقير وزوجته الكادحة وبناته اللاتى بلغن سن الزواج . . كانت الأسرة التى تعيش فى مدينة ساحلية صغيرة ــ تحيا حياة الفقر والضنك . . الأب يعمل عملا شاقا طيلة نهاره وجزءا من ليله فلا يكاد دخله الضئيل يفى بأبسط حاجات أسرته من مأكل ومشرب وملبس . . والأم تقضى ايامها فى حزن مقيم وقلق دائم على مصير بناتها . . ترى هل يتزوجهن أحد والأسرة على هذه الحال من الفقر وشظف العيش ؟

وكانت الأسرة تتذكر فى ليالى الشتاء الطويلة القارسة البرد قريبا لها رحل منذ زمن بعيد إلى امريكا . . عشرون عاما أو يزيد انقضت منذ رحيله وانقطعت أخباره . . رحل العم جول ليجرى وراء حلم الثراء فى القارة الجديدة وترك الأسرة تعانى فقرها وكفاحها اليومى من اجل لقمة العيش .

وفى ليالى الشتاء الباردة . . كان الأب والأم والبنات يجتمعون حول بقايا الفحم المتكوم فى المدفأة . . . يذكرون العم جول المسافر بعيدا بعيدا والذى انقطعت أخباره تماما . . والذى لابد أنه قد صادفه الحظ فى القارة الجديدة فأصبح من الأثرياء !

وذات يوم مطير . . سماؤه ملبدة بالغيوم . . ورعوده تلمع فى السحاب وصل ساعى البريد ليطرق باب الأسرة الفقيرة الصغيرة وفى يده رسالة من العم جول !!

قفز قلب الأب من المفاجأة . . وقفزت معه قلوب الأسرة كلها . . كانت مفاجأة لم ينتظرها أحد . . . بعد عشرين عاما من الفراق . . ومن رحيل العم التى اعتقدت الأسرة كلها أن الأيام قد ابتلعته فأثرى ونسى كل شىء عنهم أو . . أنه قد مات !

وبيد مرتعشة فتح الأب الرسالة ليجد مفاجأة أخرى . . لقد أرسل

العم جول يقول إنه ـــ وبعد كل هذه السنين ـــ سوف يصل على الباخرة التى تصل ميناء مرسيليا بعد اسبوعين . . وحدد اليوم والساعة والتاريخ .

جلست الأسرة كلها لاهثة من المفاجأة . . ها هو العم جول الذى عاش فى امريكا نيفا وعشرين عاما يعود إليهم . . ولابد انه يعود محملا بثروته التى جمعها من بلاد الغربة . . وها هى ابواب الأمل والسعادة تتفتح جميعا امام الأسرة على مصراعيها . . وها هو ظلام السنين الطويلة من الفقر والفاقة والمعاناة والألم يتبدد دفعة واحدة .

كان أول خاطر خطر للأم هو انه قد آن الأوان لتزوج بناتها . . . وراحت تحدد ملامح العريس القادم لكل بنت من البنات . . لابد أن يكون ثريا . . ومن أسرة عريقة حتى يليق ببناتها وعمهن الثرى القادم من امريكا .

وراح الأب يحدد شكل المنزل الجديد الذى سينتقلون إليه جميعا بعد وصول العم جول . . سوف يقولون وداعا لهذا الجحر الصغير الخانق المظلم الذى يسكنونه . . وسوف يشترى لهم العم جول منزلا كبيرا . . متعدد الطوابق . . ذا صالات فسيحة ونوافذ كبيرة متسعة تدخل منها الشمس فتشيع الدفء فى المكان كله . . وسوف يشترى لبناته فساتين



جديدة زاهية الألوان . . ولزوجته قبعة أنيقة من تلك التى ترتديها سيدات الطبقة الراقية !

وفى الموعد المحدد ذهبوا جميعا إلى الميناء ليكونوا فى استقبال العم الغائب جول . . ارتدوا أفضل ما لديهم من ثياب بعد أن غسلوها وكووها عدة مرات . . وأخذوا يتخيلون لحظة اللقاء الأولى . . سوف يأخذ الأب شقيقه جول فى احضانه أولا ويبكى . . وسوف يطول العناق طويلا وجول ـ وعيناه مغرورقتان بالدموع ـ يربت على ظهر الأب فى حنان . . وسوف تسلم الأم بعد ذلك على شقيق زوجها . . وتذكره بأنها كانت تتنبأ له دائما بهذا المستقبل الباهر فى العالم الجديد . . . وترجوه ان ينسى الآن ما كان بينهما من جفاء قليل . وسوف يقوم الأب بعد ذلك بتقديم ابنتيه الاثنتين إلى العم جول الذى لم يكن قد رآهما من قبل . . وسيعجب العم جول بجمال البنات ويسأل عن أزواجهن وسيجيب الاب أنهن انتظرن حتى يصل عمهن كى يختار لهن زوجين لائقين . . وسيركبون جميعا العربة التى ستتهادى بهم جميعا إلى المستقبل الجديد .

ووصلت الباخرة تتهادى فى البحر . . واشرأبت أعناق الجميع وتسمرت أنظارهم عند السلم الذى ينزل منه الركاب . . وأخذت الأم تحث زوجها أن يبحث عن جول بين جموع النازلين من الباخرة . .

ومضت الساعات ولم ينزل أى انسان يستطيعون أن يتعـرفوا فيـه على شخص العم الغائب .

وساور الجميعَ القلقُ . . . وطلبت الأم من زوجها أن يصعد إلى قبطان الباخرة ويسأله إن كان معه راكب بهذا الاسم . . فقد أكد جول فى رسالته أنه لابد قادم وعلى هذه الباخرة بالذات .

صعـد الأب إلى السفينة يقـدم رجلا ويؤخـر أخرى . . والتقى بالقبطان وسأله عما إذا كانت السفينة تحمل راكبا بهذا الاسم . . وبلا مبالاة أشار له القبطان إلى رجل عجوز مهدَّم يجلس على الرصيف . . يبيع فى سلة صغيرة قذرة حباتِ البندق . . وحكى له قصته . . نعم لقد عانى هذا الرجل فى أمريكا معاناة شديدة . . وعاش شظف العيش حتى أصبح عجوزا مهدَّما . . وتقدم إلى قبطان السفينة يرجوه أن يقبل أن يركب معه عائدا إلى بلاده . . وأن يعمل على السفينة أى عمل لقاء أجرة سفره . . وأن يسمح له بأن يبيع للركاب حباتِ البندق . . وهى المهنة التى كان يسترزق منهـا طوال سنـواته الـطوال فى أمريكـا . . وأشفق القبطان عليه . . وسمح له بذلك . .

وعاد جول . . وجلس منزويا عـلى رصيفـ الميناء يبيـع حبات البندق للمسافرين والمستقبلين . .

وعنـدما نـزل الأب والدمـوع فى عينيه ليحكى لـزوجتـه قصـة جول . . اقترب الاثنان من الرجل المهدم . . وتعرفا فى ملامحه المغضنة ووجهه الشاحب على الشقيق الذى رحل شابا منذ عشرين عاما . .

وعادت الأم إلى بناتها لتعلن لهن أن العم جول لم يصل !!

كانت هذه القصة الجميلة شفاء لروح الفتى بعد ليلته التى عانى فيها من خيبة الأمل وانكسار الأحلام . . وأدرك أنه مهما كانت الحياة قاسية فالفن جميل . . جميل .



عصر الواقعية ..

عصـر الواقعيـة

يعتقد الفتى أن عصر الواقعية فى الأدب العربى بدأ بمجموعة يوسف ادريس « أرخص ليـالى » التى صدرت عـام ١٩٥٤ ومسرحيـة نعمان عاشور « الناس اللى تحت » التى قدمت على المسرح الحر عام ١٩٥٧ . صحيح أنه كانت هناك عدة محاولات نحو ترسيخ الواقعية فى الأدب على يد يحيى حقى فى القصة القصيرة ومن قبله محمد ومحمود تيمور وطاهر لاشين وغيرهم ، وصحيح أنه قد سبقت نعمان عاشور عدة محاولات على يد على أحمد باكثير وربمـا أحمد شـوقى نفسه فى « الست هـدى » مسرحيته الوحيدة التى تتناول موضوعا معاصرا ، إلا أن هذين العملين بالتحديد « أرخص ليالى » و « الناس اللى تحت » كانا يؤذنان بظهـور

مفهوم جديد للدور الأدب فى معانقة قضايا المجتمع أولا ، وفى التخلى عن الحبكة أو العقدة ، أو ما يسمى أحيانا بالحدوته ، وذلك من أجل الوصول من خلال اللقطة أو اللحظة الموحية أو الشخصية الواقعية بكل أسرارها ، إلى ما هو أعمق بكثير من تفاصيل الواقـع . . إلى جوهـر الانسان وحقيقته ، بل وإلى السر المكنون وراء الوجود الانسانى ذاته !

صادف الفتى لأول مرة وهو بعد يخطو خطواته الأولى المتعثرة فى عالم الأدب مجموعة قصصية لكاتب شاب ـ حينئذ ـ هو يوسف ادريس . . تخرج فى كلية الطب ممارسا عاما . . وسبق اسمه لذلك لقب دكتور . . وكان لهذا اللقب فى ذلك الحين هيلمانا ورنينا . . وعمل لفترة مفتشا للصحة . . لكن أقداره كانت تجذبه ناحية أخرى . . كان هناك شىء أكبر منه وأعظم يشده ويلح عليه . . ويملك عليه زمام روحه وقلبه . . ويصرفه عن مهنة الطب التى قضى فى الجامعة سنوات طوال يتعلمها ويعد نفسه لممارستها معالجا لآلام البشر . .

وإذا كان الانسان لا يملك لمصيره دفعا . . فالمصير من عند الله . . فإن الموهبة أيضا من عند الله لا يملك الانسان الموهوب لها دفعا ولا يستطيع منها فكاكا . . ولقد كـانت موهبـة يوسف ادريس فى القصـة القصيرة أكبر بكثير من تعلقه بمهنة الطب ، فطفق يلاحظ الحياة الشعبية



المصرية فى الريف والحضر ملاحظة دقيقة . . ويبدا له الانسان الصغير . . سواء كان فلاحا بسيطا . . أو طفلة فقيرة تعمل خادمة فى بيت من البيوت كنزا من المشاعر والاحاسيس يكشف عن سر من أسرار الحياة !

ومن هنا كانت « واقعية » يوسف ادريس فى مجموعته الأولى « أرخص ليالى » التى بهر لها الفتى وفتحت أمامه عوالم جديدة من الابداع الفنى . . فالقصة فى هذه المجموعة التى ضمها كتاب « أرخص ليالى » لا تحتوى على « حكاية » أو « حدوته » محبوكة الأطراف يجرى القارىء وراء أحداثها لاهثا مشوقا لأن يعرف نهايتها . . ولا هى فاجعة تصور أحداثا جساما كالقتل أو الخيانة ولا تحتوى على مفاجآت غير متوقعة أو أحداث يصعب أن نجدها فى الحياة اليومية التى تسير فى العادة سيرا رتيبا هادئا دون أحداث هامة تذكر سوى الموت أو الميلاد . . كل هذا غير موجود فى قصص هذه المجموعة وما تلاها بعد ذلك من قصص مجموعات أخرى ليوسف ادريس مثل « أليس كذلك » وغيرها . .

إنما القصة عند يوسف ادريس . . والتى بدأت ملامحها تتضح بقوة فى « أرخص ليالى » هى لوحة رسمها رسام ماهر بضربات فرشاه قادرة . . . لا تسرد حكاية من الحياة . . وإنما ــ إذا جاز القول ــ « تعادل » الحياة . . هى شريحة من الواقع . . لكنها لا تصور هذا الواقع

بحذافيره وإنما تعطينا ملخصا شديد التركيز للواقع فى معادلة جديدة تماما تجعلنا ننفذ مباشرة إلى قلب الواقع أو جـوهره . . فنـدرك ــ كما سبق القول ــ سره المكنون . . أو جوهر الوجود الانسانى وراء تلك القشرة الخارجية التى نمارسها كل يوم فى حياتنا اليومية . .

يظل الانسان يعيش حياته كل يوم . . ويشاهد عشرات الناس ، وربما أحيانا المئات ، وتصافح عيناه الشوارع والأشجار والمخلوقات ، ويمارس العديد من الأعمال ويأكل ويشـرب وينام . . لكنـه لا يدرك « المعنى » من وراء ذلك كله . . حتى تأتىَ عين الفنان اللاقطة . . وبما اختصه الله به من موهبة . . فتثير فجأة كل شىء . . إذ تضع يده مباشرة على « النمط » أو « النسق » الذى يحكم كل هذه التفاصيل . . وتنفذ به مباشرة إلى قلب الأشياء ومعناها . .

فى احدى قصص المجموعة واسمها « نظرة » يصور يوسف ادريس خادمة طفلة تحمل على رأسها صينية ضخمة من المأكولات عائدة بها بعد انضاج ما فيها فى الفرن القريب . . والخادمـة الطفلة لا يكـاد رأسها الصغير يظهر من تحت ذلك الحمل الكبير الذى تحمله على رأسها . . وتحاول فى مجهود بطولى أن تحافظ على توازنها فلا يسقط الحمل من فوق رأسها فتتعرض لعقاب أليم من مخدومتها إذا هى سكبت ما تحمله على

رأسها من طعام . . استمع إلى يوسف ادريس يصف الطفلة الخادمة ويحدد علاقته بها :

« كان غريبا أن تسأل طفلةٌ صغيرة مثلها انسانا كبيرا مثلى أن يعدل من وضع ما تحمله . وكان ما تحمله معقدا حقا . . ففوق رأسها تستقر صينية بطاطس بالفرن ، وفوق الصينية حوض واسع من الصاج مفروش بالفطائر المخبوزة . وكان الحوض قد انزلق رغم قبضتها الدقيقة التى استماتت عليه حتى أصبح ما تحمله كله مهددا بالسقوط .

ولم تطل دهشتى وأنا أحدق فى الطفلة الصغيرة الحيرى ، وشرعت لانقاذ الحمل . وتلمست سبلا كثيرة وأنا أسوى الصينية فيميل الحوض ، وأعدل من وضع الحوض فتميل الصينية ، ثم أضبطهما معا فيميل رأسها هى . ولكننى نجحت أخيرا فى تثبيت الحمل . وزيادة من الاطمئنان نصحتها ان تعود إلى الفرن وكان قريبا حيث تترك الصاج وتعود لتأخذه . ولست أدرى ما دار فى رأسها فما كنت أرى لها رأسا فقد حجبه الحمل . كل ما حدث أنها انتظرت قليلا لتتأكد من قبضتها ثم مضت وهى تغمغم بكلام كثير لم تلتقط اذنى منه إلا كلمة « ستى » .

وتتعلق عينا الراوى بالطفلة وهى تعبر الشارع لتتوقف برهة وتلتفت

إلى مجموعة من الأطفال فى مثل سنها يلعبون الكرة فى الشارع . . وتلقى الطفلة عليهم نظرة طويلة ثم تمضى إلى سبيلها ويبتلعها الشارع !

وفى هذه «القصة» الجميلة لا توجد حكاية بأى معنى من المعانى . . ولا موقف يتطور من بداية إلى نهاية . . ولكنها تصور من خلال ضربات سريعة لفرشاة رسام باهر القدرة موقفا انسانيا بالغ الروعة والتأثير . . فها نحن بإزاء تلك الطفلة التى قدر لها أن تحرم من طفولتها وتعمل حتى تكسب قوتها . . وها هى تحاول بكل ما أوتيت من قوة ان تحافظ على مصدر رزقها فلا يسقط منها ما تنوء بحمله على رأسها . . وها هى تتوقف للحظة حين ترى غيرها من الأطفال يلعبون ويلهون فتتمنى أن تكون معهم . . طفلة مثلهم لا خادمة مرعوبة من عقاب سيدتها . . ورغم أنها تنجح فى أن لا تسكب على الأرض ما حملته من طعام ، إلا أنها تترك طفولتها المسكوبة على أرض الطريق مع أقرانها من الأطفال وتمضى .

لحظة مشحونة مكثفة نرى فيها هذه الطفلة المعذبة المحرومة من أبسط حقوقها تعبِّر فيها نظرتها الطويلة إلى اقرانها من الأطفال وهم يلعبون عن عذاب الدنيا وحرمان الدنيا . . ومعاناة الدنيا . .

هنا لا قصة ولا حكاية ولا حدوتة . . وإنما مواجهة مباشرة لحقيقة

الانسان حين يحرم من أبسط حقوقه . . حين يصل إلى قمة معاناته . . حين يُقدَّر عليه أن يعيش مصيرا لا يستطيع الفكاك منه . .

وهذا ما قصدته حين قلت ان يوسف ادريس لا يقـدم هنا مجـرد حكاية مستوحاة أو مستقاة من بعض تفاصيل الواقع ، وإنما يقدم لوحة « تعادل » هذا الواقع لتصل مباشرة إلى جوهر الحقيقة .

كان مقدرا لهذا الطبيب الشاب يوسف ادريس الذى حمل فى كل خلية من خلايا جسده ، وكل ذرة من روحه موهبة متفجرة بالصـدق والأصالة أن ينقل منذ مجموعته الأولى « أرخص ليالى » القصة العربية إلى عصر الواقعية . . وهى ليست واقعية فجة تنقل مباشرة من الحياة أو تعيد حكاية ما يحدث بها من أقاصيص . . وإنما تحاول أن تنفذ مباشرة إلى المعنى الأشمل والأعمق لوجود الانسان فى هذه الحياة !

فلترب بقرة.. وتعش في هناء!

فلترب بقرة .. وتعش فى هناء !

جاء اليوم الموعود . . وتخرج الفتى بامتياز فى قسم اللغة الإنجليزية وأدابها بجامعة القاهرة . . كان واثقا من نتيجة امتحانه . . ولكنه ذهب إلى الكلية على أى حال لمجرد أن يقرأ اسمه بين الناجحين فوجده على قمة الكشف . . وابتسم ابتسامة الواثق لأنه كان يشعر أنه اتخذ الخطوة الأولى نحو تحقيق أمنيته ـ وهو بعد صبى فى الثانوية ـ بأن يصبح أستاذا للأدب الإنجليزى بهذا القسم ذاته . .

على الدرج المؤدى إلى صحن الكلية قابلته إحدى مدرساته ، هى السيدة هدى حبيشه ، وكانت قد حصلت لتوها على درجة الماجستير فى الشَعر الإنجليزى وتستعد للسفر إلى انجلترا للحصول على الدكتوراه . . وأرسل الفتى عينيه عبر قوامها النحيل إلى حيث توجد

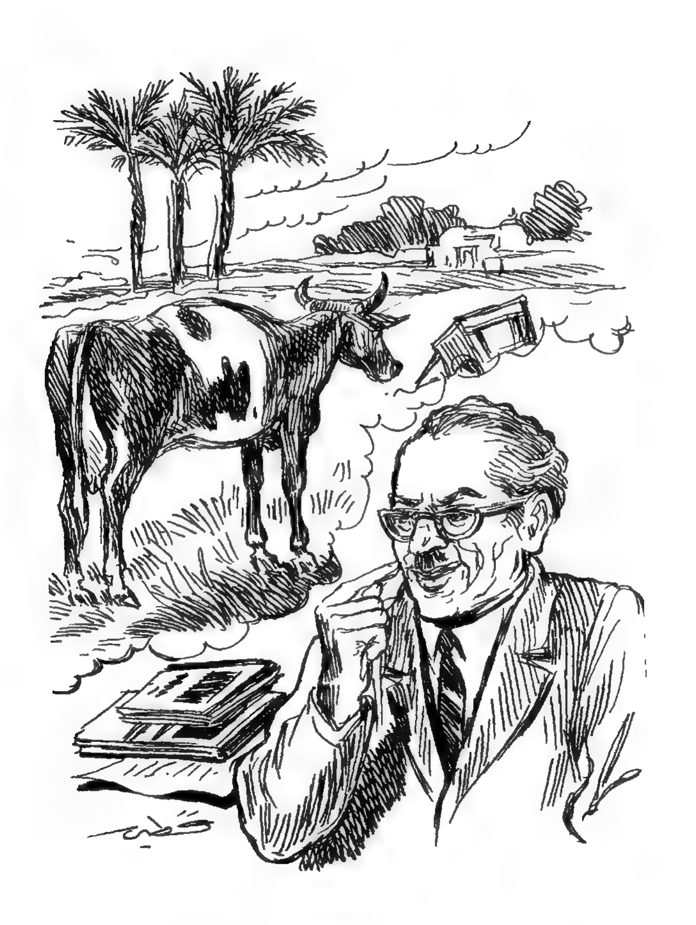
بحور عميقة تفصله عن بلاد الشمال حيث تصدح موسيقى هايدن وبتهوفن وموزار . . وحيث يردد الناس فى الشوارع أشعار شكسبير . .

وتمنى لو تحول زمنه إلى حصان سحرى جامح يقطع السنين والمسافات فى أقل من طرفة العين . . فيسافر هو الآخر ــ مثل هدى حبيشه ــ إلى بلاد الأدب والشعر والجمال . . فيعتصر رحيق الخبرة الإنسانية المتراكمة كما سجلتها البشرية فى آدابها وفنونها . . وأن يرتوى من ينابيع الخير والحق والجمال . . وأن يعود إنسانا آخر !!

ولم يكد يشعر بيد مدرسته الممدودة إليه بالتهنئة لكن نفسه كانت تعيش تلك اللحظة السحرية . . الموسيقى تصدح من حوله . . وأصداء أبيات شكسبير الشهيرة تملأ أذنيه :

لو أن الموسيقى كانت غذاء الحب فأعطنى منها المزيد . .

شعر بأن الكون كله يصدح بموسيقى تملأ الحياة بفرح غامر . . ويتصاعد الفرح مع أغنية الانتصار لبتهوفن فى سيمفونيته التاسعة حين يصدح النشيد الأخير « يا أصدقاء . . هلموا بنا إلى الفرح » . . وانتقلت به الأصداء إلى شاعره الرومانسى المفضل وليام وردزورث وأحس فجأة بغلالة من الحزن الرقيق تعتصر قلبه حين تذكر حزن الشاعر على وحيدته لوسى التى ماتت فى عمر الزهور . . لقد ماتت .



لوسى وحيدة فى الخلاء بين الصخور . . لا يذكرها أحد ولا يعنى أمرها أحدا . . لكن الشاعر حول هـذا الألم العميق . . إلى أغنية من الفرح الدفين . . حين نظر إلى الطبيعة التى خلقها الله . . فوجد ابنته وقد تحولت بعد مماتها إلى جزء من موسيقى هذا الكون . . تدور كـل يوم ــ وهى فى بطن الأرض ــ مع ما تدور به الأرض من صخور . . وأشجار . . وزهور ! فكأنها بعودتها إلى أمنا الأرض قد كتب لها الخلود !

لم يكن الفتى ــ وهو واقف على درجات سلم الجامعة مع مدرسته هدى حبيشه ــ يشعر بوجود ما حوله من بشر وأشياء . . وإنما كان بصره وقلبه معلقين بتلك الأشجار والسهول والوهاد . . حيث عاش شكسبير فى آخر القرن السادس عشر صبيا فى بلدته ستراتفورد النائمة على نهر الأفون وقلبه معلق بلندن حيث عالم المسرح السحرى . . ومن أجلها ترك شكسبير الزوج والولد ليعمل سائسا للخيـل أمام المسـرح يمسك بلجام خيل السادة حتى يخرجوا ؛ ثم يصبح بعد ذلك عبقرية الإنسانية كلها . . حين جالت عيناه بين الأرض والسماء . . فرأى فيما بينهما من الأسرار ما قصر عنه خيال غيره من عامة الناس الذين يعيشون ليأكلوا ويشربوا ويتناسلوا . . وهتف الفتى فى نفسه مع هاملت بأشعار شكسبير حين قال مخاطبا صديقه هوراشيو : «أى هوراشيو . . هناك من الأشياء ما بين الأرض والسماء ما يقصر عنها إدراكك المحدود» .

وطافت نفس الفتى ، وهو مازال واقفا كالمسحور على درج الكلية ، بسهول وسط انجلترا الغناء ولم يكن حتى ذلك الوقت قد رآها إلا فى أشعار شاعرها الرومانسى «وردزورث» فعرج خياله إلى القرن التاسع عشر ، بعد شكسبير بثلاثة قرون ، وتوقف عند «كوخ اليمامة» حيث كان يسير «وردزورث» ويبدع أشعاره سائرا مع رفيق رحلة العمر فى الأدب والحياة الشاعر والناقد العظيم كولريدج . . وترددت فى نفس الفتى نغمات أنشودة البراءة التى صدح بها وردزورث فى قصيدته الطويلة «أغنية الخلود» :

الطفل أبو الانسان
فيا ليت الله يجعل أيامى
مجدولة بعضها فى البعض
بخيوط الورع وحب الطبيعة !

وأحس لحظتها بالكون كله يموج بالبراءة . . وتختفى فيه الشرور . . وتمسح فيه آثام البشر !

أفاق الفتى على زميل له كان يكبره بعام ويعمل معيدا بالكلية يشد على يده مهنئا . . ويحذره فى نفس الوقت من الإسراف فى الأحلام . . فلا أمل فى التعيين بالكلية هذا العام . . أو ربما لبضعة أعوام مقبلة . .

فلا ميزانية هناك ولا درجات . . وعليه إن كان يبغى أن يأكل عيشه أن يبحث له عن عمل . . أى عمل . .

بعد ذلك بـأيام كـان الفتى يركب قـطارا يحمله إلى تلك المدينـه الإقليمية فى قلب الريف ليعمل مدرسا للغة الإنجليزية بإحدى مدارسها الثانوية . . إنتابه شعور بأن كل دقة من دقات عجـلات القطار وهى تطوى القضبان كانت تمزق جزءا من أوصال شكسبير . . أو تفتت أبيات وردزورث الحزينة . . أو تقطع رأس لوسى . . ابنة الشاعر التى تحولت بعد مماتها إلى أغنية فرح بالحياة . . وشعر الفتى أن أوصاله هـو الآخر تتمـزق تحت عجلات القـطار . . داست العجلات تـارة على رجليـه فطيرتهما فى هواء الحقول . . وقطعت ذراعيه . . فانتابه فزع شديد حين رأى يده التى كان يأمل أن يمسك بها القلم ليكتب فيـها يأتى من أيـام مستمدا زاده من رحيق خبرة البشرية عبر العصور تطير أمامه دامية ممزقة لتصطدم بأعمدة التليفونات المتراجعة مع تسارع القطار نحو النهاية . . حتى أحشاءه الخاويـة جوعـا لم تسلم من عجلات القـطار تدكهـا دكا لتتركه ـــ مثل أوزوريس الحزين ـــ أشـلاء فى كل مكـان . . دون أن يجد ـــ كما فى الأسطورة ـــ رفيقة عمر تجمع هذه الأشلاء لتعيد إلى الجسد الممزق بعضا من حياة !

فى حجرة المدرس الأول بتلك المدرسة الريفية البسيطة قابله الاستاذ

فرغلى مهللا مستبشرا . . « أنت إذن مدرس الإنجليزى الجديد . . مرحبا يا ولدى مرحبا . . أمامك العمر . . وأمامك أغلى حياة . . سوف تسعد معنا هنا ـــ وعندى من أجلك المشاريع » .

لم يسمع الفتى ما قال وإنما هتفت نفسه مع شكسبير :

« أكون أو لا أكون . .

تلك هى المعضلة » !

أردف الأستاذ فرغلى . .

« وستكون على خير حال . . ولأنك سمح الوجه . . طيب القلب كما أراك . . سأشاركك على بقرة . . تدفع من ثمنها بعضا من راتبك كل شهر . . تلد لنا . . نبيع صغارها ونجنى من وراء بيع لبنها ما يسبغ علينا الستر فيما يتلو من أيام . . ولأنك ـــ كما أراك ـــ سمح الوجه طيب القلب . . فلا مانع عندى من أن أزوجك من ابنتى . . تعيش هادئا هانئا سعيدا . . طول الأيام » .

وجد الفتى نفسه يركض إلى محطة القطار . . لا يكاد يرى ما أمامه من بشر . . وأشياء . . بينما كانت بقرات قليلة تتدلى بأعناقها إلى حشائش الحقول القريبة من المدرسة تأكل فى سعادة وهناء لم يحسدها الفتى عليه .

وانهالت على ظهره العصا!



وانهالت على ظهره العصـا !

لم يطق الفتى صبرا على احتمال تلك الصورة التى رسمها لحياته رئيسه مدرس أول اللغة الانجليزية بتلك المدرسة الريفية حين وصل إليها فى ذلك الصباح فى عام ١٩٦١ معينا من قبل وزارة التعليم بعد أن أوصدت أمامه أبواب الجامعة ولو إلى حين .

فى المقابلة الأولى لهما ، قرر له ذلك المدرس الأول أن يعيش حياته فى الـريف ويتزوج من ابنتـه الريفيـة ، ويـدخـل معـه فى مشـروع استثمارى متواضـع فيشاركـه على بقـرة . ولم يكن الفتى ليتصور أن تنحصر اهتماماته فيما يأتى من أيام العمر فى تدريس تلاميـذ المدارس مبادىء اللغة الانجليزية مع قضاء أوقاته خارج المدرسة فى تسمين البقرة

وحلب لبنها وبيع نسلها . . والزواج من فتاة ريفية كل مهمتها أن تملأ فناء بيته أولادا وبنات حتى يعيش الجميع فى ثبات ونبات .

كانت هذه الصور للمستقبل قد أصابته بغم وكرب شديدين . . وتناقضت كل التناقض مع كل ما كان يحلم به على قهوة عبد الله وسط كل هذه الأسماء اللامعة التى خالطها ممن يشكلون وجدان وعقل الوطن . . ويرسمون بأقلامهم وفكرهم عالما أرحب وأوسع بكثير من عالم الزوجة والبقرة .

خرج الفتى من حجرة المدرسين رافضا أن يلقى درسه الأول كما تقرر له فى جدول المدرسة وهو عازم على الاستقالة الفورية . . ولو كلفه ذلك أن يقطع بيده مصدر رزقه ويقفز دفعة واحدة إلى المجهول . . ولكنه كان مطمئن القلب إلى أن الأرزاق – على أى حال – بيد الله . . وأن الله قد حباه ببعض القدرات التى لن يعدم أن يستخدمها ليأكل قوت يومه . . لكنه أبدا لن يلقى بنفسه مختارا فى براثن ذلك المدرس الأول . . وابنته . . وبقرته .

واتجه الفتى إلى حجرة ناظر المدرسة ليقدم استقالته ويمضى فقيل له إن الناظر فى مرور على الفصول . . وعليه أن ينتظره فى الفناء المقابل . وفى الفناء وقف وحده برهة وسط هدوء شامل وعميق . . كان التلاميذ



ومدرسوهم فى الفصول . . ولم يكن يقطع الصمت الرهيب إلا زقزقة بعض العصافير فى سماء الحقول المجاورة . ولأول مرة يشعر براحة عجيبة وإحساس عميق بالحرية . كانت أيام الخريف تضفى على الهواء مسحة رمادية رقيقة إيذانا بمقدم الشتاء . . ولسعة هواء باردة تلفح الوجه بين الحين والآخر فتنتعش لها النفس . ومع نسمة الهواء البارد . . وقراره أن يهرب بجلده من تلك المصيدة التى نصبها له رئيسه المدرس الأول ، ولو كان الثمن أن يقفز إلى المجهول ، كان إحساس الفتى بالحرية عميقا عميقا . . وبأنه لا الوظيفة ولا أى شىء آخر يعدل حريته . . وما اختطه لنفسه من آمال .

صاح صوت من خلف ظهر الفتى وهو يستمتع بذلك الإحساس العميق بالحرية :

- ادخل فصلك يا ابن الـ . . .

وقبل أن يلتفت الفتى ليرى من الذى يوجه إليه هذا السباب المفاجىء انهالت على ظهره ضربات عصا رفيعة لذّاعة تكاد تمزق لحمه من تحت القميص القطنى الخفيف . . والتفت الفتى مذعورا ناحية العصا وصاحبها . . فوجد رجلا طويل القامة أحمر الوجه أصفر الشعر أشعثه قد كشر عن أنيابه . . وعاود الصياح :

- لماذا لا تدخل فصلك . . يا بن الـ . .

ذهل الفتى . . وهرع المدرس الأول صاحب فكرة تربية البقرة إلى حضرة الناظر متوسلا :

– يا حضرة الناظر . . إنه ليس واحد' من تلاميذ المدرسة . . إنه المدرس الجديد للغة الإنجليزية .

فجأة اختفى من على قسمات وجه «حضرة الناظر» ذلك التعبير المرعب الذى يقترب فى وحشيته من تعبير الأسد أو النمر ساعة الانقضاض على الفريسة . . وألقى بعصاه الرفيعة التى يؤدب بها المارقين من تلاميذه . . واحتضن الفتى وهو يضحك ملء شدقيه قائلا :

– يا أخى . . شكلك صغير . . فما ذنبى ؟!

التفت إليه مدرس أول اللغة الإنجليزية وقال :

– يا حضرة الناظر . . لسوف يعيش الأستاذ الجديد معنا كواحد مع أفراد الأسرة . .

وتذكر الفتى صورة «الأسرة» كما رسمها له المدرس الأول للغة الإنجليزية بتلك المدرسة الريفية ففقد كل إحساس له بالحرية !

موت موظف!

مـوت مـوظف !

فى إحدى قصص تشيكوف الرائعة وعنـوانها «موت مـوظف» ، تصل دعوة مجانية لموظف صغير بسيط بإحدى المصالح الحكومية لكى يشاهد مسرحية فى دار الأوبرا ، كان أقصى حلم راود هـذا الموظف البسيط إذا فكر فى قضاء سهرة ترفيهية أن يذهب إلى إحـدى المقاهى الشعبية . . يشرب الشاى . . ويعود إلى منزله . . أما أن تواتيه الفرصة لكى يلج باب دار الأوبرا . . ويجلس فى مقاعدها الوثيـرة . . وسط علية القوم كأنه واحد منهم فهذا ما قصرت كل أحلامه وخيالاته عن تصوره . . وعندما واتته هـذه الفرصـة الرائعـة لم يصدق نفسـه . . فها هى الحياة تبتسم له أخيرا بعد سنوات من المعاناة والفقر والعجز عن

الاستمتاع بأبسط حقوقه كإنسان . . وهى أن يعيش كما يعيش بقية الناس . . وأن يرتاد المطاعم والمسارح والأوبرات . . ويجد الفرصة لأن يروح عن نفسه . . ويجد غذاء لروحه وعقله ووجدانه . . وألا يترك نفسه حتى آخر العمر فريسة لروتين الحياة اليومية الطاحن .

وعندما اقترب اليوم الموعود ، وكان عليه أن يذهب إلى دار الأوبرا فى اليوم التالى ، لم ينم ليلتها ، وقضى الليل يغسل أفضل ما لديه من ثياب ويكويها . . ويعيد كيها . . ويزيل ما قد يكون قد شابها من بقع أو من عوادى الزمن . . حتى يكون مظهره لائقا بالمكان الذى سيجلس فيه ليلة الغد . . وسط كبار القوم كأنه واحد منهم .

وفى الموعد المحدد توجه الموظف إلى دار الأوبرا . . وفى يده اليمنى أمسك بتذكرة الدعوة وقد استماتت عليها أنامله المعروقة المكدودة كأنه قد أمسك بيده سر السعادة . أو سر الحياة نفسها . . وانتظم فى صفوف الداخلين . . ولم يلبث أن وجد نفسه جالسا على مقعد وثير من القطيفة الحمراء فى الصفوف الأمامية . . وأمامه ستار المسرح الفخم الذى لم ينفرج بعد . . وعندما ينفرج سوف تضىء الأنوار . . وتصخب خشبة المسرح بالحياة وبالأضواء والألوان . . فكأن الحياة كلها قد فرجت أمامه أساريرها . . وكأن الدنيا قد ابتسمت بعد طول عبوس وقنوط .



ولأول مرة يشعر الموظف البسيط بأنه انسان بكل معنى الكلمة . . انسان له قيمته وحيثيته فى المجتمع . . ولأول مرة يشعر بأن الحياة حلوة . . حلوة . .

وفجأة . . ودون سبب يدريه . . شعر ذلك الموظف البسيط بأنه يريد أن يعطس . حاول أن يكتم «العطسة» وألا يخرجها . . حتى لا يزعج أحدا بجانبه أو أمامه أو خلفه . . وكلهم ـ كما كان يلاحظ ـ من علية القوم . . رؤساء المصالح والجنرالات وكبار أفراد الارستقراطية . . حاول كل جهده . . فلم يفلح . عطس الموظف البسيط عطسة قوية خرجت من أعماق الأعماق من خياشيمه صدر عنها دوى غريب كأنه قنبلة صغيرة تنفجر ، واستدار لصوتها كل من كان يجلس حوله .

لكن رذاذ تلك العطسة المضرية التى خرجت دون إرادة الموظف البسيط وبشكل خارج تماما عن سيطرته كان قد صوب نحو قذال الشخص الجالس أمامه تماما . وكان الموظف قد لاحظ قبل أن تخرج هذه العطسة ورذاذها المؤذى من خياشيمه أنه شخص متفخ الأوداج فاخر الثياب يبدو من جلسته الواثقة على الكرسى الواقع أمام الموظف تماماأنه من ذوى السطوة والنفوذ .

التفت هذا الشخص وراءه وقد أصابه رذاذ عطسة الموظف البسيط فى قذاله ورأسه ، ونظر إلى الموظف شذرا والشرر يتطاير من عينيه الغاضبتين . .

وكانت المفاجأة . .

كان هذا الشخص الجالس أمام الموظف مباشرة ، والذى أصابه رذاذ عطسته اللا إرادية هو الرئيس الأعلى للدائرة الحكومية التى يعمل بها الموظف البسيط . . الرئيس الذى لا يحلم أحد أن يراه ، ناهيك عن أن يخاطبه أو يجلس معه فى مكان واحد ، أو حتى تقوده المصادفة البحتة لأن يحتل خلفه مباشرة مكانا فى دار الأوبرا .

أصاب الموظف البسيط اضطراب شديد . . وشعر بغم وكرب شديدين . . وكادت الدنيا تميد من تحت قدميه . . وكان ستار الأوبرا قد انفرج وبدأ العرض . . وبدأ صوت الممثلين والممثلات والمغنين والمغنيات يعلو ويتردد فى القاعة على نغمات الموسيقى الحالمة . . وكانت أضواء المسرح وألوانه تبهر العيون وتخلب الألباب ، لكن الموظف البسيط لم ير شيئا من هذا كله أو يلتفت . . فقد كان يفكر فى أنه قد عطس على قذال رئيس رؤسائه . . الرئيس الأعلى للدائرة التى يعمل فيها . . ولابد أن هذا الرئيس الخطير قد غضب غضبا شديداً لتلك العطسة التى لوث رذاذها جزءا من رأسه . . ولابد أن سوف يفصله من

عمله فى صباح اليوم التالى مباشرة . . فمن أين سيجد بعد ذلك من النقود ما ينفق منه على الزوجة والأولاد ولقمة العيش المريرة .

وبأدب شديد ممزوج بذعر داخلى هائل حاول الموظف أن يكتمه فى داخله فلا يجعله يظهر على قسمات وجهه . . ربت الموظف برقة شديدة على ظهر الرئيس الخطير الذى كان قد اندمج بالفعل فى مشاهدة الرواية المعروضة على خشبة مسرح دار الأوبرا والتفت الرجل فإذا بالموظف يبادره معتذرا . .

- سيدى . . إننى فى أشد الأسف . .

وابتسم الرئيس الأعلى ابتسامة خفيفة . . قائلا :

- لا عليك . .

لكن الموظف عاوده :

- سيدى . . لم أكن اقصد اطلاقا أن أفعل ما فعلت . . أنت تعرف أن العطس شىء لا ارادى . . والمسألة كلها سوء حظ .

بانت على وجه الرئيس الأعلى أمارات الضيق . . وأشار للموظف أن يصمت الآن حتى يتمكن من متابعة احداث الرواية والاستمتاع بما يجرى على خشبة المسرح . . وانتهت الليلة والموظف البسيط لا يدرى كيف قضاها . . لقد سهر ليلته خائفا مذعورا من غضب الرئيس

الأعلى . . وحكى لزوجته القصة فأشارت عليه ان يذهب إلى مكتب الرئيس الأعلى فى صباح اليوم التالى ويعتذر له مرة أخرى . . وفى الصباح ذهب الموظف البسيط إلى مكتب الرئيس الأعلى ، ووقف فى طابور طالبى المقابلة . . وحين جاء دوره للدخول بعد عدة ساعات من الانتظار . . بادره الرئيس الأعلى باسما :

- ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك ؟ . . بادره الموظف متلعثما خائفا :

- بالأمس . . فى دار الأوبرا . . بادره الرئيس مقاطعا :
- أنا لا أذكر . . وعموما ليس لدى وقت أضيعه . .

قال الموظف :

- أريد أن أعتذر لكم . .

قال الرئيس مقاطعا ضائقا :

- لقد قبلت الاعتذار فلا تضيع وقتك ووقتى . .

وانصرف الموظف وقد اسودت الدنيا فى عينيه فقد تصور ان الرئيس الأعلى غاضب منه غضبا شديدا . . وهو لا يدرى أن هذا الرئيس الأعلى لا يذكره ولا يعرفه من بين آلاف الموظفين الصغار الذين يعملون فى دائرته . .

وتنتهى القصة نهاية غريبة . . فالموظف البسيط يشعر بضيق لا نهاية له . . ويرى العـالم كله أمامـه مظلما . . ويتصـور أن الرئيس الأعـلى غاضب منه أشد الغضب بسبب تلك العطسة . . فيسير بلا هدى وقد غامت الدنيا فى عينيه . . وعندما يتعب من السـير يجلس على اريكـة خشبية باحدى الحدائق العامة . . ويغمض عينيه . . ويموت .

تذكر الفتى هذه القصة الجميلة وهو يتأمل تلك الحياة التى أراد أن يفرضها عليه مدرس أول اللغة الإنجليزية بتلك المدرسة الريفيـة . . حياة الوظيفة والموظفين . . ويشعر بأنه سوف يختنق إذا اضطر أن يقضى حياته كما قضاها الموظف البسيط فى قصة تشيكوف ، وذات يوم يموت دون أن يذكره أحد . . واحد من الملايين الذين تدوس عليهم عجلة الأيام بلا رحمة . . وفجأة لمعت فى ظلام يأسه بارقة أمل . . فقد جاءه من يقول إن الدكتور رشاد رشدى رئيس قسم اللغة الإنجليزية بالجامعة يريد أن يراه !

(البيض والبولوريف ..
والأرض الخراب !)

(البيض والبولوبيف .. والأرض الخراب)

لم يكن رشاد رشدى بالنسبة إلى الفتى معلما أو أستاذا أو صديقا أو أبا . . وإنما كان كل هؤلاء مجتمعين .

على مقهى عبد الله بميدان الجيزة فى أواخر الخمسينات بدأت خطواته الأولى متعثرة على استحياء نحو طريق الأدب . . كان طالبا بالسنة النهائية للمرحلة الثانوية . . وكان يجد فى نفسه ميلا شديدا لقراءة الأدب ومحاولة كتابته . . ودراسة اللغة الانجليزية وقراءة الآداب العالمية فى هذه اللغة . . وعلى القهوة التى كان يرتادها معظم أدباء مصر فى تلك الفترة سمع اسم رشاد رشدى يتردد كثيرا . . وإن لم يره أبدا يرتادها مثل بقية الأساتذة التى كانوا يرتادونها كل ليلة . . يلعبون الشطرنج أحيانا

قليلة ويثرثرون أحيانا قليلة ويتناقشوا أحيانا كثيرة . . أمثال محمد مندور وعبد القادر القط وأنور المعداوى وغنيمى هلال وعباس صالح ومحمود السعدنى وغيرهم . .

كان رشاد رشدى قد بدأ يكتسح الحياة الأدبية وقتذاك حين أخذ هو وفتحى غانم يحرران ملحقا أدبيا فى مجلة آخر ساعة . . تخصص معظم صفحاته لفن القصة القصيرة . . وكان رشاد رشدى ينشر فى هذا الملحق قصصه مثل عربة الحريم وغيرها . . وكان أيضا يقدم لقراء العربية قصصا للكاتب العظيم تشيكوف والكاتب العظيم موباسان .

ومن خلال هذا الملحق وقع الجميع فى هوى القصة القصيرة . . وكان الفتى واحدا من هؤلاء الذين شعروا أن القصة القصيرة تعبير صادق عن الحياة الواقعية . . الصورة التى رسموها على رصيف قهوة عبد الله لرشاد رشدى أنه رجل أنيق الملبس يمسك فى يده بمنشة . . ويضع فى كمه منديلا . . خواجه فى ثوب مصرى ويجيد الانجليزية . . (عجبا . . كان لابد طبعا أن يجيد الانجليزية ألم يكن أول رئيس مصرى لقسم اللغة الانجليزية وآدابها تسلمه من الانجليز بعد العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦) . . وعجب الفتى لهذه الصورة . . فكأنما لكى يكون الانسان أديبا . . لابد أن يكون فقيرا . . رث الثياب . . لا يعرف اللغات الأجنبية !!

بعد ذلك بسنوات عرف الفتى أن رشاد رشدى لم يكن غنيا . . وإنما كان يسير على قدميه وهو أستاذ بالجامعة من مكتبه إلى منزله بالعباسية لا يملك أجرة التاكسى . . وأنه كان يكره الأوتوبيس لأنه لا يطيق أن يحشر البشر فى علبة سردين متحركة تفقد كل واحد منهم فرديته وتحوله إلى كتلة صماء فى مجموع أصم ، ولذلك كان يمشى !

فتح رشاد رشدى أمام الفتى فى ذلك الوقت دون أن يعرفه عوالم سحرية من الابداع والجمال . . لأول مرة يعرف من خلال كتاباته فى آخر ساعة أنطون تشيكوف . . واشترى الأعمال الكاملة لـه بخمسة قروش من مكتبة الشـرق بشارع سليمـان . . خمسة قروش فقط . . ومضى الفتى يقرأ تشيكوف وهو بعد فى الخامسة عشرة من عمره وفى ذهنه ما يقوله رشاد رشدى عنه وما يترجمه له فى آخر ساعة . . أحس أن رشاد رشدى عاشق عظيم لفن تشيكوف . . وعشق تشيكوف من خلاله . .

ذات مساء وكان الفتى قد انتهى لتوه من امتحانات الثانوية العامة تعرف على رصيف المقهى بعبد اللطيف الجمال . . كان عبد اللطيف فى تلك الأثناء يعمل معيدا بقسم اللغة الانجليزية وآدابها وتلميذا أثيرا لرشاد رشدى . . قدمه إليه أحد رفاق القهوة هو على شلش . . فجذبه إليه لأول وهلة قربه من رشاد رشدى . . ومنذ تلك الليلة لم يفارقه بعدها

لسنوات طويلة . . كان عبد اللطيف الجمال (وهو يعمل الآن أستاذا بانجلترا . .) شابا شديد النحافة . . غائر العينين والخدين . . غليظ الشفتين إلى حد ما . . صارم الوجه . . مجلجل الضحكة إذا ضحكها ولم يكن يضحك إلا نادرا . . واسترعى نظر الفتى فى تلك الليلة أنه يدخن بشراهة شديدة لم يرها فى غيره . . فقد كان يولع السيجارة من السيجارة فلم يحتج طيلة الليلة لأكثر من عود أو اثنين من الكبريت . . وكان يسرح بنظراته فى سماء الميدان الذى لم يكن فى تلك الفترة من حياة مصر قد تحول بعد إلى غابة من الأسمنت والحديد والكبارى وزحام البشر !

وكان أيضا يمسك فى يده بكتاب يحرص عليه حرصه على حياته نفسها . . كتاب صغير أزرق الغلاف بالانجليزية يضم قصيدة الأرض الخراب للشاعر ت. س. اليوت .

فى الثانية عشرة مساءً أغلقت القهوة أبوابها . . وتفرق جميع الأدباء الجالسين حين عرض عليهم محمود السعدنى أن يوصل كل منهم – كالعادة – إلى بيته فى سيارته المتهالكة . . ولم نشأ أن نحشر أنفسنا فى السيارة الفيات القديمة مع بقية المحشورين . . ودعا عبد اللطيف الجمال الفتى لأن يتمشى معه فى هدأة المساء فى طريق الجامعة حتى يوصله إلى غرفته التى يسكنها فى المدينة الجامعية ، فقد كان

قرويا لا سكن له فى المدينة وتدخل رشاد رشدى ليحصل له على غرفة بالمدينة الجامعية مع الطلبة الغرباء . . وعينه مشرفا على دور من سكن الطلبة بصفته معيدا !

فى طريق الجامعة شرب الفتى أول سيجارة فى حياته مع عبد اللطيف الجمال . . وتوالت بعدها السجائر يشربها بنفس شراهة عبد اللطيف حتى الآن . . ولابد أن مراهقته لم تكن اهتماما بالجنس أو بالانحرافات كبقية الشباب فى تلك السن . . ولكنها كانت وقوعا فى هوى الأدب . . من خلال عبد اللطيف الجمال الذى مضى يحدثه عن عملاقين بديا له فى ظلام الطريق وكأنهما طائران اسطوريان يظللان الحياة بأجنحتهما التى تنشر النور والخير والجمال على ظلام هذا العالم الملىء بشرور الانسان . . هذان العملاقان هما ت.س. اليوت فى الغرب . . ورشاد رشدى فى مصر !

مضى عبد اللطيف يحدث الفتى عن الأرض الخراب فانبهر بأبياتها التى تنعى خراب الحضارة الصناعية الحديثة وعزلة الانسان وجدب الحياة فيها . . وأخبره أنه وقع فى هوى هذه القصيدة الجميلة عندما درسها له رشاد رشدى . . وقرر الفتى ساعتها أن يسعى بكل قواه لأن يلتحق طالبا بقسم اللغة الانجليزية بجامعة القاهرة لكى يدرس على أيدى رشاد رشدى !

لم يستطع الفتى أن يودع عبد اللطيف الجمال على باب المدينة الجامعية . . ورجاه أن يصعد معه إلى غرفته ليحكى له أكثر عن قصيدة الأرض الخراب . . وان يقرأها له كلمة كلمة ويعينه على فهمها . . وان حدثه أكثر عن رشاد رشدى . . ذلك الرجل الذى بدا له فى تلك اللحظة بعد منتصف الليل خارج الزمان والمكان . . يعرف من أسرار اللغة والشعر والابداع ما لا يعرفه أحد . . ويحمل فى جيبه مفاتيح ذلك العالم السحرى الذى يقف ببابه متبتلا وجلا . . عالم الفن !

مع السيجارة الأخيرة من العلبة الونجز الانجليزية الحامية . . توقف عبد اللطيف عند الكشك الملاصق لباب المدينة الجامعية واشترى علبة أخرى وأخذ يدخن بشراهة وهو يضع السيجارة فى الجانب الأيمن من فمه تشبها بأصحاب الفكر المتعمقين فى تأمل الأشياء ودعا عبد اللطيف الفتى للصعود معه إلى غرفته . . ليقرأ معا «الويست لاند» (الأرض الخراب) ويتحدثا عنها وعن اليوت ورشاد رشدى . . فى الغرفة الصغيرة أخرج الجمال كيسا به خمس عشرة بيضة وعلبة بولوبيف . . وفى اهتمام شديد وضع القلاية على سخان كهربائى صغير . . ومضى يقلى البولوبيف أولا ثم « يفقش » فيه البيض بيضة بعد أخرى حتى أتى عليها جميعا وهو يردد مطلع الأرض الخراب .

ابريل أقسى الشهور (ملحوظة : : كان الوقت فى أغسطس)
ينبت الزنابق من الأرض الموات
يخلط الذكرى بالرغبة ، يثير الجذور
الكثيبة تحت أمطار الربيع .

بهرت الصورة الفتى . . وان كان لم يفهمها حينئذ . . وبهره أكثر ذلك الطبق الشهى من البـولوبيف بكميـات البيض المهولـة والسمن البلدى الذى زودت به عبد اللطيف أمه القروية حتى لا يجوع فى بر مصر يزغرد فوق صفرة البيض المشوية بحمرة اللحم المحفوظ . .

ليلتها أتى الفتى وصديقه على الطبق الشهى مع ما لا يقل عن خمسة أرغفة . . ومضيا بعدها يقرآن «الوست لاند» ويحزنـان لعقم الحضارة الحديثة ويتطلعان أن يأتى صباح اليوم التالى حتى يلتقيا معا بالأستاذ الذى أدخل إلى دائرة اهتمام المثقفين العرب تلك القصيدة الرائعة . . رشاد رشدى .

وسالت دموع الأحلام

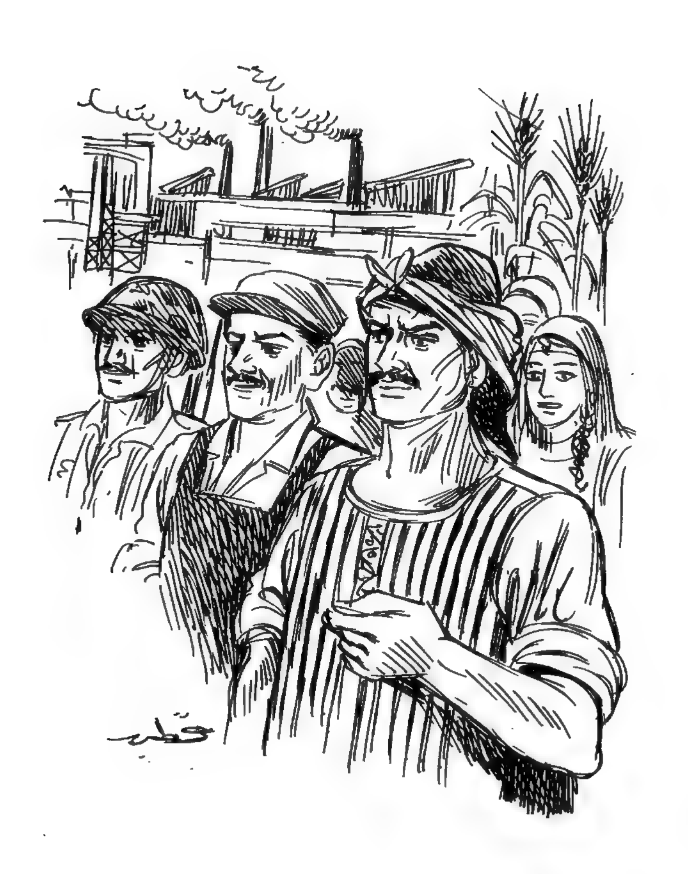
وسالت دموع الأحلام

لم يكن الفتى . . ولا غيره من طلاب قسم اللغة الإنجليزية فى ذلك الوقت ليجرؤ أن يمر من أمام غرفة رشاد رشدى التى يحتلها وحده كرئيس للقسم . . وبالرغم من أن الفتى كان يراه فى المحاضرات ويستمع إلى طريقته الساحرة فى التدريس . . والتى لا يعتمد فيها على التقليد وإنما على استثارة اهتمام طلابه بالمادة المعروضة وشحذهم على التفكير المستقل ، وإثارة الأسئلة الكثيرة فى أذهانهم حتى يبحثوا لها عن إجابات داخل بطون الكتب أو فى المراجع الراقدة على أرفف مكتبة الجامعة . . وبرغم أنه كان يرغب دائما فى أعماق نفسه أن يجلس إليه عن قرب . .

إلا أن الفرصة لم تواته ولو مرة واحدة طوال سنى دراسته بالجامعة أن يجلس إلى الأستاذ ويخاطبه وجها لوجه . . أو أن يحاوره فى أمر من الأمور . . وربما كان السبب يرجع إلى ذلك الخجل الغريزى الذى كان يمنع الفتى دائماً من التصريح بمكنون مشاعره أو التعبير شفاهة عن أفكاره . . فقد كان يشعر دائماً ، وربما مازال هذا الشعور يلازمه حتى الآن ، أن المشاعر بمجرد الإفصاح عنها تصبح مبتذلة . . وأن الأفكار بمجرد التعبير عنها تصبح ركيكة ساذجة قد تعرض صاحبها لسخرية الآخرين . .

ولقد قوّى لديه هذا الشعور مجالسته للكبار فى المقاهى الأدبية . . سواء قهوة عبد الله أو انديانا أو كازينو صان صوصى . فقد كان هؤلاء الكبار يسخرون دائماً من كل شىء وأى شىء . . ينطقون دائماً بأنصاف الجمل ولا يكملونها وإنما يتبعونها بضحكات مجلجلة . . وكأنهم من كثرة عمق الفكر لا يطيقون أن يكملوا الجملة أو أنهم وصلوا إلى مرحلة من الملل الشديد من كل ما هو عادى وبسيط . .

وكان الفتى وهو يجالس هؤلاء يشعر دائماً أن هناك أموراً هى من التعقيد والتشابك بحيث يقصر عن فهمها عقله الغض . . إذ هم يوحون دائماً فى مناقشاتهم التى يتبادلون فيها أنصاف الجمل فى طلقات سريعة ساخرة أن هناك مخططات عالمية تحيق بالوطن . . وأن الأمور



لا تسير كما يفهمها البسطاء من أمثاله . . وأن للأمور بواطن لا يعلمها إلا هم .

وفى حوالى ذلك الوقت ، عام ١٩٦١ عندما تخرج الفتى من الجامعة ، كان المد الثورى لثورة يوليو فى أوج تألقه . . والحلم القومى فى أعظم وأكبر لحظاته زهواً وإبهاراً . . كان جمال عبد الناصر قد أعلن القرارات الاشتراكية . . .

وملأت كلمات صلاح جاهين التى ينشدها عبد الحليم حافظ أسماع كل المصريين متغنية بالعامل فى المصنع والفلاح فى الأرض . . وبالاشتراكية التى كانت موعد ذلك الجيل مع القدر . . وتردد فى أسماع الجميع كلمات جاهين :

صورة صورة صورة
كلنا كده عايزين صورة
صوره للشعب الفرحان
تحت الراية المنصورة
يا زمان صورنا
صورنا يا زمان
حنقرب من بعض كمان

واللى حيهرب من الميدان
عمره ما حيبان فى الصورة . .

كلمات أشعرت كل المصريين أنهم ينتمون إلى وطن منتصر . . يحقق أبناؤه جميعاً حلماً واحداً بالعمل الجماعى كأنهم يعزفون سيمفونية متناغمة الألحان تتصاعد إلى ذروتها مع كلمات الزعيم الذى اختاره الشعب من قلب الشعب . .

وسار الفتى فى شوارع وحوارى الجيزة يردد مع المرددين :

احنا الشعب
اخترناك من قلب الشعب
يا فاتح باب الحرية
ياريس ياكبير القلب . .

مجموعة هائلة من الأحلام دفقها عبد الناصر فى قلب وخيال كل مصرى كما يدفق ماء الحياة فى عروق تربة طال اشتياقها إلى الحياة . .

وكان الفتى يشعر ساعتها أنه جزء من هذا الحلم العظيم ، وهو حلم أدرك فيما تلا ذلك من أيام النضج أنه كان حالة رومانسية جميلة تهز المشاعر وتدفع الحماس إلى العيون . . لكنه لم يكن أكثر من ذلك . .

حلم ساعد على تجسيده مجموعة من الأغانى الوطنية . . الساحرة . . وأمواج الجماهير الملتهبة حماساً وهى تستمع إلى الزعيم . .

لكن الأمة كانت مستعدة لأن تتلقى هذا الحلم . . وأن تعبد الرجل الذى جسده أمامها فى كلماته وفى مواقفه . . فمن ذا الذى جرؤ فى تاريخها أن يهزم امبراطوريتين وذيلهما عام ٥٦ فى ضربة واحدة (لم يكن أحد قد علم بعد بحقيقة ما حدث تماما) ومن ذا الذى هتف من قبله وأمواج البشر تهدر أمامه « باسم الأمة » وأمم قناة السويس . . ومن ذا الذى أعاد قبله إلى الشعب كل ما يملكه الشعب واغتصبه منه المستغلون . . فأمم كل شىء فى ليلة وضحاها . . كان عبد الناصر بمواقفه . . وأيضا بإعلامه والأغاني الوطنية التى صدحت بانتصاراته حلماً قادماً من قلب طين الوطن . . مبشراً بالأفضل . . والأجمل . . والأعظم .

وترددت كلمات مثل الرجعية . . والرأسمالية . . والاستغلال . . والقطاع العام . . والقطاع الخاص . . والاشتراكية . . دوامة هائلة من الاهتمامات العامة كانت تلف كل مصرى وتترك الفتى منتشياً مسحوراً بتلك الأيام التى يطاول فيها رأس كل مصرى السحاب . . ولم يكن أحد يشعر فى ذلك الوقت أن له هماً خاصاً . . ولم يكن أحد ينظر إلى تحت موطىء قدميه . . وإنما كان الجميع ينظرون فى اتجاه واحد . . إلى

مستقبل أمة بأسرها . . يحدوهم صوت عبد الناصر . . المجلجل . . وعيناه الثاقبتان . . وقامته الفارعة كأنه نسر أسطورى جاء يخلص المصريين من آلاف آلاف سنين الحزن . . وآلاف آلاف سنين القهر . .

وكان الفتى ـ أثناء سنى الدراسة ـ يعود إلى بيتهم الصغير بالجيزة فيجد أمه وقد تحايلت على دخل الأسرة المحدود بأفرادها السبعة فطبخت لهم فولاً مدشوشاً بالطماطم . . وكانت مهارتها فى طبخ هذه الأكلات الرخيصة الخالية من اللحم تجعل منها ألذ وأجمل أطعمة العالم . فكان الفتى يقبل على طبقه الذى يغرفه من بقايا حلة « الفول بالطماطم » المتروكة على وابور الجاز فى آخر المساء بشهية هائلة لا تصرفه ـ مع ذلك ـ لذة الطعام عن الأحلام الوردية التى امتلأت بها رأسه وجاشت بها مشاعره مثله مثل بقية المصريين . . وصوت عبد الناصر يداعب أذنيه وصورته مطبوعة فى مخيلته . .

لكنه عندما كان يختلف إلى القهوة فى المساء التالى يجد معارفه من المثقفين اليساريين وقد تحفظوا قليلاً على هذا الحلم القومى الذى كان يراه الفتى أعظم الأحلام . .

وفى مناقشاتهم المستمره كان يفهم أنهم يؤ يدون ما جاء به عبد الناصر من « قرارات اشتراكية » . . ولكن هذه القرارات شىء والاشتراكية

العلميـة شيء آخر . . وأن الهـدف الأسمى هـو الـوصـول إلى تلك الاشتراكية العلمية التى كانوا يشيرون إليها من طرف خفى كأنها السر الأعـظم . . أو كأنها الأسـرار المغلقـة التى لا يملك مفـاتيحهـا إلاهم وحدهم . . وكانوا يتحدثون عن موقفهم الفكرى هذا فى شىء غير قليل من الرضى عن النفس . . المشوب دائما بالاستعلاء . .

ولم يكن الفتى ليجرؤ أن يناقشهم فى تلك الأسـرار . . فقد كـانوا يحبون دائما الظهور بمظهر كهنة المعبد . . وحدهم يعرفون . . ووحدهم يملكون الكلمة . .

ذات مساء التقى الفتى بصديق يسارى له اسمـه ع. ص . . كان صحفياً نشطاً . . يربح الكثير من المقالات والتحقيقات ويظهر اسمه فى العديد من المجلات ولكن ببنط صغير فى آخر المقال ، وكان يحاول أيضاً كتابة القصة القصيرة . . ولم ينجح أبداً أن يعد من زمرة أدباء المقهى . . بالرغم من حدب الكثيرين عليه ولقائهم إياه بالترحاب دائماً . . وكان ع. ص فى تلك الأيام فتى نحيلاً . . يرتدى ثيابا رخيصة شأنه شأن كل الفقراء من الأدباء الشبان فى تلك الأيام . . بل وربما كـان يبدو دائـماً سعيداً بمظهره الفقير وملابسه المتواضعة . . وشعره الأشعث الذى لا يمر إلا لماما على مقص الحلاق لضيق ذات اليد وانشغالـه الدائم بـالهموم الفكرية !

اصطحب ع. ص الفتى إلى مقر مجلة شهرية متواضعة يصدرها صحفي اسمه أسعد حسني واسمها « العالم العربي » وهناك تعرف بسكرتير تحرير المجلة وهو شاعر نصف سوداني ونصف مصري اسمه « إبراهيم شعراوي » رآه الفتى بعد ذلك بسنوات طويلة يعمل موظفاً بوزارة الإعلام في سلطنة عمان وقد تخلى عن الشعر وإن لم يتخل عن براءته المحببة ، ويومها عرض على الفتى أن يكتب للمجلة مقالات لم يحدد موضوعها . . لكن الفتى سرعان ما فكر وقرر أن يكتب سلسلة للتعريف بكبار أدباء الغرب . . كتب منها بالفعل مقالاً عن الشاعر الفرنسي الرمزي « رامبو » وقصيدته « القارب النشوان » وتقاضى عنها ــ عندما نشرت ــ مكافأة بلغت جنيهين . . لكنه لم يكتب بعد ذلك في تلك المجلة لأسباب لا يذكرها الآن . . لكنه يذكر أنه في ذلك اليوم نزل مع ع. ص من تلك المجلة المغمورة التي تقع في مبنى عتيق بشارع إبراهيم باشا الممتد ما بين ميدان العتبة إلى ميدان المحطة . . وسارا معاً في دروب القاهرة القديمة حتى إذا قارب ضوء النهار على الاختفاء توقفاً عند أحد البقالين بحارة من حواري الدرب الأحمر ، وطلب منه ع. ص أن يبرز ما لديه من مال حتى يشتريا سندوتشاً أو اثنين يصدان به غائلة الجوع التي كادت أن تفتك بهما معا . . فأخرج الفتى خمسة قروش تعريفه كانت هي كل ما معه في تلك اللحظة ودفع بها إلى البقال الذي أعطاهما

رغيفين من الخبز الفينو يحتويان على شرائح من الجبن الفلمنك الأحمر وبعض الطرشى . . وأخذا يلتهمان السندوتشات بشراهة شديدة و ع. ص . يحدث الفتى عن الماركسية !

وفى هذا الحديث المختلط بأصوات القضم والمضغ والابتلاع أخذ ع. ص يشرح للفتى بعض آراء ماركس وإنجلز كما فهمها عن كتبهما المترجمة فى بيروت . . وحث الفتى على أن يقرأ كتاب « رأس المال » الشهير لكارل ماركس قراءة متأنية حتى يفهم جيداً آراءه عن دكتا تورية البروليتاريا (أو الطبقة العاملة) وعجب له كيف لم يقرأ هذا الكتاب الهام حتى الآن ، وهو الذى يقرأ مباشرة فى اللغة الإنجليزية ولا حاجة به للقراءة بالعربية اللبنانية الصعبة . وعرض عليه أن يذهبا معاً إلى حجرته التى كان يستأجرها على سطح أحد البيوت فى حارة من حوارى الجمالية ليعيره الكتاب حتى لا يضيع الوقت فى الأحلام . . فما ينادى به عبد الناصر ويفعله . . ليس إلا الخطوة الأولى فى طريق طويل هو تحقيق المجتمع الاشتراكى بمعناه العلمى . . وحتى هذا المجتمع عندما يتحقق ـ إن تحقق ـ فهو بدوره ليس إلا خطوة فى سبيل تحقيق المجتمع المثالى . . مجتمع الشيوعية !

وانساق الفتى وراء ع. ص . إلى بيته . . وصعدا السلم الطويل إلى حيث غرفته المتواضعة المليئة بالكتب شديدة الجدية والصرامة . .

والمرمية فى كل مكان بلا ترتيب حتى تحت ملاءة السرير . . وبحث ع. ص. طويلاً وسط أكوام الكتب والأوراق حتى عثر على نسخة سمينة من كتاب « رأس المال » أعطاها للفتى . . وليلتها أبدى الفتى حماساً شديداً للأفكار الاشتراكية التى كان رأسه يمتلىء بها من جراء الأحلام العظمى التى تسللت عبر الراديو والصحف وصوت الزعيم إلى أعصاب كل مصرى فى ذلك الوقت . . وقبل أن يستأذن شاكراً ليعود إلى بيته حتى يقضى بقية الليل مع صفحات الكتاب الموعود بادره صديقه عبد المنعم قائلاً :

ــ هل أنت منظم ؟

لم يفهم الفتى فى البداية ما يريد الصديق فبادره بالإجابه :

ــ طبعاً . . أنا منظم . . منظم جداً . .

ــ لا أقصد بالضبط هذا النوع من التنظيم . . وإنما ما قصدت إليه هو أن أعرف هل أنت عضو فى تنظيم ؟ !

كانت هذه هى المرة الأولى التى يعرف فيها الفتى أن هناك شيئاً اسمه تنظيمات سرية تعمل تحت الأرض . . وتتوسل بالعمل السياسى المنظم لتحقق أهدافا أخرى غير تلك التى ينادى بها عبد الناصر ولكنه لم يشأ أن يكشف عن جهله أمام صديقه الذى كان حديثه كله محاولة لافهام الفتى أنه يتمتع بثقافة عميقة . . وخبره سياسية واسعة . . وهو انطباع أدخل

فى روع الفتى شيئا من الرهبة منعه من مواصلة الحوار مع صديقه فيما يعن لهما من أمور فكرية خشية أن يكشف الصديق سطحية فكره وعدم درايته بالأمور العميقة . .

(وقد اتضح للفتى بعد ذلك بسنوات أن صديقه عبد المنعم لم يكن إلا إنسانا بسيطاً بساطة الفلاح المصرى المخلص البرىء و « غلبان » غلب الغبراء . . وأنه حتى لم يكن قد قرأ كتاب كارل ماركس !) .

وغلب الفتى أمام ع. ص. ليلتها ذلك الخجل الذى كان يمنعه من مناقشة الكبار من مثقفى اليسار فى المقهى خشية أن يكتشفوا أنه ليس من العالمين ببواطن الأمور السياسية لكنه قرر ألا يفتضح أمره أمام صديقه فيما يتعلق بأمور التنظيم والمنظمات فقذف برأسه إلى الوراء وحاول جاهداً أن يرسم على ملامحه مسحة من الصرامة والجدية ، وأن يضع فى عينيه تعبيرا ينم عن الغموض المصاحب لعمق الفكر . . وبادر صديقه قائلا :

ـ بالطبع . . أنا منظم . . منظم طبعاً . .

ـ ومن أى تنظيم ؟

أسقط فى يد الفتى فلم يكن يعرف اسم أى تنظيم من هذه التنظيمات التى يشير إليها صديقه ولكنه بادر إلى التخلص من الإجابة فى شىء من

الذكاء موحياً إلى صديقه أنه من أصول اللعبة ألا يبوح عضو فى تنظيم لأحد باسم تنظيمه حتى ولو كان أخوه . . لكن ع. ص. ـ على ما يبدو ـ لم تنجل عليه هذه الحيلة تماماً فبادره قائلا :

ـ أريدك أن تنضم إلى تنظيم . . إنه السبيل الوحيد لتحقيق أحلامنا .

سأل الفتى فى تؤدة :

ـ وما اسم تنظيمكم ؟

ـ « حديتو »

كان الاسم غريبا . . يبدو وكأنه ليس اسماً لتنظيم سياسى بقدر ما هو اسم لشخصية كوميدية شعبية فى فيلم سينمائى من بطولة إسماعيل يس وعبد الفتاح القصرى . . ولكنه فهم بعد ذلك أنه مجموع الحروف الأولى من تنظيم شيوعى معروف هو « الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى » .

سأله الفتى وهو شارد العينين متصنعاً شدة العمق فى الأشياء .

ـ ولماذا تنظيمكم بالذات . .

أردف ع. ص

ـ لأن المثقف الثورى لابد وأن يكافح تحت الأرض . . وربما

تعـرض للسجن وللتشريـد ولكن لا يهم . : المهم أن تعيش الأجيال القادمة حلم الاشتراكية . . بمعناها الحقيقى . .

وبدا ع. ص. وكأنه يردد كالببغاء الموقف الحتمى والضرورى لكى يكتسب المثقف الثورى وقتها صفة المثقف . . أضاف :

ـ إن ما نراه حولنا ليس هو الاشتراكيـة . . إنها مجرد خـطوة . . ولذلك نحن نتفق مع عبد الناصر . . ولكننا نخالفه ونقاومه فى نفس الوقت . . حتى نحقق الاشتراكية العلمية . . التى يبدو أنه يقف ضدها بحكم تكوينه كقائد لثـورة عسكريـة . . وحاكم خـرج من صفوف الجيش وليس من صفوف حركة الكفاح الشعبى المنظم والنضال الثورى لطبقة البروليتاريا ضد البورجوازية والرأسمالية . . وعبد الناصر ـ فضـلاً عن ذلك ـ ينتمى إلى البـورجـوازيـة الصغيـرة بحكم تكوينه الطبقى . . ولذلك يستحيل أن تتحقق على يديه دكتاتورية البروليتاريا بالرغم من كل ما يطرحه من شعارات داخل الاتحـاد الاشتراكى . . وخارجه . . نحن نوافق عليه لأنه يقود ثورة فى اتجاه تحـرير الشعب ومحاولة تحقيق سيطرته على مقدراته . . لكننا نختلف معه ونقاومه لأنه مجرد خطوة غير مكتملة على طريق طويل . . وربما يكون عبد الناصر نفسه حجر عثرة على هذا الطريق . .

كان الكلام كبيراً كبيراً . . وان فهم منه الفتى أن « حديتو » وغيرها من التنظيمات الشيوعية فى مصر ليست فى جانب هذا المد الذى بدا ثوريا وهائلاً والذى جاءت به قرارات عبد الناصر الاشتراكية وتغنى به إعلامه ومطربوه وكتاب أغانيه ليل نهار عبر الإذاعة والتليفزيون الذى ولد عملاقاً . .

وافترق الصديقان على أن يلتقيا مرة أخرى حتى يقرر الفتى ما إذا كان سينتقل من « تنظيمه » المزعوم إلى تنظيم « حديتو » . . وتواعدا على لقاء بعد أسبوع فى نفس الغرفة على أسطح أحد البيوت القديمة بحى الجمالية الشعبى . . لكن هذا اللقاء الموعود لم يتحقق أبداً إلا بعد ذلك بسنوات طويلة عندما كبر الفتى وأصبح رئيساً لتحرير إحدى المجلات الثقافية ـ وهى مجلة المسرح ـ وطرق بابه ذات يوم كهل تدلى من تحت أنفه شارب كثيف يتخلله الكثير من الشعرات البيضاء وعلى رأسه هالة من الشعر الأبيض المنفوش على جانبى الصلعة التى امتدت حتى منتصف الرأس . . يرتدى بدلة أنيقة ويمسك فى يده بعلبة سجائر أمريكية وولاعة فرنسية ، وتعرف فيه الفتى بصعوبة على صديقه القديم ع. ص. وعندما سأله عن أحواله طيلة ما مضى من سنين عرف أنه تزوج زواجاً قصيراً ثم مر بأزمة شخصية طاحنة هجرته فيها زوجته وطلقت منه سافر على أثرها إلى الكويت ليقضى فى بلاد البترول سنوات طويلة يعمل محرراً

صغيراً مغموراً باحدى صحفها . . وقد قنع من الغنيمة بـالإياب . . وعاد بعد هذه السنوات الطويلة والعمر لم يبق منه أكثر مما راح فطفق يحاول مرة أخرى الدخول فى الحياة الثقافية المصرية بادئاً بمقال أحضره للفتى لكى ينشره فى مجلته عن المسرح الأمريكى !

فى تلك الليلة حين افترق الفتى عن صديقه ع. ص . حاملاً تحت إبطه كتاب رأس المال لكارل ماركس كانت تجول بخاطره أفكار كثيرة عن ضرورة اقتران الفكر بالعمل الثورى . . وأن المثقف الحق لا يقتصر على السباحة فى بحر الأفكار وإنما يحول كل ذلك إلى نضال قد يكلفه حريته أو حياته . . وتذكر قصصاً سمعها عن المثقفين فى السجون . . والأشعار التى يحفرونها بأظافرهم على جدران الزنزانات تتغنى بالغد ، ومواقف ضاحكة باكية سمعها عن واحد من المثقفين الثـوريين وكـان يعمل بمجلة روز اليوسف قبض عليه مع زميل له وهو كاتب وقصاص بنفس المجلة بتهمة الشيوعية وغضب ذلك المثقف الثورى غضباً شديداً لا لأنه اعتقل دون ذنب جناه أو عقابـاً على أفكـاره وليس على جـريمة ارتكبهـا ، ولكن لأنهم اعتقلوا معه ذلـك الزميـل . . وعند التحقيق المبدئى بادر المحققين قائلا :

ــ أما أنا فشيوعى ومن حقكم أن تقبضوا على وتعتقلونى . . ولكن لماذا تمسكون « ابن الكلب » هذا ؟ !

وكان الشائع أن « ابن الكلب » هذا من عداد المثقفين اليساريين العتاه ! ولكن هكذا كان الخلاف بين فصائل اليسار فى مصر حينئذ !

وتذكر الفتى أيضا حادثة شهيرة تندر بها المثقفون فى المقاهى وفى مجالسهم الخاصة حين تم اعتقال أستاذ شهير للنقد والأدب الإنجليزى فصل من قسم اللغة الإنجليزية قبل أن يلتحق به الفتى . . وعمل بالنقد الأدبى فى الصحافة . . وقد تعرض ذلك الأستاذ فى المعتقل إلى الضرب والإهانة ووصل الأمر إلى حد تهديده مع غيره من المعتقلين بالقتل فى الصحراء دون أن يُعرف لهم « طريق جره » . . ولكنه لم ينس فى غمرة الضرب والركل والصفع معلوماته الأكاديمية الغزيرة فصاح يطمئن زملاءه ألا يخافوا من القتل إذ لا يستطيع جلادوهم ابراز الجثة حسب النظرية المعروفة فى القانون الرومانى « بهابياس كورباس » . . Habias Corpus إذ لابد سوف يُسْألون عن اختفاء عدد من المعتقلين دون أن يتخلف عنهم عدد من الجثث ! وقصص غيرها من نوادر المثقفين الذين عانوا أشد المعاناه من أجل تحقيق أحلامهم الثورية وظلوا دائماً يسخرون من آلامهم فى أشد لحظات المعاناة ظلاماً . .

ومنذ تلك الليلة التى قرأ فيها الفتى أجزاءً من كتاب « رأس المال » أصبح متحمساً أشد الحماس للأفكار الاشتراكية خاصة أن المناخ العام

من حوله كان يشجعه على ذلك كما أن قربه من مثقفى قهوة عبـد الله وحرصه على أن يصبح واحا منهم ونشأته الطبقية الفقيرة ، كـل ذلك جعله ينحاز إلى الفكر الثورى . .

جاء اليوم الموعود وتحدد للفتى ميعاد مع رشاد رشدى لكى يحدثه فى أمر تعيينه معيداً بقسم اللغة الإنجليزية وكان هذا حلم عمره . . وفى صباح ذلك اليوم ارتدى أفضل ما عنده . . بدلة غامقـة اللون وربطة عنق وقورة وحذاء أسود إدراكاً لأهمية المناسبة وإتجه سيراً على الأقدام من منزله بميدان الجيزة إلى الجامعة حتى يعـطى لنفسه الـوقت لكى يرتب أفكاره ، وطفق يفكر جيداً فيما سيقوله للأستاذ وبأى أسلوب سيتحدث معه ، وما هو أفضل الطرق لأن يترك فى نفسه انطباعاً جيـداً . . وفى منتصف الطريق إلى الجامعة قابله صديقه محمد عنانى وكان قد عين معيداً بالكلية قبله بعامين . . واقترح عليه أن يذهبا معا إلى أحد الكازينوهات القـريبة عـلى النيل كعـادتهما وأخبـره الفتى أن لديـه ميعاداً هـاماً مـع أستاذهما . . وعلى هذا الميعاد يتوقف مستقبله . . وحاول العنانى أن يثنيه عن عزمه عن الذهاب لملاقاة رشاد رشدى وأخذ يورد له أسباباً كثيرة واهية لم يقتنع بهـا ولكنه شعر فى قرارة نفسه أن فى الأمر شيئا . . وأصر على معرفة سبب ذلك الموقف من العنانى وهو يتهرب من الإجابة ، ولكنه أخيراً وإزاء إصرار الفتى ــ فالأمر لم يكن أقل من مستقبل عمره وحلم

حياته ــ صارحه بأنه عندما اختلى برشاد رشدى منذ أيام ليطلب منه أن يقابل الفتى ويمدح له صفاته كطالب ممتاز ومعيد قد يصبح من أفضل من ضمهم الأستاذ إلى هيئة التدريس بالقسم باغته رشاد رشدى قائلا :

ــ لقد سمعت أن هذا الولد شيوعى . . وعلى ذلك فلا مكان له بيننا مهما كان امتيازه العلمى . .

وقد حكى العنانى للفتى أنه قال لرشاد رشدى أن هذا الفتى ليس شيوعياً أو غيره . . وإنما هو « فنان » يكتب القصص وليس مجرد « طالب متفوق » . . إلى جانب أنه تفوق على أقرانه من زملاء الدفعة ومعظمهم من بنات الأثرياء المتخرجات من مدارس أجنبية وهو المتخرج أصلا من مدرسة عربية حكومية . . وطفق أيضا يحدث رشاد رشدى عن سياسته الحكيمة فى تعيين الشباب بدلاً من البنات اللائى امتلأ بهن القسم . . لكن رشاد رشدى بدا متصلبا فى موقفه بعد أن أخبر العنانى أنه يعرف الكثير عن هذا « الولد » وأنه يعرف على وجه اليقين أنه يخالط الأدباء واليساريين فى قهوة عبد الله . . وأنه فى الحقيقة واحد منهم !

إنهارت أحلام الفتى فجأة . . وسالت دموعها . . وأيقن أنه لا فرار من الوظيفة فى أى مكان غير الجامعة فذهب مع صديقه يغسلان أحزانهما فى ذلك الكازينو القابع على نيل الجيزة وقد شل تفكيره ولم يعد يدرى ما يفعل أو يقول . .

فى اليوم التالى عرف أن رشاد رشدى قد سافر إلى انجلترا فى أجازة صيفية طويلة وسارت بالفتى أيام الصيف خالية خاوية مفلسة إلا من بضع جنيهات قليلة كان يكسبها من ترجمة المقالات الإنجليزية لإحدى المجلات . . وشعور بالعجز والفشل يخنق الدموع دائماً فى حلقه اليابس . . وفى ذلك الصيف انتقل أنور المعداوى وعبد القادر القط ومعهما بقية رواد قهوة عبد الله ـ أو معظمهم ـ إلى قهوة انديانا بالدقى ، وانتقل معهم الفتى إلى الجلوس الليلى على هذا المقهى المطل على ميدان الدقى المجاور لكبابجى الدقى الشهير والذى تتصاعد منه رائحة الشواء كل ليلة فتلفح وجه الفتى وكأنها تصفعه . . فيرى قطع الكباب وكأنها أشلاؤه الممزقة حزنا وكمدا . . وأصابع الكفته وكأنها ألسنة طويلة تخرج له من فم الحياة المفتوح تسخر منه ومن أحلامه ومن عجزه .

وعلى رصيف المقهى سمع الفتى قصصا متناثرة عن العلاقة بين رشاد رشدى وأقرانه وزملائه من أبناء جيله من الأساتذه . . كانت هناك كراهية عامة بين رواد المقهى من جيل الكبار نحو اسم رشاد رشدى . . لا يدرى لها الفتى سببا . . ولكنها كانت شيئا غامضا يشيع فى الجو العام للمقهى مع دخان الشيشة وأحيانا يقرع الأذن كصوت ضربات النرد على خشب الطاولة . . وكثيرون من رواد المقهى لا يدرون سببا لاعتراضهم

على الرجل سوى أنه يرتدى الملابس الأنيقة ويضع منديلاً فى كمه . . ويتحدث الإنجليزية بلكنة بريطانيـة فخيمة ويكتب المسـرحيات التى تغلب فيها الصنعة ــ فى رأيهم ــ على الفن . . وكثيراً ما كانوا يرفضون مناقشة أعماله الفنية أساساً على اعتبار أنها نتاج لعقل رجل دارس لأسرار الصنعة الدرامية يطبقها بمقاييس منضبطة كأنه مهندس ماهر يعرف كل أسرار العمارة . . لكن هذه الأعمال تظل بلا روح . . وبلا سحر الفن الحقيقى . . وقد سرت هذه المقولات أو الشائعات عن الرجل وأعماله مثـل النار فى الهشيم وتحـولت إلى فكرة ثـابتة فى أذهـان الكثيرين من المثقفين . . وقدر الفتى أن هـذا هو عيب رئيسى من عيـوب الحركـة الثقافية فى مصر ، فما ان تجتمع كلمة بعض المثقفين على فكرة معينة حتى تتحول إلى فكرة ثابتة وإدانة عمياء لا يجدى معها دفاع ولا ترو فى معرفة الحقيقة وتمحيصها . . وقد سأل الفتى ذات يوم أحد النقاد ــ وكان ثقيل الظل إلى أبعد الحدود ولا يزال . . ولا يذكر الفتى أنه رآه فى حياته مبتسماً أو سعيداً بشىء ــ سأله إن كان قد قرأ أو شاهد شيئـاً لرشـاد رشدى ففوجىء أنه لم يقرأ له مسرحية ولا كتاباً وإنما كل ما يعرفه عنه مستقى من مقالات النقد بالجرائد . . ومع ذلك كان إذا اختلف إلى المقهى أخذ يتشدق بأن الفراشة مسرحية رشاد الأولى ــ ليست إلا معمارا هندسياً مطابقاً لكل المقاييس النقدية لكنه بلا روح ! وربما كان الزمن الآن قد

أنصف الرجل ومسرحياته بعد أن عانى فى حياته الأمرين من هذه الفكرة الثابتة البلهاء .

وعلى أى حال ، لم يكن رشاد رشدى بالنسبة للفتى فى ذلك الزمان كاتبا مسرحياً أو ناقداً أو زميلاً كما كان يمثل لأقرانه الأساتذة من رواد القهوة . . وإنما كان بالنسبة إليه أستاذا عظيماً علمه من أسرار اللغة والأدب ما لم يعلم . .

فكر الفتى كيف يخاطب رشاد رشدى وهو لم يجالسه قط فى أول خطاب يكتبه إليه وهو على بعد آلاف الأميال بشارع « هاف مون » فى قلب لندن كما عرف من عنوانه الذى أعطاه إياه صديقه . . وقرر فى النهاية ألا يكتب له عن خيبة أمله أو يأسه أو أمنيته فى التعيين وإنما يكتب له نقداً عن مسرحيته « الفراشة » التى كانت قد مثلت فى الموسم السابق على مسرح الأوبرا وخرجت مطبوعة فى كتاب .

وسهر الفتى يدبج نقدا مطولا للمسرحية وشخصياتها وبنائها ثم مهر الخطاب بإمضائه وقذف به إلى صندوق البريد . .

بعد شهر أو أقل قليلا . . وصله خطاب من رشاد رشدى على عنوانه بالجيزة . . وكانت أول جملة فى الخطاب هى « ولدى الحبيب ! » .

عشق تلك الخشبة

عشق تلك الخشبة

كانت فرحة الفتى بتعيينه معيدا بقسم اللغة الإنجليزية وآدابها لا تعدلها سوى إحساسه أن الله قد حباه بنعمة عظمى وهى أن يضع قدمه على أول الطريق الطويل نحو تحقيق أحلامه ، وفى خلال شهور قليلة كانت علاقته قد تطورت بأستاذه رشاد رشدى حتى أصبحا صديقين حميمين . . وكشف له رشاد عن وجهه الإنسانى من وراء وجه الأستاذ الصارم الذى كان الفتى لا يرى غيره طوال سنى دراسته ، فحكى له جوانب كثيرة من حياته الخاصة ، وأسر له بالكثير من مشاعره الدفينة وشعر الفتى أن رشاد يحتضنه كما يحتضن الأب ولده ، وكثيرا

ما أسر له وهما يتمشيان سويا فى الشمس خارج مبنى القسم فى حدائق الجامعة وقد وضع رشاد كفا حنونا فى كف الفتى ، أنه لم ينجب ولدا . . وإنما أنجب بنتين . . وانه كان يتمنى أن يكون له ولد من صلبه ، وأنه يشعر أن الفتى هو ذلك « الولد » الذى كان يتمنى أن ينجبه . .

ومر عامان أو يزيد والعلاقة تزداد دفئا ، بينما الفتى يعد رسالته للماجستير ويحاول فى نفس الوقت كتابة مسرحيته الأولى التى سماها « الكذب » واعتاد الفتى أن يذهب مع صديقه العنانى - الذى كان هو أيضا يحاول كتابة مسرحيته الأولى التى اختار لها اسما هو « البر الغربى » - أن يذهبا معا إلى كازينو خريستو بالهرم حيث يجلسان فى شمس الصباح كل على منضدة . . ويشرعان فى الكتابة ، وكان الواحد منهما كلما انتهى من كتابة مشهد أخذته اللهفة أن يقرأه للآخر فورا وكان كل منهما ينتشى بما يكتبه نشوة عظيمة تكاد تعادل نشوة الجنس إن لم تفقها وجدا وعشقا . . فلم تكن المرأة - رغم غضاضة عمريهما معا - هى سبيلهما إلى تحقيق تلك اللذة العظيمة التى لا تشبعها الا لحظة العشق المحموم . . وإنما كانت عملية الخلق الفنى هى التى تدفع فى دمائهما معا تلك الرعشة الجميلة التى تتركهما وقد استولى عليهما شعور بالسعادة والرضا والإشباع لا يعرفه إلا كل من حاول تجسيد مشاعره فى صورة عمل فنى . .

وبالرغم من أن تجربة الفتى لم تكن تسمح له ساعتها أن يكتب عملا



كبيرا . . وبالرغم من أن مسرحيته الأولى اتسمت بغير قليل من السذاجة ، إلا أنه كان فخورا أشد الفخر بانتهائه منها . سعيدا كل السعادة أنه انضم بها الى زمرة كتاب المسرح - وكذلك كان صديقه .

ذلك أن المسرح المصرى فى تلك السنوات كان فى أوج تألقه . . وقد بدأ هذا التألق قبل ذلك بعدة سنوات عندما اجتمع مجموعة شباب الفنانين المثقفين من خريجى معهد الفنون المسرحية ليكونوا معا « المسرح الحر » من بينهم عبد المنعم مدبولى وصلاح منصور وكمال يس وزكريا سليمان وغيرهم ممن أصبحوا فيما بعد نجوما سامقة فى سماء المسرح والفنون الدرامية عموما . . وتوافق ذلك مع عودة سعد أردش وكرم مطاوع من بعثتهما لدراسة الإخراج المسرحى بإيطاليا ، وقبلهما كان قد عاد أيضا حمدى غيث ونبيل الألفى وكمال يس من بعثات بفرنسا وأصبح هناك جيل من المخرجين المثقفين الدارسين ، إلى جانب جيل من الممثلين الدارسين والعاشقين لفن المسرح . .

وكان تكوين المسرح الحر بداية لحركة مسرحية جديدة وعظيمة هدمت المسرح الكلاسيكى القديم الذى كان يعتمد على شعريات شوقى وعزيز أباظة أو مسرحيات على أحمد باكثير التى يستمد معظم مادتها من مسرحة التاريخ ، كما تجاوزت المسرح الذهنى أو « مسرح الأفكار » الذى كان يكتبه الحكيم ليقرأ لا ليمثل فى محاولة لأن يكسب

لفن المسرح احترامه بصفته أدبا مثله مثل الرواية أو الشعر ليضع المسرح مباشرة فى قلب المجتمع ، فيصعد على خشبته - ربما لأول مرة - الناس العاديون من أبناء الطبقة المتوسطة والطبقات الفقيرة من المصريين البسطاء ، وينزل عن تلك الخشبة الملوك والأمراء والنبلاء والشخصيات الأسطورية والبطولية .

وكان ظهور المسرح الحر الذى قدم لأول مرة كاتبا شابا واقعيا اشتراكى النظرة مؤمنا بحق الطبقات المهضومة فى الحياة ، مناضلا ضد الفقر وضد القوى التى تقهر إنسانية الإنسان البسيط هو نعمان عاشور . . فى مسرحيته الأولى التى ظهرت فيها موهبته على استحياء ـ وهى المغناطيس ـ (والتى مثلت عام ١٩٥٨) ـ حسبما يذكر الفتى ـ كان ظهور هذا المسرح عاصفة فنية أرست أسس المسرح المصرى الواقعى الحديث ـ وهو مسرح يرى الفتى أنه توافق مع حاجة الثورة إلى قيام مؤسسة ثقافية شعبية تعبر عن شكل المجتمع الجديد الذى كانت تحاول أن تخلقه . . مجتمع ينشد العدل . . والحرية . . والمساواة . . كما نشأ أيضا عن حاجة المثقفين أنفسهم لأن يطرحوا رؤاهم وأحلامهم فى حوار واسع مع هذا المجتمع الجديد . . ومع الثورة نفسها . .

وهكذا تضافرت ـ فى رأى الفتى ـ عدة عوامل مكنت من بزوغ المسرح المصرى الحديث فى أواخر الخمسينات وبداية الستينات

كمؤسسة ثقافية تقيم حواراً عميقاً وديموقراطياً مع البنية الجديدة للمجتمع التى كانت الثورة تحاول جاهدة أن ترسى أساسها ، كما تختلف أيضا مع هذه الثورة وزعيمها خلافاً ديموقراطيا صحياً وإن لجأت فى كثير من الأحيان إلى التلميح لا التصريح ، وإلى الرمز والإسقاط لا إلى الحوار المباشر ، حتى أن الفتى ــ بعد ذلك بعدة سنوات ــ أحصى عدد المسرحيات التى صور فيها كتاب ذلك المسرح ، زعيم الثورة عبد الناصر بشكل غير مباشر ونقدوا بعض أعماله نقداً لاذعا ولكن فى إطار من الحب له ، والإيحاء بأن أخطاءه لا يتحمل وزرها سوى معاونيه أو من حوله من بطانة فاسدة ، فكانت هذه الأعمال من الكثرة بحيث يمكن أن تشكل كتابا يسمى « عبد الناصر فى المسرح المصرى» . .

وكما كانت الثورة ترسى دعائم مجتمع جديد ، كان « المسرح الحر » ــ الذى خلق معه كتابه من أمثال نعمان عاشور فى المغماطيس ورشاد رشدى فى الفراشة ولعبة الحب ، وأنور قزمان وغيرهم ــ يرسى دعائم مسرح مصرى جديد تماما . . مسرح يعتمد على تصوير الإنسان المصرى البسيط . . وبالتحديد إنسان الطبقة الوسطى المصرية بكل مشكلاته وبكل التركيبة الاجتماعية القائمة على التناقضات الحادة بين الطبقات التى خلفتها عهود ما قبل الثورة . . وبكل الأحلام ــ أو الإحباطات ــ التى تواجه هذا الإنسان فى محاولته لأن يصنع غداًأفضل لنفسه

وللوطن . . والغريب فى الأمر ــ وربما كان هذا أمرا له دلالته العميقة ــ أن الإنسان المصرى البسيط عندما صعد إلى خشبة المسرح لأول مرة مع « المسرح الحر » كان هذا على خشبة مسرح الأوبرا التى شهدت فيما مضى الأوبرات الإيطالية والأجنبية عموما ــ والمسرحيات المصرية الشعرية والكلاسيكية بفخامة لغتها الفصحى والشعرية ، وشخصياتها الأسطورية أو التاريخية ، وبجمهورها الذى يرتدى نساؤه « الفراء » ورجاله « البابيون » ، فدخل إلى دار الأوبرا وجلس على مقاعدها الفخمة لأول مرة ذوو الجلاليب ، وذوو البدل البسيطة الفقيرة المظهر ، وأحيانا ذوات الملاءات اللف ! يصلون إلى ميدان الأوبرا بالترام أو الأوتوبيس بدلا من السيارات السوداء الفارهة .

وربما « يخطف » بعضهم « رجله » أثناء الاستراحة أو بعد خروج المسرحية إلى ميدان العتبة لينعم بسندوتشات الفول والطعمية أو طبق من الكشرى بالشطة يشتريه من المحلات المتناثرة هناك . . وكان هذا هو الجمهور الحقيقى « للمسرح الحر » . أبناء الشعب العادى الذين قامت ثورة يوليه لتنصفهم من ظالميهم فمكنهم المسرح الحر من الدخول إلى دار الأوبرا لأول مرة . . ولم تكن بعد ذلك الأخيرة .

ولم يكن من الممكن مع تلك « الثورة المسرحية » التى جاء بها المسرح الحر أن يستمر « المسرح القومى » وهو الواجهة الرسمية لمسرح الدولة فى

تقديم كلاسيكياته المسرحية متجاهلاً بذلك النبض الجديد فى المسرح والشارع على السواء . . ولم يكن من قبيل الصدفة أيضا أن يكون مدير هذا المسرح ومقره مسرح الأزبكية فى عصره الكلاسيكى الفخيم قبل الثورة بسنوات شاعر القطرين « خليل مطران » الذى كان من أهم انجازاته أن نقل إلى العربية مآسى شكسبير فى لغة فخيمة طنانة ، وأن يعين له بعد ظهور المسرح الحر بعام أو يزيد مديراً جديداً من الصف الثانى لضباط الثورة وهو فى نفس الوقت أديب ومثقف معروف هو أحمد حمروش . . الذى حول هذا المسرح أثناء إدارته له إلى مؤسسة ثقافية حقيقية ومنبر للرأى الحر والحوار العميق مع المجتمع ومع الثورة ذاتها . . ولم يكن لأحمد حمروش الفضل الوحيد فى ذلك سوى إيمانه العميق بأهمية المسرح وأهمية دوره فى حياة المجتمع وانضباطه الشديد فى فن الإدارة حتى أن المسرح القومى فى عهده أصبح بالفعل تياراً مؤثراً فى حياة المجتمع . وقد ساعده على ذلك ــ كما سبقت الإشارة ــ عودة عدد من المخرجين المثقفين الدارسين من بعثاتهم فى الخارج حتى أن فن الإخراج لم يعد وليد الاجتهاد أو الصدفة ، وإنما وليد الموهبة والدراسة معا ، وكذلك وجود مجموعة من الممثلين والممثلات الموهوبين جداً والدارسين أيضا من أمثال سميحة أيوب وسناء جميل وسهير البابلى وتوفيق الدقن والدفراوى وأبو زهرة ومحمد الطوخى ومعهم من الجيل السابق لهم

حسين رياض وشفيق نور الدين وحسن البارودى وغيرهم كان يحدوهم جميعا عشق عظيم لفن المسرح لم يكن قد أفسده بعد ظهور وسائل الاتصال المجزية انتشاراً ومالاً مثل التليفزيون . . فكانو يتسابقون إلى الوقوف على خشبة المسرح وأحيانا يتوسلون إلى المخرج أن يسند إليهم الأدوار بدلاً من الهروب منه كما يحدث الآن خشية أن يفوتهم دور فى مسلسل تليفزيونى أو حتى لا يضيعون الوقت والجهد فى المشاركة فى عمل مسرحى ! .

وإذا كان المسرح - بمعنى الفرجة - هو مخرج ومجموعة من الممثلين وجمهور يجد فيها يقدم إليه انعكاسا لحياته وصدى لمشكلاته - فإن الكلمة هى الأساس فى كل ذلك - وهكذا قيد لهذا المسرح المصرى الوليد - الذى درجنا الآن على أن نسميه بمسرح الستينات - عدد من الكتاب الذين وجدوا فى التعبير الدرامى ضالتهم المنشودة . . من أمثال نعمان عاشور نفسه الذى أرسى دعائم المسرح الواقعى بمسرحيته العظيمة « الناس اللى تحت » التى قدمها أيضا المسرح الحر ، وبعده ومعه جاء رشاد رشدى الذى مزج فى أعماله الأولى الواقعية بالرمزية ولطفى الخولى محامى البرجوازية الصغيرة فى مسرحية القضية وسعد وهبه الذى وضع الريف المصرى بكل فلاحيه المقهورين وأفندياته وأصحاب السلطة فيه على المسرح لأول مرة ، والفريد فرج الذى توسل بالتاريخ والتراث

العربى ليصور أزمة الإنسان المعاصر ، وميخائيل رومان الذى كان إعصارا مسرحيا جاء يترك صرخته المدوية فى وجه الظلم ويمضى ، وغيرهم .

لم يكن من الممكن أن يظل المسرح القومى يؤدى نفس وظيفته الكلاسيكية القديمة بعد أن أرست الثورة المسرحية التى جاء بها « المسرح الحر » دعائم مسرح مصرى جديد ومعاصر . . فبدأ المسرح القومى يحتضن أعمال الكتاب الجدد فقدم محروسة سعد وهبه وتلاها بالسبنسة كما انتزع نعمان عاشور من المسرح الحر وقدم له « الناس اللى فوق » وقدم أيضا القضية للطفى الخولى الذى كان نجمه قد بدأ يبزغ فى سماء الأدب والفن أيضا لا فى ميدان الكتابة السياسية وحدها بعد ظهور مجموعته القصصية « رجال وحديد » كما قدمت « سقوط فرعون » أولى مسرحيات الفريد فرج وكذلك « الدخان » أولى مسرحيات ميخائيل رومان . . وكما انتزع القومى من الحر نعمان عاشور . . انتزع منه أيضا رشاد رشدى الذى قدم له ثالثة مسرحياته وأنضجها وإن لم تلاق نجاحا يذكر ساعتها بسبب غرابة الاخراج وتغريبه - وهى رحلة خارج السور . .

كل هذه الكوكبة من الكتاب الذين اقتحموا المسرح ، وبدءوا جميعا تقريبا ككتاب للقصة القصيرة إذ نجد لكل منهم تقريبا مجموعة على الأقل

من القصص القصيرة الواقعية منشورة فى كتاب قبل أن ينتقل من التعبير من خلال السرد إلى التعبير من خلال الصراع الدرامى . . كل هذه الكوكبة التى شكلت فيما بعد ضمير المسرح المصرى الحديث ، بل وضمير الأمة ذاته من خلال ما كانوا يقدمونه من مسرحيات على اختلاف أساليبها الفردية ، ظهرت معا فى وقت واحد تقريبا وكأنها ولدت من رحم الصراع الدائر فى المجتمع نفسه نشدانا للتغيير . . ونشدانا للأفضل . . وهكذا المسرح العظيم دائما يولد من قلب فترات التحول الاجتماعى الكبرى حين يموج الصراع داخل المجتمع مؤذنا بانتصار مجتمع جديد ذى قيم جديدة شريفة وسامية على مجتمع قديم ذى قيم بالية . . أو بانتصار المستقبل على الماضى . . وشكلوا مع المجموعة الجديدة من فنانى المسرح - ممثلين ومخرجين - تيارا فكريا وفنيا بل وسياسيا دافقا . .

ولم يكن اهتمام الفتى بالمسرح وليد الاحتكاك بهذا التيار العظيم بشخصياته وأعماله فقط ، فقد كان يعود إلى أيام فى صباه الأولى حين كان يصطحبه قريب له كان يعمل موظفا بمسرح الأزبكية إلى المسرح فى المساء . . فيجلس مبهورا فى مقاعده الخلفية محبوس الأنفاس جاحظ العينين وقد استولت على عقله الصغير وقلبه الغض دهشة عظمى من مرأى تلك العلبة السحرية التى ما أن ينفرج عنها الستار . . وتسلط

عليها الأضواء ويتحرك فوقها بعض الشخوص حتى تتحول فى عينه الى عالم من الدهشة والغرابة والسحر كأنه شىء ليس من صنع البشر . . أو كأنه قد أتيحت له الفرصة أن يدخل الى عالم ما لم تره عين ولم تسمعه أذن !! وقد شعر وهو فى المدرسة الثانوية بميل شديد إلى أن يصبح جزءا من هذا العالم السحرى الذى بهره وملك عليه قلبه منذ الصبا الأول ، فاشترك مع بعض زملاء له يذكر منهم الآن محمد مرجان الذى أصبح فيما تلا ذلك من أيام مخرجا دارسا يحمل شهادة من إيطاليا ، وعاد لفترة قصيرة ليتزوج من ممثلة عجوز بالمسرح القومى تكبره سنا بحوالى ثلاثين عاما ، وأخرج مسرحية أو اثنتين لم تلاقيا نجاحا يذكر فى المسرح العالمى الذى تكون مع فرق التلفزيون المسرحية فى أواسط الستينات ثم اختفى بعد ذلك مرة أخرى فى بلاد الله لخلق الله ولم يسمع عنه بعد ذلك ، وقيل إنه هجر الفن ليعمل بالتجارة فى إيطاليا ، ومنهم أيضا شاب نحيل كان ابوه يملك محلا صغيرا للعطارة ليس فيه عطارة تقريبا بشارع الأزهر . . وكان وجهه مغضنا بما لا يتناسب مع صباه الغض . . يقضى معظم وقته بعد المدرسة فى المحل الذى يكسب قروشا قليلة يقيم بها أود والده المقعد وإخوته ويقضى بقية الليل فى كتابة المسرحيات الفكاهية بسبب لا يدريه فلم يكن قد درس المسرح أو شاهد مسرحيات . . وإنما كأنه ولد بهذه الموهبة الفطرية . . وهذا الشاب العجوز هو محمد فهيم القاضى الذى

كان صنوا لروح الفتى فى صباه الأول . . وقد كتب بعد ذلك عدة مسرحيات لمسرح التلفزيون أشهرها « شى الله يا ابو زعيزع » ومسرحية لفرقة ثلاثى أضواء المسرح فى أول عهدها عندما أنشأها ثلاثة من الشبان المتحمسين الموهوبين جدا هم سمير غانم والضيف أحمد وجورج سيدهم . . وبدأت معهم كما بدأت مع فرقة المتحدين التى أنشأها سمير خفاجى ومدبولى والمهندس بعد إغلاق مسارح التلفزيون تيار المسرح التجارى الهزلى فى مصر الذى انتهى بكارثة اختفاء المسرح من الساحة كمؤسسة اجتماعية وبزوغه فى السبعينات كمؤسسة ترفيهية محضة . . وقد انتهى فهيم القاضى بعد ذلك وهو فى ريعان الشباب نهاية مأساوية ، إذ اختفى سنوات عن الأنظار ، وكان قد فشل فى الحصول حتى على الشهادة الثانوية واستمر مع ذلك يكتب المسرحيات ، فقيل إنه أصيب بالاكتئاب . . وسأل عنه الفتى ذات يوم من أيام السبعينات فقيل إنه مات من سنين . . كيف ولماذا ومتى . . وأين . . لا أحد يدرى . . غير أن الفتى قد لاحظ أن محلهم الضيق بشارع الأزهر قد أغلق . . . .

وانتهت بذلك حياة واحد من أعظم العاشقين للمسرح لم تنصفه الحياة فغادرها غير آسف . .

ويذكر الفتى أيضا من بين من كونوا معه هذه الفرقة المسرحية فى أيام الدراسة الثانوية - والتى أطلقوا عليها اسم « فريق الحرية » زميل

وصديق له وابن حتة هو سمير جمعة وكان والده يقوم بالأدوار الصامتة (كومبارس) فى معظم الأفلام المصرية ، ويفرح الفتى كثيرا كلما رآه على الشاشة وتعرف على وجهه ، وكان سمير يقوم بأدوار الأطفال الصغيرة فى بعض الأفلام بسبب اتصالات والده بفئة الريجسيرات ، أدوار نـاطقة كادت أن تجعل منـه نجما سينمـائيا صغيـرا . . أو طفلا من الأطفـال المعجزة . . وذات يوم استطاع – من خلال اتصالات أبيه أن يحصـل للفتى وشقيقه الأصغر وهما فى سن الثانية عشرة تقريبا على دورين لطفلين غير ناطقين « كومبارسات » يقابلان اسماعيل يس أثناء نزوله من سيارة فى ديكور حارة باستوديو مصر ويستقبلانه بزيطه وضجيج وذلك فى فيلم اسمه « الدنيا لما تضحك » . . وكان يوما مشهودا فى حياة الفتى الذى كان بعد صبيا صغيرا . . إذ أتيح له أن يرى عالم السينما الساحـر من داخل الاستوديو بأضوائه والعاملين فيه كأنهم خلية النحل كما أتيح له أن يرى اسماعيل يس وجها لوجه بل ويمثل معه أيضا ، وإن كـان الدور صامتا ويظهر فى مشهد من الفيلم لم يستغرق أقل من ثانية ، ويتقاضى عن هذا الدور الذى قام به فى يوم واحد ٤٥ قرشا كاملة !

ويذكر الفتى أيضا أنه من بين أعضاء هذا الفريق زميل لهم اسمه أحمد صلاح وكان اسم شهرته بين الشلة (فسيخة) لأنه كان فعلا يشبه الفسيخة بسمرة لونه الكالحة كأن بشرته ليست حقيقية وإنمـا مملحة ،

وبطول رقبته الشديد كأنها جزء خاص من جسمه ركزت عليه الطبيعة تركيزا خاصا . . وبثيابه التى كانت تنبعث منها دائما رائحة الفسيخ . . ويعلم الفتى أن أحمد صلاح « فسيخة » عمل بعد تخرجه من معهد الفنون المسرحية مخرجا بالتلفزيون وكان يخرج بعض البرامج الثقافية . . ومات وهو فى منتصف الأربعين هكذا مثل بطل قصة لتشيكوف مات . . لماذا أيضا وكيف لا أحد يدرى . .

أما سمير جمعة النجم السينمائى الطفل فقد كان بالنسبة للفتى أهم أفراد الشلة - فمعه بدأ خطواته الأولى نحو الكتابة الأدبية وهو بعد فى سن صغيرة جدا . . وألفا معا - وهما بعد فى السنة الثانية الثانوية مجموعة من القصص سمّياها « ليلة أنس » وهو عنوان القصة الأولى فى المجموعة كتبها سمير جمعة عن فتاة ساقطة جائعة التقطها من الشارع مجموعة من الشبان العابثين وأتوا بها إلى غرفة أحدهم فى بدروم أحد المنازل فى حى من الأحياء الشعبية الفقيرة وما رسوا معها الجنس وهى تأمل بالخروج بما يسد رمقها ورمق عائلتها الكبيرة التى تنفق عليها من عرق جسدها . . ولكن الشبان العابثين يخدعونها بعد أن يحصلوا على مرامهم ويلقونها فى الشارع دون أن يدفعوا لها مليما . . وعند عودتهم يكتشفون أن المرأة قد سرقت وابور الجاز وهو القطعة الثمينة الوحيدة الموجودة بالغرفة . .

كانت قصة ساذجة ولكنها أشبه بصورة المومس الفاضلة التى تسقط ضحية للفقر وللمجتمع ، والتى - وان سرقت - فإنك تتعاطف معها إزاء هذه الشلة من الأوغاد الذين استغلوا جسدها وطردوها بلا رحمة فى الشارع وكانت القصة متمشية - بطريقة رومانسية - مع مناخ التعاطف الشائع مع الطبقات المسحوقة .

كانت مجموعة « ليلة أنس » مكونة من عشر قصص ، خمس منها كتبها الفتى ، وخمس كتبها سمير جمعة . . وقررا نشرها فى كتاب وذهبا إلى شارع كلوت بك ـ وكان ذلك على ما يذكر الفتى عام ١٩٥٥ أو ١٩٥٦ ، يبحثان لكتابهما عن ناشر من بين أصحاب بعض المكتبات التى كانت متناثرة هناك . . ودخلا مكتبة صغيرة ألفيا فى فاترينتها كتباً جنسية متعددة عليها صور نساء عاريات صارخة العناوين من أمثال « الصراع الجنسى » و« متعة الجنس لدى المرأة » وغير ذلك . . ودخلا فإذا بصاحب المكتبة رجل أسمر طويل القامة عريض المنكبين أصلع الشعر أسمر البشرة كثيف الشارب فى حوالى الأربعين ، يذكر الفتى أن اسمه كان « نصر عبيد » . . وعندما عرض عليه الصبيان مجموعتهما القصصية لم يعر ما حوته من قصص التفاتا ـ وهى قصص ظنها الصبيان شديدة التلاحم مع مشكلات المجتمع ـ وإنما اهتم أشد الاهتمام بعنوان المجموعة الذى كان قد وضعه سمير جمعة اسماً لأول قصة من قصصها

وهو« ليلة أنس »ورأى فيها الناشر فرصة سانحة لكتاب جنسى جديد فاتفق معهما على نشر المجموعة دون مقابل سوى الشهرة التى ستأتى بوضع اسميهما على غلاف الكتاب . وبالفعل تم نشر هذه المجموعة ضمن منشورات مكتبة نصر عبيد بشارع كلوت بك بغلاف زاهى الألوان تتوسطه صورة امرأة أفرنجية شبه عارية وبيعت نسخة على سور الأزبكية بخمسة قروش للنسخة الواحدة .

أما« فريق الحرية » المسرحى فقد تم تكوينه وممارسة نشاطه بطريقة فى منتهى الغرابة . . كان أمام الشلة عقبة كبرى هى كيفية تمويل نشاط الفرقة الذى يتطلب تأجير مسرح وبعض المعدات لعمل الماكياج مثل الذقون والشوارب ومساحيق لتبييض شعر الذين سيقومون بأدوار العجائز . . واستقر الرأى على تأجير مسرح « التحرير » بسور مبنى الحرس الجمهورى (الملكى سابقاً) بسراى عابدين من ناحية شارع حسن الأكبر ـ وهو مسرح صغير كان مخصصاً لحفلات أفراد الحرس الملكى ، وعندما جاءت الثورة ظل خاويا بعد أن تغير اسمه إلى مسرح « التحرير » . . .

وحينما ووجهت الشلة بهذا القدر المهول من التمويل ـ ثلاثة جنيهات لإيجار المسرح وحوالى خمسين قرشاً للمعدات الأخرى غير تكلفة طباعة إعلان صغير ـ أسقط فى يدها تماما ، وكاد أن يضيع حلمها

المسرحى ، إلا أن محمد مرجان ـ الذى كان صارم الوجه دائماً ـ عاد ذات يوم والابتسامة تعلو شفتيه وأعلن أنه قد حصل على التمويل اللازم لإنشاء الفرقة وتأجير المسرح وشراء اللوازم المسرحية جميعاً . . واكتشف الفتى بعد ذلك بأعوام قليلة أنه سرق بعض قطع المصاغ الخاص بأمه وباعها وحصل من جراء ذلك على المال اللازم للفرقة ! . . المهم أن كل شىء كان على ما يرام ما عدا النص الذى ستقدم بـه الفرقـة باكـورة إنتاجها . . ولجأ الجميع إلى فهيم القاضى الذى كان يجلس وحده كل ليلة يكتب مسرحيات بلا حصر ولا عـدد ، مناشـدين إياه أن يكتب المسرحية الأولى للفرقة . . وفى أقل من ليلتين كان فهيم القاضى قـد كتب مسـرحية قصيـرة بعنوان « عـريس فى علبـة » حـول المـوضـوع المعروف . . موضوع العروس القبيحة الغنية التى يخطبها عدد من الأنماط البشرية المختلفة وعندما يرونها ويكتشفون قبحها يهربون مضحين بحلم الثراء فى سبيل أن « ينفدوا بجلدهم » من هذا الفخ . وكان من نصيب الفتى وهو بعد صبى صغير أن يمثل فى هذه المسرحية الفكاهية دور المأذون الذى ما أن يوشك على عقد القران حتى يهرب العـريس ويلقى دوره بلهجة هى خليط من الفصحى المقعرة المضحكة والعامية المبتذلة .

وبالفعل قدمت الفرقة باكورة إنتاجها فى ثلاث حفلات متتالية ، وطبعت من أجل ذلك إعلاناً عن المسرحية وممثليها ومؤلفها ومخرجها . .

وكان إعلاناً على ورقة حمراء فاتحة الحمرة عليها أسم الفرقة وممثليها كل بلقب مصاحب له فهـذا « الكوميـدى الساخـر » وذلك « الكـوميدى الساحر » وذلك « نجم السينما والمسرح » (سمير جمعة طبعاً) وهـذا « الممثل القديـر » ، وذلك « الممثـل المتمكن » وكان من نصيب الفتى صفة « معجزة المسرح » !!

ونجحت الفرقة ومسرحيتها نجاحاً مدوياً بين أفراد حى عـابدين الذين تقاطروا لرؤ يتها بعد هذه الإعلانات المدوية ، لكنه لم يكن من الممكن لها أن تستمر . فالدخـل من المسرحيـة الذى بيعت تـذاكرهـا بخمسة قروش لم يكن يكفى لاستمرار العرض ليلة رابعة ، كما أنه كان من المستحيل على محمد مرجان صاحب الفرقة ومخرجها وممولها أن يسرق بعضاً آخر من مصاغ والدته لسبب بسيط،أنها اكتشفت السرقة وضربته علقة ساخنة ، كما أنه لم يعد لديها مصاغ يسرق !

لم تكن علاقة الفتى بالمسرح إذن جديدة أو جاءت فجأة بتأثير ذلك المناخ الخصب الذى صاحب بداية ما يسمى الآن بمسرح الستينات ، وإنما كانت علاقة قديمة قدم وعيه بالحياة والأشياء ، وهو وإن كان قد اختار القصة القصيرة فى البداية كشكل أولى من أشكال التعبير إلا أنه لم يجد ذاته إلا فى الكتابة للمسرح بعد أن قرر بينه وبين نفسه أن التمثيل ليس مجاله الحقيقى ، وأنه يفضل أن يقف بكلمـاته من وراء مجمـوع

الممثلين لا بينهم . . وهكذا كانت كتابة مسرحية « الكذب » - مسرحيته الطويلة الأولى - تجربة مثيرة بكل معنى الكلمة ، وقد تمت كتابة هذه المسرحية فى شهر من العمل المتواصل بكازينو خريستو وكذلك تمت كتابة مسرحية « البر الغربى » لصديقه العنانى . . وحمل الاثنان مسرحيتيهما الى منزل رشاد رشدى بالجيزة الذى وعد أن يجلس إليهما ويقرأ المسرحيتين ويدلى بملاحظاته فى تشجيع أبوى صادق . . وتمت قراءة المسرحيتين والأستاذ يصغى بانتباه شديد لكل كلمة تلقى على مسامعه . . وفى النهاية قرر أن كلا المسرحيتين فى مستوى جيد ويصلحان للعرض . . وأن صاحبيهما ذوا موهبة فنية ذكية أكيدة إلا أن العنانى يمتاز على الفتى بقدرته على بناء الحبكة أما الحبكة عند الفتى فضعيفة قليلا وإن تميز على العنانى بقدرته على كتابة الحوار !! لكن هذه الملاحظات لم تنجح أن تستثير بين الصديقين أى شعور بالغيرة ، وهو شعور كان يحلو لرشاد أحيانا أن يبثه بين تلاميذه ويستمتع بذلك أشد الاستمتاع .

وكان الفتى كثيرا ما يتندر هو وصديقه أثناء تمشيتهم الليلية على نيل الجيزة بالكثير من الاصطلاحات النقدية المتعلقة بالكتابة الدرامية فيقولان لبعضهما البعض أنه لابد من تكثيف الحوار وتعميق الصراع وإلا استحالت الحياة . . فلما فاجأ رشاد الفتى برأيه أصبح التصنيف واضحا

بين الصديقين . . فالعنانى هو الذى يجيد تعميق الصراع أما الفتى فهو المختص بتكثيف الحوار !

وكانت حياة الفتى فى تلك الأيام تنقسم بين التدريس فى الجامعة ، والكتابة للمجلات الثقافية وبعض الصحف ومحاولة الكتابة الإبداعية ، وكـان يحلو له أن يختلف فى المسـاء إلى كـافيتـريـا فنـدق سميـراميس القديم . . وكان مقهى أدبيا من نوع آخر غير قهوة عبد الله أو انديانا فالكافيتريا كانت تسهر للصباح . . وهناك كان يجلس كامل الشناوى الذى رآه الفتى عدة مرات لكنه لم يستطع أن يتعرف عليه لأنه كان دائما محاطا بشلته الخاصة والضحكات تنبعث منهم متوالية بسبب القفشات الذكية التى كان يطلقها كامل الشناوى طول الليل فى سخرية مريرة من كل شىء مرئى تترامى الى سمع الفتى عن بعد . . وفى هذه الكافيتريا أيضا تعرف على لطفى الخولى المفكر الاشتراكى الكبير وكان – من بين جميع الاشتراكيين صديقا حميما لرشاد رشدى . . وكان إذا انقضى المساء يعودون جميعا إلى بيوتهم فى الدقى حيث يسكن لطفى،الخولى والجيـزة حيث يسكن رشاد رشدى أمام حديقة الحيوان،وبعده الفتى فى الميدان – يعودون سيرا على الأقدام عبر كوبـرى قصر النيـل ثم الجيزة ، تلفـح وجوههم نسمات المساء الحنونة ، وتطول بهم المناقشات فى كل ما يهمهم من أفكار . . وكانت هذه الصداقة الحميمة بين لطفى الخولى ورشاد مثار

إعجاب الفتى وعجبه أيضا . . إعجابه لتلك الموضوعية الشديدة التى ميزت فكر الاثنين معا . . فلم يكن ليرفض أحدهما الآخر على أساس عقائدى أوأيديولوجى كما هى الحال مع بعض المثقفين المصريين الذين يتسمون بالمراهقة السياسية وعجبه لأن هذه الصداقة استمرت بل وقويت على مر الأيام خاصة عندما تم إنشاء مسرح الحكيم .

وكان إنشاء مسرح الحكيم حدثا جليلا فى حياة الفتى وحياة جيله بأكمله ، كما كان فى حياة المسرح المصرى نفسه . . عاد رشاد رشدى ذات يوم من أوائل عام ١٩٦٤ إلى مكتبه بالجامعة من اجتماع مع وزير الثقافة والاعلام حينئذ د. عبد القادر حاتم مبرنشقا سعيدا منتفخ الأوداج لامع العينين وأعلن للفتى وزملائه الجالسين فى انتظاره فى غرفته الصغيرة بالقسم وكانوا (محمد عنانى وعبد العزيز حمودة وفاروق عبد الوهاب وآخرين من أساتذة القسم مثل الدكاترة فخرى قسطندى وعزيز سليمان وفايز اسكندر وشفيق مجلى) ، أنه قد تقرر إنشاء مسرح جديد باسم مسرح الحكيم يقف الى جوار القومى ويقدم النماذج الرفيعة من الأعمال المسرحية المصرية المعاصرة . . وقد تكونت له لجنة تنفيذية برئاسة رشاد رشدى نفسه ولطفى الخولى معا . . وأن المسرح سوف يكون تحت رعاية توفيق الحكيم نفسه إلى جانب أنه يحمل اسم الرائد

الكبير . . وأن مقره سوف يكون فى مسرح الكورسـال فى قلب عماد الدين !

وبدا الجميع – وأولهم رشاد رشدى – وكأنهم قد أمسكوا بالحلم بين أيديهم . . ودب فيهم جميعا حماس دافق . . وكان رشاد رشدى يعلم أنه سوف ينجح بإعطاء الفرصة لهؤلاء الذين لابد سيثرون الحياة النقدية والمسرحية بإبداعاتهم وجهودهم . . وكان حلم رشاد رشدى ومعه لطفى الخـولى اللذان تحدثـا فيه أمـام الفتى فى نفس الليلة بكافيتـريا فنـدق سميراميس أن يتحول مسرح الحكيم إلى مؤسسة ثقافية متكاملة فتصدر عنه مجلة للمسرح ، كما يقيم الندوات المسرحية والفكرية يناقش فيها ما تعرضه المسارح من مسرحيات ، ويستضيف إليها كبار النقاد والفنانين من مؤلفين ومخرجـين وممثلين ، كما يضم مـركزا للتـدريب والتجارب وهكذا تم تقسيم مسرح الحكيم إلى الفرقة المسرحية ، ومجلة «المسرح» ، و «نـادى المسرح» الـذى كـان عليـه أن يقـوم بـالنـدوات والتـدريب والتجارب . .

بدأ العمل جديا فى مسرح الحكيم ــ وكان على الفرقة المسرحية أن تبـدأ موسمهـا الأول بمسرحيـة للحكيم نفسه ، واختيـرت مسـرحيـة «بيجماليون» ثم تم تخطيط الموسم الأول على أن يقدم بعـد مسرحيـة الحكيم المسرحية الثانية للطفى الخولى وهى فانتازيا بعنوان «الأرانب»

من إخراج جلال الشرقاوى ، ثم تتلوها مسرحية محمد عنانى الأولى «البر الغربى» وذلك تحقيقا لرسالة المسرح فى تقديم جيل جديد من الكتاب المسرحيين إلى الحركة المسرحية . .

وبدأ الاستعداد أيضا على قدم وساق لاخراج أول مجلة للمسرح فى مصر تقوم على أسس علمية واختير الفتى سكرتيرا لتحريرها ومعه محمد عنانى . .

وكان ميلادا مشهودا لهذه المجلة التى أصبحت الآن من المراجع الأساسية التى لا غنى عنها لأى دارس أو مهتم بالمسرح فى مصر . .

يذكر الفتى وكأنه حدث بالأمس عندما سار مع رشاد رشدى ومحمد عنانى فى شارع محمد على الذى يصل بين ميدان باب الخلق وميدان العتبة فى وسط القاهرة يبحثون عن مطبعة رخيصة تطبع لهم العدد الأول من هذه المجلة الوليدة . . ووجدوا مطبعة متواضعة ، وأخذ الفتى يعمل داخلها ليل نهار مع المشرف الفنى صالح البيك ـ حتى انتهى العدد الأول . . وفى ليلة الصدور . . وكانت القلوب واجفة ورعشة الفرح بالميلاد الجديد تسيطر على كل من اشتركوا فى العمل . . ذهب الفتى مع رشاد رشدى ومحمد عنانى إلى المطبعة ليتلقفوا العدد الأول . . ولكنهم روعوا بالغلاف وقد اختلطت فيه الألوان وتحولت إلى بقع عشوائية يختلط فيها الأحمر بالأخضر بالأسود ، فلا يكاد المرء يتبين ما هو موجود على هذا

الغلاف (وكان صورة لإحدى المسرحيات المعروضة حينئذ) أهي صورة أم كتابة أم نقوش سيريـالية ، وقـد حدث ذلـك بسبب تلك المطبعـة البدائية التي تطبع ألوان الغلاف بالكبس اليدوي لونا بعد آخر (فلم يكن الأوفست أو فصل الألوان من المختـرعات التي عـرفتها هـذه المطبعـة بعد) . وما أن رأى الفتى وأستاذه وصديقه هذا الغلاف الهلامي الألوان والشكل حتى أصابهم غم وهم عظيمان . . وأسقط في يد الفتى إذ تصور أن حلم الجميع بالمجلة قد اصطدم بعقبة كأداء . . إذ أن إعـادة طبع الغلاف كان يعني الانتظار أسبوعين آخرين وربما جاءت النتيجة بنفس القدر من السوء . . لكن رشاد رشدي فكر بسرعة واتخذ قرارا ــ بتغيير الغلاف وطبعه على ورق أبيض تماما مع طبع اسم المجلة عليه بـالحبر الأسود . . وسهر الجميع ليلة بكاملها لطبـع اسم المجلة على غـلاف أبيض وتجليدها . . وفي السـاعات الأولى من الصبـاح كانت الثـلاثة الآلاف نسخة قد انتهت والفتى وأستاذه وصديقه يرقبون العمال وهم يسابقون الزمن . . حتى جاءت سيارة شركة التوزيع في الفجر لتأخذ الأعداد وتوزعها في القاهرة . . وخرجوا من المطبعة وساعات الصباح الأولى تملأ صدورهم ــ بالرغم من كل الإرهاق وتحطيم الأعصاب ــ بهواء منعش يحمل الكثير من الأمل والفـرح . . وساروا حتى ميـدان سليمان باشا حيث عرجوا على جروبي سليمان وتناولوا القهوة والكعك

ثم خرجوا إلى الشارع ليجدوا عند أول فرشة من فرشات بائعى الجرائد بالميدان العتيق مجلة المسرح بغلافها الأبيض . . واشتروا نسخة والدموع تبلل عيونهم جميعا . . واحتبست الكلمات فى حلوقهم فلم يملك الواحد منهم حتى أن يقول للآخر كلمة «مبروك» وإنما وجد الفتى أستاذه يضع راحته الحنون فى كفه ويضغط عليها بكل ما أوتى من قوة . . كانت لحظة أعظم وأجمل وأروع من أى تعبير بالكلمات . .

ولم يغامر رشاد رشدى بعد ذلك بطبع المجلة فى تلك المطبعة المتواضعة فانتقلت طباعتها منذ العدد الثانى إلى دار روزاليوسف ، وانضم إلى أسرتها فى العدد الثانى سكرتيرا ثالثا للتحرير هو فاروق عبد الوهاب الذى كان زميلا للفتى يصغره بعام . . وكان فتى موهوبا جياش المشاعر كالعاصفة . . يكتب بطلاقة غريبة وبسهولة عجيبة ، وكان يكتب أحيانا القصائد العامية التى تقطر عذوبة وحبا لتراب هذا الوطن وتنحاز إلى الفقراء من أبنائه ، وكان ساخرا حاضر النكتة يعيش حياته هائما على وجهه بين الجامعة والمسرح وشوارع القاهرة ــ وشقته الصغيرة المفروشة فى وسط البلد عند ميدان مصطفى كامل والتى كان يستأجرها بجنيهات قليلة مع صديقه الرسام مصطفى حسين ويجمع فيها كل ليلة الفنانين الشبان من كتاب ورسامين وممثلين وشعراء . . صعاليك ذلك العصر من الشباب الذى يقطر فنا . . ويقطر للحياة حبا . . وكان

فاروق عبد الوهاب أكثرهم فنا . . وأكثرهم عشقا للحياة . .

وسارت المجلة من نجاح إلى نجاح . . بعد أن أحدثت -بما فيها من دراسات ومتابعات للحركة المسرحية ونصوص كاملة تنشرها كل عدد -دويا هائلا فى الحركة المسرحية والنقدية . . وانضم إلى سكرتارية تحريرها فى مرحلة من المراحل عبد العزيز حموده زميل الفتى وصديقه الذى يكبره فى التخرج بعام واحد . . وكان فى البداية مهتما أشد الاهتمام بمتابعة حياته الأكاديمية ورسالته للماجستير ودراساته لكنه سرعان ما أصبح جزءا من ذلك العالم السحرى الذى يمثله مسرح الحكيم بفرقته ومجلته وناديه . . فاندمج فى حياة المسرح لكنه لم يترك لنفسه الفرصة أبدا لأن ينسى أنه مدرس بالجامعة .

وفتحت المجلة صدرها وصفحاتها لكتاب من جميع التيارات الفكرية والسياسية ، بالرغم من الاتهام الذى كان يوجه عادة من بعض المثقفين إلى رئيس تحريرها بأنه يمينى أو حتى رجعى (حسب تصنيفات تلك الأيام التى مازالت آثارها موجودة حتى الآن وتمثل مرضا خطيرا من أمراض الحركة الثقافية المصرية وما تنطوى عليه العلاقات الشخصية بين أفرادها من أحقاد وضغائن) ، فكتب فيها الدكتور محمد مندور ومحمود العالم ود. على الراعى وغيرهم والكثير من شباب اليساريين الذى أعطى لهم رئيس التحرير فرصة اللمعان فضلا عن النشر . . كما كتب فيها عدد

كبير من أساتذة الجامعة المتميزين ـ خاصة أساتذة أقسام اللغة الإنجليزية والعربية والفرنسية بجامعتى القاهرة وعين شمس ، وكان لدراساتهم النظرية والتطبيقية أكبر الأثر فى إرساء النقد المسرحى ـ بل وربما النقد الأدبى عموما ـ على أسس علمية ومنهجية واضحة . . بعيدا عن الأهواء الشخصية والانطباعات الهوجاء . . (باختصار كانت مجلة «المسرح» مدرسة حقيقية تعلم فيها الفتى أكثر بكثير مما تعلمه فى الجامعة (وإن كان قد ساعده تدريبه الأكاديمى وقراءاته العلمية والأدبية أثناء دراسته بالجامعة) ، كما كانت مدرسة أيضا للكثيرين من أبناء جيله . . إلى جانب أنها خلقت أيضا حركة نقدية خصبة ومؤثرة صاحبت الإبداع المتدفق فى تلك الفترة الرائعة من فترات ازدهار المسرح المصرى . .

وحقا كانت حركة مسرحية مذهلة ففى موسم واحد هو موسم (٦٤) عرض مسرح الحكيم «بيجماليون» لتوفيق الحكيم و «الأرانب» للطفى الخولى و «البر الغربى» لمحمد عنانى وعرض المسرح القومى «الفرافير» ليوسف إدريس و «رحلة خارج السور» لرشاد رشدى و «كوبرى الناموس» لسعد وهبه و «الخبر» لصلاح حافظ و «حلاق بغداد» لألفريد فرج كما عرض المسرح العالمى «عطيل شكسبير» والكوميدى «حلمك يا شيخ علام» لأنيس منصور و «مقالب محروس» وعرض الحديث «القنبلة الثالثة» لمصطفى مشعل و«أدهم الشرقاوى»

و«الطعام لكل فم»للحكيم وعرض الجيب «يا طالع الشجرة» للحكيم وعدداً آخر من المسرحيات لا يذكره الفتى الآن . . وكل هذا الفيض الهائل من الإبداع المسرحى وجد له فى مجلة المسرح الأرضية المناسبة لتقييمه والتنظير له وحوله ، وخلق مناخ نقدى خصب مواكب له .

وإلى جانب أن المجلة قد خلقت أيضا كتابها ونقادها فإنها قدمت إلى الحركة المسرحية بعضا من الذين قدر لهم أن يصبحوا من ألمع مبدعيها . . فقد أعلنت المجلة ذات يوم عن مسابقة للنص المسرحى تقدم إليها عدد كبير من الكتاب الجدد ، وجائزتها هى نشر النص والتوصية بعرضه على مسارح الدولة ، وكان الفتى من بين أعضاء لجنة القراءة والتحكيم التى تختار أفضل ثلاثة نصوص للفوز فى هذه المسابقة ، وسهر الفتى عدة ليال يقرأ كومة هائلة من النصوص المسرحية ، وأدهشه بينها نص يمزج فى براعة مذهلة بين الموقف الخيالى والكوميديا الواقعية هو . . «ولا العفاريت الزرق» . . وصمم أن يكون هذا هو النص الفائز بالجائزة . . وبالفعل فاز النص . . وكان كاتبه يومها لاعبا مغمورا بمسرح العرائس الذى كان قد أنشىء حديثا فى القاهرة على يد الوزير ثروت عكاشه الذى كان كل همه أن يضع قاعدة صلبة من المؤسسات الثقافية فى مصر حتى تلحق بركب الحضارة العالمية ــ وكان لاعب العرائس المغمور هذا . . الذى اشتم الفتى فى

مسرحيته أنه شديد الموهبة هو على سالم !! وبعد ذلك بأقل من عامين وعلى مسرح الحكيم نفسه قدمت رائعة على سالم «أنت اللى قتلت الوحش» وبها أصبح الكاتب من أهم كتاب الجيل التالى لجيل مسرح الستينات ! وقد قابل الفتى على سالم بعد فوز مسرحيته بالجائزة الأولى ونشأت بينهما صداقة حذرة . . لكنه كان دائما يقدر موهبته ، ويحتفظ لنفسه بالإعجاب الشديد بقدرته على حكاية أفكار وحواديت مسرحياته بطريقة شديدة الجاذبية ، شديدة الذكاء ، توحى إلى المرء بلمسة العبقرية . لكن الفتى لاحظ أن هذه الأفكار والحواديت عندما تتحول إلى نص على الورق تفقد الكثير من جاذبيتها الأولى ومن تأثيرها وبريقها

أما «نادى المسرح» الملحق بمسرح الحكيم فله حكاية أخرى . . كان لرشاد رشدى صديق وزميل العمر هو الدكتور لويس مرقص . . زامله منذ أن كانا طالبين يدرسان الدكتوراه فى الأدب الانجليزى فى انجلترا فى أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات . . وكما كان رشاد رشدى أول رئيس مصرى لقسم اللغة الانجليزية وآدابها بجامعة القاهرة . كان لويس مرقص أول رئيس لقسم اللغة الانجليزية وآدابها بجامعة عين شمس . . وحتى ظهور نادى المسرح إلى الوجود لم يكن لويس مرقص أكثر من أستاذ أكاديمى معروف داخل أوساط المتخصصين فى هذا الفرع من فروع الدراسة الجامعية ، ولقد كانت كل صلة الفتى به قبل إنشاء

مسرح الحكيم ونادى المسرح أنه كان يصطحب أستاذه فى يوم عيد القيامة من كل عام إلى منزل لويس مرقص بشارع رمسيس بالقرب من الكنيسة المرقصية وقد حمل رشاد معه بيضة ضخمة من الشيكولاته ملفوفة بالورق المفضض اعتاد أن يشتريها فى هذه المناسبة من محلات جروبى بوسط البلد كهدية العيد . . وكان الفتى يمكث مع أستاذه برهة من الوقت مهنئا تلك الأسرة القبطية المصرية بعيدها . . ويمضى الوقت فى مجاملات رقيقة وهم يجلسون جميعا فى صالون الشقة المكتظ بكراسى المذهب المنجدة بقماش «الأوبيسون» الذى ظهر عليه القدم وكأنه يعلن عن بقايا عز قديم مضى . . ويستمتعون جميعا بشرب الشاى وأكل «الكيكة» باللبن والزبد والزبيب التى صنعتها ربة المنزل بيديها دليلا على مهارتها الفائقة وقدرتها فى المحافظة بمنزلها على مظهره البورجوازى ذى التقاليد العريقة ـ وعلى الجدران فى كل مكان كان الفتى يرى صورا وتماثيل للمسيح المصلوب بوجهه النورانى الكسير ، ومريم العذراء بجمالها البسيط والأخاذ معا . . فيستقر فى وجدانه أن هناك من المصريين من يدينون بدين آخر غير الاسلام الذى يدين به ، وأن هذا الاختلاف فى الدين لا يمنع مطلقا من أن يشعر هو وأستاذه بالقرب الشديد من هذه العائلة القبطية وكبيرها الدكتور لويس مرقص . . بل وكان يشعر بعمق ما يربط أستاذه بزميله وصديقه المسيحى من رباط الأخوة والحب .

ولم تكن مصر فى ذلك الوقت قد عرفت ما عـرفته بعـد ذلك من مظاهر التشنج الدينى الذى ظهر على سطح المجتمع فى فترات متفرقة ولا يزال ، فقد كانت آثار عصر التنوير مازالت تحكم الحيـاة الاجتماعيـة والعلاقات الانسانية بين المصريين الذين بنوا نهضتهم الحديثة على أن الدين لله والوطن للجميع .

وحتى إنشاء مسرح الحكيم لم تكن للفتى أية علاقة بالدكتور لويس مرقص سوى تلك الزيارات السنوية مع أستاذه للتهنئة بعيد القيامة . . وفجأة ظهر لويس مرقص فى مسـرح الحكيم وأعلن رشاد رشـدى أنه سوف يدير نادى المسرح . ويبدأ نادى المسرح فى مزاولة نشاطه بإشراف الدكتور لويس . . وكأنما كان الدكتور لويس مرقص ينتظر . . بعد حياة أكاديميه مغلقة وطويلة ــ هذه اللحظة حتى يلعب دورا أوسع فى حياة المجتمع ، وحتى يخرج من سجن الجدران الأكاديمية إلى رحابـة الحياة العامة ، فطفق ينظم برنامجا كثيفا من الندوات الأسبوعيـة والتجارب المسرحية والمحاضرات «وورش» التدريب على الفنون المسرحية المختلفة من تمثيل وتأليف وتصميم ديكور . . وبدأ الجميع يشعرون بـأن مبنى المسرح هو بيتهم الحقيقى . . يقضون فيه من الوقت أكثر مما يقضون فى بيوتهم أو أعمالهم الأصلية . . يأكلون معا ويعملون معا ، ويسمرون معا وهم جالسون فى مدخله الأسـاسى فى آخر المسـاء . . ويشعرون

بالحزن الدفين إذ هم فارقوه مع نهاية الليل كل إلى بيته لينام . . وهكذا اندمج أيضا الدكتور لويس مرقص فى هذه الحياة التى كانت جديدةعليه تماما وهو الذى اعتاد طيلة حياته الأكاديمية أن يعود من محاضراتـه فى الظهيرة إلى بيته يلازمه حتى صباح اليوم التالى . . وكأن هذا الحماس الدافق الذى يشعـر به الجميـع نحو المسـرح وما خلقـه من مناخ فنى وفكرى ، بل وما بعثه فى نفوس الجميع من متعة شخصية لا حد لها ، قد حول الدكتور لويس مرقص بجسده الضخم وطوله الفـارع ونظارتـه الطبية السميكة وصلعته الخفيفة من أستاذ أكاديمى هادىء ومنعزل إلى إنســان آخر تمـاما دائب الحـركة ، واسـع الابتسامـة دائما ، صـاخب التعليقات والقفشات ، منهمكا دائما وكأنه والد العروس فى اللحظات التى تسبق زفاف ابنته !

وكانت ندوات «نادى المسرح» التى ينظمها الدكتور لويس مرقص ظاهرة لا يعتقد الفتى أنها قد تكررت بعد ذلك . . فقد كان جمهور هذه الندوات يعد بالمئات وأحيانا كانت صالة مسرح الحكيم التى تتسع لأكثر من ألف كرسى تمتلىء عن آخرها بالناس الجالسين منهم والوقوف فلا تكاد تجد موقعا لقدم . . أناس مصريون عاديون جاءوا لا ليتفرجوا على مسرحية هزلية أو ليضحكوا على قفشات مرتجلة لممثل فكاهى ، وإنما ليستمعوا إلى كلام شديد الجدية فى النقد الأدبى والمسرحى ويستمرون فى

أماكنهم أحيانا إلى منتصف الليل أو يزيد دون ملل أو كلل . وقد اشترك فى هذه الندوات كل من كان له علاقة تقريبا بالمسرح والفنون أو بالنقد والأدب من كتـاب ونقاد وفنـانـين ومخـرجـين . . وكـان نصيب الفتى الاشتراك فى عدد من هذه الندوات يذكر منها ندوة عن مسرحية عطيل مع الأستاذ حمدى غيث وبعض فنانى العرض الذى قدمه حينئذ المسرح العالمى من اخراج وتمثيل حمدى غيث نفسه أدارها لويس مرقص بنفسه وكانت لحظة رهيبة إذ وجد الفتى نفسه لأول مرة أمام هذا الحشد من الناس وعليه أن يتغلب على خجله ويتكلم ويناقش ويعلق ويجيب على أسئلة الجمهور المهتم ، ولكنه بعد عدة لحظات ومع الحماس الدافق من جانب المنصة والجمهور على السواء نسى نفسه ولم يشعر إلا وهو يضع كل معلوماته الأكاديمية وحبه الجارف لأعمـال شكسبير فى خـدمة المنـاقشة وشعر باستحسان الجميع لما قاله فأحس بسعادة عظيمة وأصبح بعد ذلك يستمتع كثيرا بالاشتراك فى مثل هذه الندوات .

ويذكر الفتى أن إنشاء نادى المسرح تزامن مع خروج بعض أعلام اليساريين من المعتقلات بعد صدور قرار عبد الناصـر بالافـراج عنهم وعودتهم إلى الحياة العامة ــ وإسناد المناصب الهامة إلى بعضهم تنفيذا للعبة القط والفأر التى كان كثيرا ما يمارسها عبد الناصر مع قيادات اليسار المصرى حين كان يعتقلهم فترة قد تطول وقد تقصر يشهدون خلالها شتى

ضروب التعذيب ثم فجأة يفرج عنهم ويغدق عليهم المناصب ، ويعود إلى اعتقالهم مرة أخرى وهكذا حتى انتهى بـه وبهم الحال مـع صدور القرارات الاشتراكية فى أوائل الستينات إلى إقناعهم بحل تنظيمـاتهم السرية والانضواء تحت لواء الاتحاد الاشتراكى . وكانت خطوة جعلت بعض شباب اليسار ــ أو بالأحرى المتشـددين من أعضاء التنـظيمات الشيوعية ــ يتهمون هذه القيادات بالترهل الثورى والاستسلام لعبـد الناصر الذى لم يكن يعد فى نظر هؤلاء سوى قائد عسكرى من أبناء الطبقة البورجوازية !

ويذكر الفتى أنه كان من بين قيادات اليسار المفرج عنهم مع إنشاء نادى المسرح الكاتب والمفكر الكبير محمود أمين العالم (الذى تولى بعد ذلك رئاسة مؤسسة المسرح ثم رئاسة مؤسسة الأخبار) ، وكان جواز مروره الأول الذى وضعه فى مصاف كبار النقاد والمفكـرين هو كتـاب صغير ألفه فى أواخر الخمسينات بالاشتراك مع الدكتـور عبد العـظيم أنيس بعنوان «فى الثقافة المصرية» نشرته مكتبة لطف الله ، أحد كبار قادة التنظيمات اليسارية فى مصر وهو من أصل يهودى ، وكانت تقع ــ على ما يذكر الفتى ــ فى شارع عبد الخالق ثروت فى قلب القاهرة . وقد هلل لهذا الكتاب الصغير عند نشره فى ضجة اعلامية هائلة جميع كتاب اليسار فى مصر واعتبروه «المانفستو» أو «البيان» الرسمى لـلأدب الاشتراكى

الجديد فى مصر . . وإن كان الكتاب ــ لا يعدو حين يقرؤه المرء الآن وبعد مرور كل هذه السنوات ــ سوى ترديد وتطبيق لنظرية الواقعية الاشتراكية فى الأدب ، وهى النظرية التى سادت فى الأدب السوفيتى بعد الثورة الاشتراكية .

ويذكر الفتى أن نادى المسرح أعلن عن استضافة الأستاذ محمود أمين العالم فى احدى ندواته وكان قد خرج من المعتقل منذ فترة وجيزة لا تتعدى الأيام . . وفى الثامنة مساء يوم الندوة كانت صالة مسرح الحكيم قد امتلأت عن آخرها بالجمهور . كما امتلأت الممرات أيضا عن آخرها بالوقوف الذين تزاحموا جميعا لرؤية محمود العالم والاستماع إليه . . وما أن دخل محمود العالم إلى القاعة بصحبة د. لويس مرقص رئيس النادى حتى دوت القاعة بتصفيق رهيب استمر لأكثر من خمس دقائق ، والدموع تكاد تطفر من عينى الرجل بعد أن فوجىء بهذا الاستقبال المذهل الذى استقبله به الشعب المصرى البسيط ، المثقف ثقافة تلقائية نابعة من تجربة حضارية عمرها آلاف السنين ، العميق الوعى بحقائق الأشياء بالرغم من أنهم يسيئون به الظن دائما ويتصورون أنه صامت عن لا مبالاة أو خنوع ، وهم لا يعلمون أنه فى اللحظة المناسبة يعلن عن رأيه بألف طريقة وطريقة . وليلتها شعر الفتى إزاء هذا الاستقبال الذى استقبل به محمود العالم وكأنه بطل أسطورى عائد من رحلة الأهوال أن

هذا الجمهور المحتشد فى صالة المسرح يعلن نيابة عن الأغلبية الصامتة من أبناء الشعب المصرى استنكاره لاعتقال المفكر ــ أو الانسان عموما ــ بسبب آرائه وبلا جريمة ارتكبها سوى أن له رأيا يختلف عن آراء الجالسين على مقاعد السلطة . . وشعر أيضا أن تصفيقهم الحاد لمحمود العالم هو فى الحقيقة تصفيق لمعنى أكبر وأشمل وهو الحرية !

ويذكر الفتى أن تلك الندوة كانت تدور حول مسرحية يوسف ادريس «الفرافير» التى أخرجها كرم مطاوع وأثارت جدلا عنيفا بسبب شكلها المسرحى الجديد الذى دعا إليه يوسف ادريس فى مقالاته الثلاث المشهورة بمجلة «الكاتب» إلى ضرورة استلهام أشكال «المسرحة» الشعبية كالسامر وغيره فى خلق مسرح مصرى صرف يختلف فى بنائه عن الشكل الغربى الذى استوردناه حين دخل هذا الفن إلى بلادنا العربية مع «بخيل» مارون النقاش التى عرضت فى صيدا بلبنان عام ١٨٤٨ ، كما أثار موضوعها أيضا الذى يدور حول العلاقة الأزلية بين السيد والمسود ، (أو الفرفور) ضجة كبرى بسبب خروج هذا الموضوع عما كان مألوفا أيامها من موضوعات واقعية مأخوذة من شرائح الحياة الاجتماعية فى مصر سواء فى المدينة أو الريف . كانت الفرافير مسرحية جديدة تماما سواء من ناحية شكلها الفنى أو موضوعها أو اخراجها التى سخر فيه كرم

مطاوع كل موهبته الصارخة وكل خبرته التى اكتسبها من دراسته لفن الاخراج من ايطاليا . .

ويبدو أن موضوع العلاقة الأزلية بين الأسياد والفرافير أو بين السيد والمسود والذى انتهى يوسف ادريس فى مسرحيته أنها لا يمكن أن تقبل المصالحة إذ سيظل المسود دائما دائرا فى فلك السيد إلى أبد الآبدين أثارت الكثير من التحفظات لدى محمود العالم الذى كان يرى ضرورة انتصار المسود فى النهاية الذى يمثل من وجهة نظره طبقة البروليتاريا أو الطبقة العاملة ، فأعلن فى الندوة أن نص الفرافير ليوسف ادريس هو نص غير ثورى ، وان يوسف ادريس نفسه قد تراجع فى هذه المسرحية عن ثوريته المعهودة . ومن وسط الصالة وقف رجل نحيل جاحظ العينين ممصوص الخدين يرتدى بدلة غامقة ورباط عنق داكن طالبا الكلمة ليعقب على محمود العالم . . ولما كان هذا الرجل معروف بثوريته أيضا فقد صمتت الصالة والمنصة معا للاصغاء إلى كلماته . . وفى عبارات قصيرة حادة كطلقات الرصاص وجه حديثه إلى محمود العالم قائلا إنه ليس من حق أحد كائنا من كان أن يحدد من هو الثورى ومن هو غير الثورى . . كما أن أحدا لم يفوض محمود العالم فى تحديد معنى الثورية . . وأن الفكر لا يجب أن يفرض نفسه على الفكر . . وإنما الصيغة الوحيدة المقبولة لا حراز التقدم هى الحوار . .

وكان هذا الرجل الحاد الملامح الممصوص الخدين . . الجاحظ العينين ذو الكلمات الحادة لطلقات الرصاص هو الكاتب المسرحى ميخائيل رومان !

وراع الفتى أن الكاتب والمفكر الكبير الذى خرج لتوه إلى الحرية واستقبله الناس استقبال الفاتحين وقف فى أول لقاء جماهيرى له مع الناس ليسلب كاتبا آخر حريته فى أن يقول ما يريد أن يقول . .

كانت حياة حافلة سعيدة كأجمل وأروع ما تكون السعادة تلك التى عاشها الفتى فى هذه الأيام بين جنبات مسرح الحكيم يعمل بمجلة المسرح سكرتيرا للتحرير وكاتبا وناقدا ، ويشارك فى ندوات نادى المسرح وتجاربه المسرحية التى كان من أهمها تقديم بعض المسرحيات المصرية باللغة الانجليزية وكذلك فصولا من مسرحيات شكسبير بلغتها الأصلية من إخراج الدكتور عزيز سليمان الذى كان أستاذا للدراما بقسم اللغة الانجليزية ، وغيرها من التجارب المثيرة التى كانت تلقى إقبالا رائعا من الناس . . وعقد صداقات وطيدة مع مجموعة الفنانين الشبان من أعضاء الفرقة المسرحية وكان من أهمهم فى ذلك الوقت عزت العلايلى وحسين الشربينى ومديحة حمدى وبثينة حسن وفاروق نجيب ومحمود العراقى وغيرهم وكانوا يقضون معا اليوم بطوله لا يطيقون للمسرح فراقا ، سواء

كان هناك عمل يقومـون به أم لا . . ويـرسلون عم مصطفى فـراش المسرح الطيب ذا الشوارب الكثة إلى محلات الكشرى والفول والطعمية المجاورة ليحمل إليهم غذاءهم أو عشاءهم وللمدخنين منهم سجائرهم البلمـونت الرخيصة . . يأكلون ويشـربون ويضحكـون ويـدخنـون معا . . . ويحلمون معا . .

وكان من أسعد لحظات عمر الفتى فى تلك الأيام الرائعة يوم أن يذهب إلى توفيق الحكيم . . وقد كان الفتى يتفنن كل مرة فى صيـاغة الأسئلة التى سيوجهها إلى الحكيم ــ الأب الروحى للمجلة والمسرح معا وهو الذى اختار للمجلة شعارها «نحو الأرفع والأنفع فى الفن» ــ وفى كل مرة كان توفيق الحكيم يضرب للفتى موعدا قبل إجراء الحديث حتى يستمع إلى أسئلته قبل أن يتم بالفعل إجراء الحديث فى موعد لاحق . . وعندما يحين موعد اجراء الحديث نفسه يفاجأ الفتى فى كل مرة بتوفيق الحكيم وهو يضحك ضحكته المشهورة التى ينير فيها وجهه كأنه شمس الصباح وقد فتح درج مكتبه وأخرج منه حديثا مكتوبا ومعـدا بعنايـة شديدة بأسئلة وأجوبة مختلفة لا علاقة لها فى أغلب الأحوال بالأسئلة التى أجهد الفتى نفسه فى اعدادها ، و «يأخذ الفتى على خاطـره» لحظة أو لحظات لكنه سرعان ما ينسى خيبة أمله وينـدمج مـع حديث الحكيم

الساحر وضحكاته المجلجلة وقفشاته التى يختلط فيها السخرية البريئة مع عمق النظرة وشمولية الفكرة .

وهكذا كان الحكيم دائما وما يزال يعطى لجالسه الانطباع بأن الأشياء تسير فى سهولة ويسر بلا عناء يذكر لكنه فى حقيقة الأمر لا يترك شيئا للصدفة وإنما يعد لكل شىء عدته وفى تأن ودقه شديدين كأنه مقبل فى كل مره على امتحان عسير .

وفى تلك الفترة أيضا كان عشق الفتى للمسرح يدفعه إلى أن يخوض تلك المغامرة التى يرجف لها قلب أى كاتب وهى مغامرة الكتابة للمسرح . والصعود إلى خشبته مبدعا لا ناقدا أو دارسا . . وإلى جانب مغامرته الأولى التى شابها الكثير من سذاجة «الصبى» الذى يدخل إلى ورشة «المعلم» ليتعلم أصول الصنعة . . وإلى جانب الكثير من التمثيليات الاذاعية التى كتبها فى ذلك الوقت لتشجيع مجموعة من ألمع المخرجين الاذاعيين حينئذ من أمثال مصطفى أبو حطب وأنور عبد العزيز وأحمد زكى وفايز حلاوة . . فقد أسعده الحظ أيضا أن يتدرب على الكتابة للمسرح عن طريقين أدرك فيما بعد مدى أهميتهما وخطورتهما . . وهما الإعداد المسرحى عن روايات عربية . . والترجمة للمسرح عن نصوص عالمية . . لقد كان عشق تلك الخشبة ــ خشبة المسرح ــ فى دمه منذ صباه الأول . . وهكذا كان حبه . . وهكذا كان قدره . .

فى تلك الأيام كان تشيكوف ـ قصاصا ومسرحيا ـ عالما سحريا رحيبا يرتاده الفتى كل مساء فى حجرته الصغيرة بمنزل والده بالجيزة . . من خلال ما يقرأه له من قصص ومسرحيات يبتاعها من مكتبة الشرق الواقعة فى شارع سليمان باشا بقروش زهيدة وكانت مجموعة القصص القصيرة تباع كلها بخمسة قروش . . فى طبعة روسية أنيقة باللغة الانجليزية ، أما المسرحيات فلم يكن لها طبعة روسية وإنما كان الفتى يقرأها فى طبعتها الانجليزية .

وكانت تستهويه مع صديقه العنانى مسرحية «الخال فانيا» بالذات ويضحكان طويلا على شخصية الأستاذ العصبى الذى أمضى العمر يتعب عقله وبصره فى القراءة والبحث واكتشف أن كل هذا كان بلا جدوى . . كما استهوتهم شخصيات خالدة أبدعتها ريشة تشيكوف مثل أستروف وسونيا الشابة تقطر حنانا وتقطر مرارة وتتوق إلى أن تخرج من سجن الضيعة إلى أطيان الأرحب خارجها ، وكثيرا ما كانا يرددان كلمات قالتها سونيا ! عندما لا تكون المرأة جميلة يقال لها «شعرك جميل ، عيناك جميلتان» . . وكثيرا ما كانا يتندران بجملة يقول فيها مخاطبا زوجته «الينا» فى الصباح ابحثى عن باتيشكوف (اسم كتاب) . . أظن أنه عندنا وهو يعانى من وخى النقرسى ويتحدث بمنتهى الضيق والمرارة . .

وكان الفتى وصديقه معجبين أشد الإعجاب بشاعرية تشيكوف فى مسرحه الفريد الذى يبدو متناهى السطحية بلا حبكة أو عقده وإنما مجموعة من المونولوجات تلقيها شخصيات كل يحكى قصته مستغرقا فى أحلامه وكوابيسه ، لكنه تحت هذا السطح الهادىء يرسم ببراعة شديدة دراما الانسان عندما يصاب بالإحباط بسبب الحب غير المتكافىء والآمال المحبطه ومحاولة الخروج من سجن المكان والزمان بلا جدوى . . وعندما يتغير مصير الشخصيات وهم يشربون الشاى أو يجتمعون حول مائدة الطعام . .

وقد تزامن مع انشاء مسرح الحكيم إنشاء مؤسسة مسرحية أخرى عظيمة هى مسرح الجيب ، واختير له مكان فى نادى السيارات بشارع قصر النيل فى وسط القاهرة وأسندت ادارته إلى المخرج المسرحى سعد أردش الذى كان قد عاد من بعثته فى ايطاليا مسلحا بالعلم والمعرفة إلى جانب موهبته الكبيرة . . ولم يكن سعد أردش ، ومعه زميله كرم مطاوع مجرد مخرج مسيطر تماما على أدواته المسرحية ، وإنما هو من طراز المخرجين ذوى الرؤية الفنية الذين يضعون فى النص رؤياهم الفكرية ويفسرونه حسب هذه الرؤية ، وقد أدى هذا الأسلوب الجديد فى الإخراج إلى الكثير من النزاعات بين الكتاب والمخرجين ونادى كرم مطاوع نفسه بنظرية تقولى بأن ابداع المخرج لا يقل عن ابداع

المؤلف . . وأن المخرج هو «مؤلف العرض المسرحى» وكان أشهر تلك النزاعات حين أخذ يوسف ادريس كرسيا وجلس فوق خشبة المسرح القومى ليحول دون رفع الستار عن مسرحية الفرافير احتجاجا على ما فعله بها كرم مطاوع ! .

المهم أن إنشاء مسرح الجيب كان خطوة تاريخية نحو تقديم التجارب المسرحية غير التقليدية سواء فى المسرح العالمى أو المصرى ، ونافذة يطل منها فنانو المسرح وجمهوره على أحدث ما يدور حولنا فى العالم وكان مسرح العبث أو اللا معقول هو الموجة السائدة فى التجارب المسرحية العالمية فى آواخر الخمسينات فقدم مسرح الجيب المصرى لعبة النهاية لبيكيت فى افتتاحه من إخراج سعد أردش كما قدم الكراسى ليونسكو عن اخراج محمد عبد العزيز ، والدرس لنفس المؤلف من إخراج مخرج شاب متألق الموهبة هو سمير العصفورى . . وكما كان توفيق الحكيم سباقا دائما إلى اللحاق بكل ما هو جديد فى عالم المسرح فقد كتب مسرحيته العبثية العظيمة يا طالع الشجرة مستلهما موضوعها من التراث المصرى الأصيل فكانت أول تجربة مسرحية مصرية صحيحة يقدمها مسرح الجيب . .

وكان من المقصود أن يفتتح مسرح الجيب باكورة أعماله بمسرحية تشيكوف «الخال فانيا» وتم تكليف الفتى وصديقه العنانى بترجمتها من

اللغة الانجليزية فى لغة مسرحية سهلة تحافظ على روح الشعر التى تشيع منها وفى مسرح تشيكوف عموما . . وتمت الترجمة فى أقل من أسبوعين على منضدة صغيرة «بالكازينور» أحد الكازينوهات التى كانت تنتشر على نيل الجيزة واندثرت الآن بسبب لا يدريه أحد . . وأعجب سعد أردش بالترجمة وبدأ البروفات فى مقر المسرح الجديد بنادى السيارات . . ويذكر الفتى أن أول تعامل له مع سعد أردش الذى أصبح بعد ذلك صديقا من أصدقاء العمر كان عندما توجه مع محمد عنانى ليشهدا احدى بروفات مسرحية «الخال فانيا» من ترجمتهما معا . . ويذكر جيدا أنه قبل أن يدلفا إلى صالة البروفات تناهى إلى أسماعهما صوت سعد اردش العميق العريض ذو النبرات المحددة وهو يضغط على مخارج الحروف كأنه يصنعها فى فمه حرفا قبل أن ينظمها فى كلمات ، وكان يوجه احدى الممثلات المبتدئات قائلا :

أنا عايز الكلمة تخبط فى الحيطة اللى هناك دى . . وترجعلى تانى .

وعجب الفتى وصديقه كيف يحدث ذلك ، ولكنهما عندما شاهدا سعدا وهو يعلم فنون الأداء لهذه الممثلة الناشئة أدركا أنه ليس مجرد مخرج كبير أو ممتاز ، وإنما هو «معلم» أيضا يجنى من يعمل معه من الفنانين تدريبا يكاد يوازى الانخراط فى سلك الدراسة بمعاهد الفنون .

ولم يقدر «للخال فانيا» أن تكون مسرحية الافتتاح لمسرح الجيب الوليد إذ رئى أنها وهى من روائع المسرح التشيكوفى الواقعى – لا تتناسب مع الوظيفة التى أنشىء مسرح الجيب من أجلها وهى التجريب فتقرر انتقالها إلى المسرح القومى ، وقرر سعد اردش ان يفتتح «الجيب» بمسرحية تجريبية من الطراز الأول هى «لعبة النهاية» لصمويل بيكيت – وهى من النماذج الفذة لمسرح اللا معقول . . الذى كان «موضة» المسرح الفرنسى فى الخمسينات ، وأصبح بعد عرض هذه المسرحية فى مصر موضة المسرح التجريبى المصرى فى الستينات مع أعمال بريخت .

ولا يدرى الفتى سببا لأن يصبح مسرح اللا معقول ، بنماذجه الفرنسية على وجه الخصوص ، موضة فى مصر فى الستينات بالذات ، سوى أنه الجرى وراء التجربة والتجربة لمجرد إثبات الاتصال بكل ما هو جديد فى عالم الغرب دون أن يكون لذلك علاقة حقيقية باللحظة التاريخية التى كان يعيشها المجتمع المصرى حينذاك . فمسرح «العبث» أو «اللا معقول» نشأ من احساس الفرد فى المجتمع الاوربى بإفلاس الحضارة الغربية واستحالة التواصل الانسانى بين البشر كما نشأ عن تلك الحالة من التمزق والاغتراب التى أصابت المجتمعات الأوربية بعد حربين عالميتين طاحنتين ، كما أنه قام ايضا على فكرة عجز اللغة عن

التوصيل واستحالة الواقع على الفهم ، أما المجتمع المصرى فى أوائل الستينـات فقد كـان يحتشـد بحلم قـومى عـظيم وهـائـل يبتلع كـل الاهتمامات الفردية هو حلم الاشتراكية . . وهو حلم يمحو لدى الفرد كل شعور بالإحباط أو العجز عن التواصل مع غيره من الناس . . بل بالعكس . . كان الحلم جماعيا اختفت من خلاله صورة الفرد وأصبح المجموع هو الأهم . . ولذلك ــ فعلى مستوى التعبير المسرحى ــ أنتج هذا الشعور العام فنا مسرحيا واقعيا تصبح فيه الجماعة هى البطل على خشبة المسرح لا الانسان الفرد ــ محبطا كان أم قويا ــ كما أنتج عددا من المسرحيات تكاد تنتهى جميعا بحلم وردى لمستقبل أفضل . . لا لفرد بعينيه . . وإنما لبلد بأسرها . .

ولذلك كان غريبا أن يتم زرع مسرح اللا معقول فى جسم الحركة المسرحية المصرية من خلال الموسم الأول والثانى على الأقل من مواسم مسرح الجيب . . إذ كان ذلك يتناقض تناقضا صارخا مع حركة المجتمع المصرى ذاته فى تلك السنوات . . ولم يكن غريبـا لنفس الأسباب ألا يقبل الجمهور العادى على هذا المسرح ليس فقط لغرابة ما يقدم وغموضه من وجهـة نظرهم وإنمـا لأنه لم يتـوافق مع الحـالة المزاجيـة العـامـة للمجتمع . . أما جمهور المثقفين وخاصة نقاد المسرح . فقد وجدوا فى تقديم تلك الأعمال ضالتهم المنشودة فأشبعوها نقدا ودراسـة وتحليلا

وروجوا لها ترويجا شديدا وذلك من قبيل التظاهر بالعلم بالأمور الثقافية العليا . .

أما بريخت وأعماله التى قدمها سعد اردش نفسه سواء فى المسرح القومى (دائرة الطباشير القوقازية أو فى مسرح الحكيم الانسان الطيب) فقد كانت متوافقة تماما مع حاجة المجتمع المصرى لهذا الشكل الملحمى فى المسرح الذى وان كان جديدا على المسرح المصرى إلا أنه يلبى لدى الناس ذلك الإحساس بالثورة ضد الظلم والوقوف إلى جانب الطبقات الفقيرة المطحونة . . والدعوة العقلانية إلى سيادة قيم العدالة الاجتماعية . . لقد كان بريخت فى تلك الفترة نبيا مسرحيا جاء يعلمنا كيف ندعو إلى الاشتراكية فى فترة كانت هذه الكلمة السحرية هى حلم الملايين من بسطاء هذا الشعب . . ورغم أن بريخت لم يقدم فى مسرح الجيب سوى من خلال مسرحية واحدة قصيرة إلا أنه نجح فى العرض العام بالمسارح الجماهيرية الكبيرة كالقومى والحكيم . . لأنه كان يعبر عن حاجة حقيقية لدى الجماهير العريضة . . ولأنه كان يخاطبهم باللغة التى صاغوا بها احلامهم .

لكن الفتى لم يفهم أبدا كيف يمكن لسعد اردش ــ وهو الذى اختط لنفسه فى أحاديثه وتصريحاته وحتى فى محاضراته خطا فكريا واضحا ــ أن يقبل فى نفس الوقت وبنفس الحماس على تقديم اللا معقول

وبريخيت . . وتساءل بينه وبين نفسه هل فعلا المسألة مسألة مواقف فكرية مبدئية أو هى مجرد سعى وراء الجديد أو «الموضات» . . والإبهار . . وعلى أى حال فقد كان نجاح مسرحيات بريخيت التى قدمها سعد اردش هى أكبر عون له على تدعيم موقفه الفكرى الذى يعلنه فى كل مناسبة ربما رغبة منه فى تأكيد ما سعى ذلك الجيل من المخرجين إلى تأكيد من أن المخرج ليس مجرد منفذ أو حتى مفسر للنص المسرحى وإنما هو مفكر ذو موقف محدد أو رؤ ية سياسية واضحة تنافس أعتى المفكرين الذين اتخذوا من الفكر صناعة لهم وأسلوب حياة .

لم يقدر للخال فانيا ـ كما سبق القول ـ أن تعرض فى مسرح الجيب وتقرر ان تنتقل إلى المسرح القومى ولكن الفتى وصديقه لم يعلما بهذا القرار حتى قرأ خبرا فى الصحف يقول ان المسرح القومى سوف يقدم الخال فانيا لكن الخبر لم يذكر شيئا عن مترجمها أو مترجمتها ومن ترجمها . . وقدرا أن المسرح القومى سوف يقدم ترجمة أخرى غير تلك التى قام بها وقد كانت لهذه المسرحية عدة ترجمات أخرى منشورة فتركا الأمر لله واستعاضا الله عن الجهد الذى قاما به . . ولكنهما من شدة حبهم لذلك النص قررا أن يذهبا ذات ليلة إلى مسرح الجمهورية حيث كانت تجرى البروفات على قدم وساق لمشاهدة البروفة والاستمتاع .

وعلى باب مسرح الجمهورية استقبلها كمال ياسين . . الذى كان قد اخرج من قبل «الناس اللى تحت» لنعمان عاشور . . و«السبنسة» لسعد وهبة ووجد الفتى شابا يشتعل بالحماس وتشوب تصرفاته وحركاته الجسمانية الشىء الكثير من العصبية الناتجة عن شدة الإخلاص لعمله وإيمانه بفنه ، كما لاحظ أن كمال كان يطيح برقبته إلى اليمين فى حركة مفاجئة ويؤكد على مخارج الحروف وخاصة حرف السين كأنه يطحنه بين فكيه طحنا . . وكان كمال ياسين قد شارك فى صنع أمجاد المسرح الحر ، كما أنه عرف بأنه المخرج الذى كان لأسلوبه السهل الممتنع أكبر الأثر فى نجاح بعض المسرحيات الواقعية الكبرى لنعمان عاشور وسعد وهبة ورشاد رشدى ، ولم يكن مؤمنا كغيره بنظرية المخرج المؤلف إنما كان يضع كل فنه وخبرته فى خدمة النص المسرحى ويضمن توصيله بسهولة ويسر إلى قلب وعقل الجماهير .

وكانت مفاجأة سعيدة حقا عندما علما من كمال يس أن الترجمة التى تجرى عليها البروفات هى ترجمتهما . . وكان الخبر الأسعد أن المخرج الروسى لسلى بلاتون (وهو أحد تلاميذ ستا نسلافسكى العظيم) الذى استقدمه المسرح القومى لإخراج الخال فانيا ، وعين معه كمال يس مخرجا مشاركا ، قد أسر لكمال يس أن إيقاعات اللغة التى كتبت بها الترجمة قريبة جدا من إيقاعات اللغة الأصلية التى كتبت بها المسرحية

وهى الروسية وإن الترجمة كلها ، كما أدرك بحسه الفنى وعمق معرفته بتشيكوف ، تنبض بالروح التشيكوفية الأصيلة ! وربما كان عشق الفتى وصديقه الشديد لفن تشيكوف هو الذى أسفر عن هذه النتيجة التى شعر معها هذا المخرج الروسى ــ دون ان تكون له أية دراية باللغة العربية ــ بالروح التشيكوفيه التى تشيع فى الترجمة ، ويقرب إيقاعاتها من لغة تشيكوف الأصلية .

وفى حوالى تلك الفترة أيضا ظهرت فى الأفق المسرحى قنبلة أخرى كان من شأنها أن تقيم حركة مسرحية نابضة وواسعة خلقت العديد من الكتاب والفنانين والممثلين ووسعت قاعدة جمهور المسرح إلى حد مذهل . . وهى مسارح التليفزيون . . وقد نشأت الفكرة فى ذهن الدكتور عبد القادر حاتم وزير الثقافة والاعلام حينئذ . . وأوكل تنفيذها إلى اثنين من أهم أعوانه وهما أمين حماد مدير الاذاعة والفنان الكبير السيد بدير الذى كان ــ إلى جانب أدواره المتعددة فى الحياة . يشغل حينئذ منصب وكيل الوزارة . . ولقد كان للفتى وصديقه العنانى تجربة مثيرة مع مسرح التليفزيون . . إذ استدعاهما ذات يوم السيد بدير إلى مكتبه الواقع فى الدور السابع بعمارة البنك الصناعى فى شارع الجلاء (مكان الثقافة الجماهيرية الآن) وجلسا معه جلسة طويلة شرح لهما فيها الفكرة من مسارح التليفزيون . . والتى نبعت من إيمان صاحبها ومعاونيه

بضرورة تحقيق التكامل المنشود بين الثقافة والإعلام (ساعده على ذلك وجود الجهازين تحت مظلة وزارة واحدة ووزير واحد) فالثقافة يصنعها المثقفون . والتليفزيون هو أهم جهاز منوط به توصيل الثقافة إلى القاعدة العريضة من الجماهير . . وفى نفس الوقت فإن التليفزيون بساعات إرساله الطويلة فى حاجة دائما إلى مادة . . وليس أفضل من المسرح «كمادة» ثقافية راقية تسد فراغا فى ساعات إرسال التليفزيون وترتقى فى نفس الوقت بعقل ووجدان الناس من خلال ما تقدم منه من مسرحيات راقية . .

ومن ثم تم تحت اشراف السيد بدير إنشاء عدد كبير من مسارح التليفزيون أعطيت فيها الفرصة لعدد هائل من شباب الممثلين من خريجى معهد الفنون المسرحية وغيره أن يمارسوا إبداعاتهم ، كما أعطيت الفرصة لكل من لديه القدرة أن يقف وراء خشبة المسرح مخرجا ، أو مصمما للديكور ، لكن بقيت هناك ــ مع هذا الكم الكبير من الفرق المسرحية ــ مشكلة العثور على النصوص المسرحية التى تلبى حاجة هذه الفرق وبرامجها السريعة الطموحة . . إذ كان من المخطط لها - تحقيقا لهدفها الأساسى وهو تغذية التليفزيون بالسهرات المسرحية التى تعرض على شاشته - ان تقدم كل منها مسرحية لمدة أسبوع أو أسبوعين ثم يتم تصويرها وتعرض فى التليفزيون ثم تقدم مسرحية غيرها وهكذا ــ فمن

أين تأتى هذه المسازح وكل هذه النصوص ؟ .

ومن هنا نشأت فكرة الإعداد المسرحى عن الروايات الأدبية الكبرى لتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ ومحمد عبد الحليم عبد الله وعبد الحميد جوده السحار ويوسف السباعى واحسان عبد القدوس وأمين يوسف غراب ومحمود البدوى ويحى حقى وغيرهم وغيرهم من عمالقة الرواية العربية . . وتصادف أن ظهرت مع هذا الاتجاه عدة مواهب أدبية تألقت فى فن تحويل الروايات الأدبية إلى عروض مسرحية متكاملة — وكان من أهم تلك المواهب السيدة أمينه الصاوى التى استطاعت أن تعيد خلق عالم نجيب محفوظ على المسرح — فى المسرح الحر — بطريقة حافظت على الروح الشعبية الأصيلة لروايات نجيب محفوظ كما ساهمت فى نفس الوقت فى تعريف الجماهير العريضة بالقيمة الحقيقية لأعمال هذا الكاتب الكبير . .

ولقد كان قدر الفتى وصديقه العنانى أن يكتبا العمل الأول الذى بدأت به هذه الحركة المسرحية الزاخرة . . والتى ملأت ليالى القاهرة فنا ومسرحا . . كما اتخذت من التليفزيون نفسه وسيلة لإشاعة الثقافة الرفيعة . . ذلك أن السيد بدير حين استدعاهما إلى مكتبه قام بعد شرح أهداف مسرح التليفزيون بتكليفها بإعداد رواية محمد عبد الحليم عبد

الله المسماه «من أجل ولدى» للمسرح . . وطلب منها الأتصال بالاستاذ عبد الحليم عبد الله نفسه والتنسيق معه حتى تخرج المسرحية ــ أو الإعداد ــ أقرب ما تكون إلى روح الرواية الأصلية . . وبالفعل اتجه الفتى وصديقه ومعهما نسخة من الرواية المنشورة فى مكتبة مصر لصاحبها عبد الحميد جوده السحار إلى مكانهما المفضل وهو كازينو «الكازينور» الواقع على نيل الجيزة . . وشرعا فى الكتابة بسرعة محمومة حتى انتهيا من كتابة هذا الإعداد المسرحى فى أقل من اسبوع بعد أن كانا قد خططا لبنائه الدرامى فى عدد من التمشيات الطويلة عبر حوارى الجيزة إلى ميدان سوق الأحد ثم إلى تلك البقعة الكالحة من الحقول على النيل التى كان يطلقان عليها اسم الطبيعة أو «النيتشر» تيمنا بالطبيعة الغناء التى كتب عنها شاعرهما الانجليزى المفضل وردزورث فى أواسط انجلترا !!

وحملا الإعداد إلى الأستاذ عبد الحليم عبد الله فى منزله بمنيل الروضة ، وأعجب الروائى الكبير أشد الإعجاب بما صنعه الفتى وصديقه بروايته الأصلية وشد على أيديهما مهنئا . . وأعلن للسيد بدير تليفونيا عن موافقته الشديدة على هذا النص المسرحى المأخوذ عن روايته المعروفة . . وعندئذ فقط سمح السيد بدير بكتابة عقد إعداد لهما تقاضيا عنه مائتى جنيه تقاسماها . وكان هذا أكبر مبلغ من المال يراه الفتى فى

تلك الأيام ! وبعد أقل من شهر ظهرت المسرحية على المسرح من إخراج نور الدمرداش وكانت باكورة إنتاج مسارح التليفزيون من تمثيل فتى كان مغمورا حينئذ وأصبح فيما بعد من المشهورين هو حسين الشربينى ومعه ممثلة راسخة هى علوية جميل .

ويذكر الفتى أنه بعد نجاح هذه المسرحية ضرب لهما صلاح منصور موعدا فى كازينو صان صوصى بالجيزة ليتحدوا فى عمل آخر . . وفى الموعد قابلا صلاح منصور ــ الذى كان ممثلا كبيرا ومخرجا أحيانا ــ وأعلن لهما أن حلم حياته هو أن يقوم بإخراج مسرحية عن رواية لمحمد التابعى اسمها «عندما نحب» وحكى لهما ــ بحماس شديد ــ عن قصة هذه الرواية التى تتناول حكاية بطل رياضى فى العدو فارع الجسم متضخم الأعضاء ملك كل شىء . . جمال الجسم وجمال الروح . . لكنه يصاب بمرض فى القلب . . ويصر على دخول مسابقة كبرى فى العدو متحديا كل شىء ولكنه فى نهاية الشوط يموت . .

ولقد شعر الفتى وصديقه أن الرواية ليس فيها من الفكر ما يمكن أن يشكل نواة لعمل مسرحى هام أو حتى ذى قيمة . . لكن صلاح منصور أخبرهما أنه اتفق مع السيد بدير على إعداد هذه الرواية وعلى اختيارهما للقيام بهذا الإعداد الجديد بعد نجاحهما فى إعداد رواية «من أجل ولدى» لمحمد عبد الحليم عبد الله ، وأن كل ما يرجوه ان يشعر المتفرج عند

مشاهدة المسرحية ــ بعد إعدادها عن الرواية ــ أن هذا البطل هو من القوة والفحولة الجنسية ما يجعل الناس تبكى بكاء مرا عندما يكتشفون أنه كان طول الوقت مريضا بالقلب دون أن يدرى أحد . . وبذلك يكون موته فى السباق الأخير فاجعة تنفطر لها القلوب !

ووعد الفتى وصديقه صلاح منصور خيرا . . وقرأ الرواية القصيرة التى كانت منشورة فى سلسلة إقرأ ولم يجدا فيها الكثير من الفن الروائى على عكس رواية عبد الحليم عبد الله التى كانت مكتوبة بأستاذية الروائى الكبير المتخصص فى هذا الفن . . كما لم يجدا فى رواية التابعى غير خيط قصصى رفيع استقاه المؤلف ــ على ما يبدو ــ من قصة حقيقية لشاب رياضى من نادى الجزيرة . . فأخذا ينسجان حول هذا الخيط القصصى الرفيع أحداثا وشخصيات جديدة يمكن أن تثرى الحدث الدرامى ، وتعطيه أبعادا اجتماعية وسياسية فلا تصبح العملية مجرد حكاية شاب رياضى قوى المظهر مريض بالقلب يموت فى لحظة ميلودرامية ما وإنما تعكس مشكلة مجتمع بأسره لا مجرد فرد واحد .

وقررا ان يذهبا للقاء محمد التابعى ومناقشته فى أمر هذه الخطوط الجديدة التى أضافاها إلى القصة حتى يمكن تحويلها إلى مسرحية جيدة . . وضرب لهما الأستاذ التابعى موعدا فى الرابعة بعد ظهر أحد

الأيام بشقته الفاخرة فى عمارة ليبون على نيل الزمالك . . وفى الموعد تماما ذهبا ليفتح لهما الباب خادم نوبى كامل الزى بالطربوش والحزام القصب والقفطان الأحمر تماما مثلما كان الفتى يشاهدهم فى بيوت الباشاوات بالأفلام السينمائية ، لكنه لم يصادفهم أبدا فى حياته الواقعية . وشعر برهبة شديدة إذ قادهما ذلك الخادم إلى صالون ضخم ظلا يسيران إلى نهايته ما تصور الفتى أنه دهر طويل لن ينتهى فكان طول البهو نفسه وفخامة ما فيه من أثاث وتحف على الجانبين سببا لالقاء الخشية بل والرعب فى قلب الفتى وصديقه . . وبعد أن تصورا أنهما سارا مسافة ساعة حتى وصلا إلى الكنبة الواقعة فى آخر البهو أو الصالون أشار لهما الخادم النوبى بالجلوس وانصرف وتركهما فى حيرة ووجل لمدة زادت عن النصف ساعة ، ثم عاد وفى يده صينية عليها كاسان فاخران من الكريستال ممتلئان بسائل أصفر يميل إلى الحمرة قليلا وخشى الفتى أن يمد يده إلى هذا الكأس الغريب لكن العنانى أسرع بالشرب كعادته دائما فى الاحتفال بكل ما يؤكل أو يشرب دون مراعاة للظروف المحيطة . . واكتشف أنه عصير البرتقال الطازج كما نبه الفتى أيضا أنه نوع فاخر من البرتقال بدمه ! .

وبعد انتظار دام أكثر من ساعة ظهر الاستاذ التابعى من آخر البهو . تماما مثل الباشاوات فى الأفلام السينمائية ــ يرتدى روب دى

شامبر قصيرا فوق البنطلون والقميص والكرافتة الفاخرة . . وهبا واقفين ، وقد شعرا باللحظة التاريخية فها هما الآن فى حضرة الاستاذ التابعى . . التاريخ والتألق والمجد . . الرجل الذى أسقط بقلمه الوزارات وصادق الملوك والملكات وكان أستاذا لمعظم صحفيى العصر الكبار . . وسلم عليهما الاستاذ التابعى بشىء من اللا مبالاة وكأنه فوجىء بصغر سنهما ، وأشار إليهما بالجلوس دون ان يفتر ثغره عن ابتسامة أو يشعرهما بما يمكن أن يذيب المسافة الرهيبة التى حرص على خلقها بينه وبين الشابين اللذين أتيا لمناقشته فى روايته . . وران صمت عميق قبل أن يبدأ الفتى فى شرح ما أراد هو وصديقه أن يضيفه على القصة الأصلية من إضافات فى الإعداد المسرحى . . وتبارى هو وصديقه فى الشرح فى كلمات سريعة مضطربه لا هثة ويسهبان دون أن يشعرا بأى رد فعل من جانب الأستاذ التابعى أو يظفرا بأى تعليق منه على ما يقولان . . وبعد نصف ساعة من الكلام المتواصل شعرا بالإرهاق والإحراج معا فكفا عن الكلام . . وران صمت عميق آخر قبل ان يسأل الفتى الاستاذ التابعى رأيه فيما سمعه فإذا به يفاجأ به قائلا وكانت هذه أول مرة يفتح فيها فمه منذ أن بدأت الجلسة :

ـ يا ابنى أنا بكتب الرواية زى ما بلعب طاولة . . ما يهمنيش تعملوا فيها اللى انتم عاوزينه .

وكان هذا إيذانا بانتهاء المقابلة ، فنهض الفتى وصديقه وسلما شاكرين وانصرفا مودعين من الخادم النوبى بمثل ما استقبلهما به من صرامة وجهامة .

- كانت مفاجأة حقيقية للفتى وصديقه أن يقول الكاتب الكبير أن كتابة الرواية بالنسبة له هى أشبه بلعب الطاولة وهما اللذان كان يحترمان أشد الاحترام الجهد الذى يبذله الفنان لخلق عمل فنى . . ولا يتصوران أن يعامل كاتب كبير عملية الكتابة الفنية بمثل هذه الاستهانة والاستخفاف !! ولكنهما أدركا بعد ذلك أن الأمر لم يكن استخفافا من الأستاذ التابعى؟ انما كان يعتبر كتابة الرواية هى عملية ترويح عن نفسه بعد عناء الكتابة فى السياسة وأمورها المعقدة .

وعلى أى حال فلم يقدر لهذه المسرحية المعدة عن رواية الاستاذ التابعى عندما نجب ان تظهر على المسرح لأسباب عديدة منها أن الإعداد لم يعجب مخرجها صلاح منصور فاعتذر عن إخراج المسرحية بعد أن كان الفتى وصديقه قد قبض كل منهما عربونا قدره خمسون جنيها .

انقضى عام ٦٤ فى عمل متواصل بالمجلة والمسرح والجامعة جميعا ، وبدأ الفتى يفكر جديا فى طريقه الجامعى حيث عليه أن يحصل على الشهادات العليا التى تؤهله لأن يصبح استاذا بالجامعة . . واستطاع فى

أوائل عام ١٩٦٥ أن يحصل على اجازة دراسية لدراسة الدكتوراه فى انجلترا أو أمريكا . . واختار هو أمريكا لا يدرى لماذا بينما اختار صديقه العنانى انجلترا شغفا بشاعرها وردزورث وولها بأشعاره . . لكن الفرحة لم يقدر لها ان تتم ـ إذ فوجىء هو وزملاؤه بعد تردد طويل على مكتب على صبرى رئيس الوزراء حينئذ مئات المرات حتى يحصلوا على الموافقة النهائية بالسفر ، وكان لابد فى ذلك الوقت من موافقة رئيس الوزراء شخصيا على سفر المواطنين ـ فوجىء الجميع بأنه لابد من دفع مبلغ ألف جنيه بصفة تأمين حتى يستطيعوا الحصول على هذه الموافقة .

وأسقط فى يد الفتى وصديقه العنانى فمن أين يأتيان بهذا المبلغ المهول فى ذلك الوقت . . أما صديقهما الثالث عبد العزيز حمودة الذى كان من أسرة تملك بعض الأفدنة فى الريف فقد سارع إلى طلب النجدة من أخيه الذى كان على شىء من يسر الحال وسدد مبلغ التأمين المطلوب وسافر . . وكانوا جميعا فى وداعه فى ليلة مشهورة أحس بالفرحة لأن واحدا منهم قد استطاع ان «يفلت» من قبضة تلك القيود التى وضعت أمامهم جميعا ، وفكر فى نفس الوقت ان يترك تماما حلمه بالعمل استاذا بالجامعة ليتحول إلى العمل بالصحافة أو بالنقد الأدبى فى الصحف السيارة ، أو حتى يكسب عيشه من الترجمة التى كان يجيدها ، أما العنانى

فقد أخذ هذه الصدمة بطريقته الساخرة المعهودة إذ أنشأ قصيدة فكاهية معزيا فيها الفتى يقول فيها :

سرحان يارب الدرامة والمقالات العجيبة . .

فى كل ما تمليه يا ويلاه أغراض مريبة

ولسوف ترحل للولايات التى

بهرت أخاك ابن العزيز

وربما نلت الحبيبة !!

وهى قصيدة تحتوى على بعض الاشارات التى طالما ضحك عليها الصديقان طويلا والتى يحسن شرحها هنا . . فالإشارة فى البيت الأول هى إلى ما كان الفتى يكتبه بغزارة يحسد عليها من مقالات سواء فى مجلة المسرح أو غيرها من المجلات الأدبية . . وهى فى نظر العنانى مقالات تبعث على الريبة ! أما الإشارة بعد ذلك فهى إلى سبق صديقهما عبد العزيز حمودة إلى السفر إلى الولايات المتحدة التى ظل مبهورا بها سنوات أثناء دراسته للماجستير عن أدب كاتبها المسرحى الأشهر تنسى وليامز وصورة الجنوب الأمريكى فى أعماله . . مؤكدا فى نفس الوقت أنه بالرغم من العقبات المادية واستحالة دفع مبلغ التأمين المهول فسوف يرحل لا محالة إلى تلك الولايات . لكنه فى البيت الأخير يعود فيشكك الفتى فى نتائج تلك الرحلة فيحذره من أن السفر لا يعنى ان يحصل تلقائيا

على الحبيبة (أو الدكتوراة) وإنما المسألة أنه إذا سافر «فربما» يحصل على تلك الحبيبة . . وهذا يعنى بطبيعة الحال أنه ربما أيضا لا يحصل عليها !!

وزاد من حسرة الفتى وصديقه أنه كان لهما زميل بالقسم اسمه أحمد كمال . . وكان فقيرا فقرا مدقعا مثلهما لكنه ــ إلى جانب عمله بقسم اللغة الانجليزية ــ يعمل بالإذاعة مترجما بمرتب قدره سبعة عشر جنيها ، ويعمل بعدة أماكن أخرى مستخدما درايته باللغة الانجليزية ، وكان بخيلا بخلا شديدا . . وله فى ذلك فلسفة خاصة تتلخص ببساطة فى سؤال واحد هو : ما ضرورة دفع مبلغ ــ أى مبلغ ــ لا ضرورة لدفعه . . فما ضرورة أن يدفع المرء مثلا قرشا ثمنا لتذكرة الاوتوبيس حتى ينتقل من مكان لآخر بينما خلق الله له قدمين يمشى عليهما وينتقل !

وما ضرورة أن يأكل الانسان ثلاث مرات فى اليوم إذا كان يستطيع أن يظل على قيد الحياة بأكلة واحدة فقط فى اليوم . . وما لزوم المأكولات الدسمة إذا كان الأكل هو عملية ملء للبطن والانسان يستطيع أن يملأ بطنه بأى شىء حتى ولو كان عدة أرغفة من الخبز وقليلا جدا من الجبن . . وهكذا استطاع أحمد كمال ان يوفر من مرتبه وما يكسبه من أعماله الإضافية فى عامين فقط ألف جنيه بالتمام والكمال دفعها تأمينا لسفره فى اجازته الدراسية إلى أمريكا . . واختار فرعا من الدراسة ــ

كان حديثنا فى ذلك الوقت يعتمد على الحسابات العقلية المحضـه وهو اللغويات ! .

سافر عبد العزيز حموده وسافر أحمد كمال أما الفتى وصديقه العنانى فقد مكثا فى القاهرة كبنتين لا يطلبهما أحد للزواج . . وأغرقا أحزانهما فى جلسات الكازينور على نيل الجيزة وفى المشى الطويل على شاطىء النيل بعد ميدان سوق الأحد من جهة ساقية مكى التى أسمياها «بالطبيعة» حتى قرأ ذات صباح فى أهرام الجمعة خبرا صغيرا جدا مفاده أن الحكومة قررت إلغاء مبلغ التأمين المفروض على أعضاء الأجازات الدراسية ، المسافرين للحصول على درجاتهم العلمية فى الخارج . . ولم يلاحظ الفتى وصديقه أن المقال الرئيسى فى الجريدة - لمحمد حسنين هيكل - كان عن ضبط على صبرى بعدد مهول من الحقائب والبضائع التى جلبها معه من الاتحاد السوفيتى دون أن يدفع عنها الرسوم الجمركية المقررة ! .

عندما رأيته لآخر مرة !

عندما رأيته لآخر مرة !

كانت ليلة قارصة البرد من ليالى شتاء القاهرة فى أوائل الستينات . . لم تكن القنابل الذرية والتفجيرات النووية قد غيرت بعد من طقس العالم . . فقد كان الشتاء مازال شتاء والصيف صيفا . . ولم تكن الأمور قد اختلطت بعد كما يحدث الآن فى عالمنا المعاصر . كان العالم أكثر هدوءا وسلاما وبراءة . . لا تمزقه الحروب الصغيرة . . ولا يعيث فيه تجار السلاح فسادا يبيعون للأخ ما يقتل به أخاه . . ويفرقون بين أبناء الأسرة الواحدة وراء متاريس من الكراهية والتعصب الأعمى والطائفية . . لم يكن العالم حينئذ متربصا لبعضه البعض . . يكدس هذا المعسكر فى خزائنه من آلات الدمار الجهنمية ما يكفى لإخماد أنفاس

البشرية كلها فى دقائق فيكدس الآخر من نفس الآلات ما يخمد أنفاس العالم فى أقل من ثوان . . لم تكن البشرية قد مزقها بعد سباق التسلح النووى والحروب والبطالة وأغرقتها التكنولوجيا المعاصرة بلعب الأطفال السحرية كالتليفزيون والأقمار الصناعية ، ومركبات الفضاء ، والدمى الألكترونية ، وسجن الانسان داخل حسابات الكمبيوتر دون أن يترك له الفرصة حتى للاستمتاع بالخطأ البشرى ، وشراء ــ أو بالأحرى نهب ــ الدول العملاقة لثروات الدول النامية بثمن بخس ثم استعادة ما دفعوه فى صورة سلع استهلاكية صغيرة امتصت اهتمام شعوب تلك الدول الصغيرة تماما وزادتها جشعا لاقتناء الأشياء وتكديسها دونما سبب أو حاجة حقيقية ، وتلك الضوضاء الهائلة التى تصم آذان العالم فلا يكاد الانسان يسمع نفسه من ضجيج السيارات والقطارات والطائرات ورسائل الأقمار الصناعية ودوى القنابل الشريفة تحافظ على المبادىء والقنابل الداعرة تدمر المبادىء . . ورصاص الأخ يستقر فى صدر أخيه . . والأم تقتل أطفالها عندما جن جنون الانسان من أجل لا فكرة ولا قيمة ولا شىء . .

كان العالم فى تلك الليلة الشتائية القارسة البرد فى قاهرة أوائل الستينات مازال بريئا . . نظيفا . . شريفا . . وكان الهواء نقيا مفعما بغير قليل من الود . . تطل من نسماته الباردة لفحات حنون من التواصل

الانسانى . . واستقرار القيم . . ولم تكن الأشياء قد اختلطت بعد . . فالأبيض كان ما يزال أبيض والأسود أسود . . والخير مازال خيرا . . والشر شرا . .

ليلتها كان الفتى يشعر بصفاء غريب . . وشعور يدغدغ حواسه ويتسلل إلى قلبه بأن أحلامه قد تحققت فقد جاءه فى صباح نفس اليوم خبر حصوله على بعثة لدراسة الأدب الانجليزى فى احدى الجامعات الأمريكية والعودة ــ بعد سنوات قد تطول أو تقصر ــ بشهادة الدكتوراه . . وخالجه أيضا شعور بالوحشة والاغتراب إذ كان عليه أن يخطو إلى المجهول فيترك أرضه وأهله . . والأحباب . . ويقفز إلى أرض أخرى تعيش عصرا آخر . . بمقدار المسافة الحضارية الحديثة بين وطنه الطيب المسالم الغارق فى براءة الشرق . . وأمريكا التى كانت قد بدأت قفزتها فى تلك السنوات نحو جنون العصر الالكترونى . . وكان كيندى منذ شهور ــ كما سمع الفتى من الاذاعة ــ قد أعلن بدء البرنامج الطموح لغزو الفضاء . . وجابت أول سفن الفضاء تحمل انسانا ــ سمّوه رائدا ــ فضاء اللا نهاية لتعلن بداية عصر من الانجاز العلمى الساحق . . عصر لا ندرى هل يؤدى بالبشرية إلى ذرى المجد أم إلى الجنون . .

كان هواء القاهرة البارد فى تلك الليلة الشتائية مازال بريشا

صافيا . . كالانسان . . خاليا من اشعاعات الاقمار الصناعية وأصوات طلقات الرصاص . . والتفجير النـووى المكتوم فى بـاطن الأرض . . وجنون القتل والتخريب . . وصرخات الأم الملتاعة عندما يصوب فلذة كبدها نحو صدرها الحنون طلقات الرصاص فتجحظ عيون البشـرية ليس دهشة أو فزعا مما يحدث وإنما كما تجحظ عينا المجنون عندما يرى كل شىء من حوله مختلا مهتزا ممزقا فلا يملك إلا حشرجة وحشية كحشرجة الحيوان الشرس النهم إلى مزيد من لون الدم . .

كانت القاهرة فى تلك الليلة الباردة صافية السماء . . صافية القلب نقية السريرة . . وكانت كل الأشياء فى موضعها . . وصوت المؤذن من بعيد فى ظلال طريق الجامعة يرن فى أذن الفتى أن حى على الصلاة . . فأسرع بخطاه . . وترك نعليه عند البـاب . . وتوضـأ مع الخـاشعين وانتظم فى صفوف المصلين . . وصلى لله شكرا أن منحه تلك الفرصة ليحقق أحلامه ويكمل تعليمه . . وضرع إلى الله أن يدخـل إلى قلبه السكينة فلا يشعر بالوحشة لأنه مضطر لأن يترك أباه وأمه لبضع سنين لا يدرى هل تطول أم تقصر . .

وعندما خرج من المسجد كان قلبه الصغير الواجف يهفو لملاقاة أبيه الـذى أقعده مـرض القلب فى المنزل وهـو مـازال فى ريعـان الثـانيـة

والخمسين . . كان أبوه . . والذى لا يكاد يدرى من اسمه غير كلمة «الحاج» يناديه بها كل من يلقاه من الأهل والجيران . . رمـزا للصفاء والبراءة عندما يكتملان فى انسان . . انسان فقير عاش حياته راضيـا يكدح من أجل لقمة عيش أسرته ذات الأطفال الخمسة . . لكنه أبدا لم يشك شظف العيش ولم يحمل فى قلبه يوما ذرة حقد . . ولم يكن قلبه يعرف الكراهية . . طاقة مشعة من الحب والصفاء الانسانى . . والرضا بما قسم الله . . والبسمة القانعة دائما على الشفاه . . وكان الفتى يألف دائما حتى بعد أن وطئت قدمه أرض الشباب الأول أن يدلف إلى حضن أبيه فى ليل الشتاء . . فيشعر بكل دفء العالم يحتويه . . وكأن خيوطا خفية من الحنان الجارف تربط بين جسديهما فينام مستقرا آمنا . . وكان الفتى يخشى عندما يسافر بعثته أن يفقد كل هذا البحر الجارف من الحنان والأمان .

شعر الفتى وهويذرع ظلام الطريق أنه الآن ــ وليس بعد ساعـة واحـدة ــ الآن الآن يريـد أن يـدلف إلى سـريـر أبيـه . . يختبىء فى حضنه . . يوصل ما بينهما من خيوط الحنان الخفية . . يشعر بأمان الدنيا قبل أن يبدأ رحلته الطويلة عبر قارات وبحار العالم إلى المجهـول . . أسرع فى خطاه متجها إلى بيته فى الجيزة مشوقا إلى لقاء أبيه شوقاً يفوق أعظم أشواق المحبين عندما يرومون اللقاء . . مر فى طريقه بحارس نوبى

أسمر يجلس على «دكة» أمام عمارته وفى يده راديو صغير يعمل بالبطارية . . كانت التكنولوجيا قد بدأت تتسلل إلى قلب ذلك العالم البرىء وكان الترانزستور يحمل بشائرها فى يد ذلك الحارس النوبى البسيط . .

استرعى انتباه الفتى صوت الراديو البالغ الارتفاع وهو ينطق باللحن المميز لنشرة الأخبار وخطر له بدافع الفضول أن يتوقف قليلا ليسمع الخبر الأول فربما تكون هناك أخبار وجاء صوت المذيع : مزقت رصاصة مجنونة مخ الرئيس الأمريكى جون كينيدى وأردته قتيلا وسط آلاف الأيدى التى كانت تصفق له وآلاف الحناجر التى كانت تهتف بحبه وهو يجلس بجوار زوجته الجميلة فى سيارة فارهة مكشوفة تجوب شوارع تكساس وهو يلوح للجموع التى أُحبته مزهوا . . منتصرا . . تناثر مخ الرجل على أسفلت الطريق . . انتاب الفتى رعب قاتل جعله يحث الخطى نحو منزله ليلقى أباه . . فقد شعر أن العالم قد بدأ يخطو نحو الجنون . . وأن صدر أبيه «الحاج» هو الليلة المرفأ والأمان . . اسرعت خطاه حتى تحولت إلى عدو لاهث . . واقتربت خطاه من البيت . . ليسمع أصواتا تنشج فى صمت مهيب يحمل إليه كل حزن العالم . . لقد فاجأت الأزمة القلبية أباه ومات !

وفتح ذراعيه للمجهول

وفتح ذراعيه للمجهول

ركب الفتى الطائرة لأول مرة فى حياته متجها إلى المجهول . . كانت فرحته الغامرة بهذه الرحلة الأولى فى حياته لا يشوبها سوى حزن هادىء دفين يعتصر أعماق القلب لوفاة والده الذى ودعه فجأة منذ أيام ليذهب فى رحلة الأبدية . . وشعر ــ وهو يقف أمام موظف الجوازات وبيده أول جواز سفر فى حياته بمعنى « الرحلة » فى حياة الانسان . . فها هى رحلة قد انتهت . . رحلة أبيه بكل ما فيها من لحظات فرح غامر وألم عميق ومعاناة وآمال وأحلام . . وها هى رحلته هو تبدأ . . إلى أين . . لم يكن يدرى . . فرغم أنه كان يعلم إلى أين تسير به الرحلة فى المكان . . إذ ستقله الطائرة أولا إلى لندن فى انجلترا ثم يستريح ليواصل

الطيران إلى واشنطن بأمريكا . . لكنه أبدا لم يستطع أن يتخيل إلى أين تمضى به الرحلة فى مستقبل أيامه . . وهل يعـود إلى وطنه بعـد سفر السنين غانما مثل البطل الاغريقى « جيسون » يحمل الفروة الذهبية بعد أن صارع من أجلها التنين وخاض الأهوال . . أم يعود مهزوما مقهورا مكسور الخاطر والوجدان . .

وأمام موظف الجوازات مد الفتى له يده المرتعشة خـوفا من بـدء الرحلة المجهولة رغم الأمل الذى يفعم صدره ويملأ رئتيه برنات الفرح بما هوآت . . وعندما دق موظف الجوازات المرهق بختمه الحكومى دون أدنى مبالاة على أوراق الجواز لم يدر بخلده أنه كان يضع حدا فاصلا فى حياة الفتى بين عمر مضى وعمر آت . . وكان لرنين دقة الختم على جواز السفر وقع غريب فى أذنى الفتى كوقع دقات المسرح حين تعلن رفع الستار على مسرحية حافلة بشخوص جديـدة ومواقف وأحـداث وعالم زاخـر بالدهشة . . ثم خطر له وهو يخطو نحو صالة الترانزيت تمهيدا لركوب الطائرة أن الرحلة ــ أو المسرحية ــ كما تبدأ فهى أيضا تنتهى . . وهى فى كل الأحوال رحلة من المجهول إلى المجهول . . وتذكر أباه الذى كان قد ودعه منذ أيام . . واعتصر الحزن قلبه إذ أدرك فجأة أنه أبدا لن يراه مرة أخرى حين يعود . . وجال بخاطره أن والده لابد موجود الآن فى مكان ما من الرحاب الأعظم . . وانه وان أصبح جسدا فى التراب ، إلا أن



الفناء أبدا لم يدركه بل تحول إلى جزء من هذا الكون الأعظم يسبح مع البحار والأفكار والأفلاك . . وترددت فى مسامعه أبيات من « العاصفة » لشكسبير ينعى فيها أحد أبطال المسرحية أباه حين ابتلعته أمواج البحر . . قال :

« على عمق فراسخ خمسة يرقد أبوك . .
من عظامه تكونت شعاب المرجان
من عينيه تشكلت لؤلؤتان . .
لا شىء فيه قد أدركه الفناء
وإنما أدركه فى البحر التحول
إلى شىء رائع الجمال
مدهش البهاء
من حوله حوريات البحر تصدح
إنى أسمع موسيقاهن الآن
حوله
فى كل مكان » .

وتذكر أيضا رثاء وردزورث لابنته لوسى حين قال :

ختم النعاس على روحى وغيبها
ومحا مخاوف البشر

فبدت لعينى فتاة ليس تلمسها
يد السنين والقدر
فالآن قد سكنت والقوة اندثرت
ومضى زمان السمع والبصر
وغدت تدور ببطن الأرض دورتها
كالصخر والأحجار والشجر .

أدارت الطائرة محركاتها . . وفتح الفتى ذراعيه وهتفت أعماقه أهلا بالمجهول . . ولأول مرة فى حياته يرى الفتى مشهـدا مهيبا اهتـزت له أعماقه ورجف قلبه أمام قدرة الله حين نـظر من نافـذة الطائـرة فرأى السحاب تحته بساطا أبيض ناصع البياض كالقطن المندوف . . بحر من الصفاء والطهر لا بداية له ولا نهاية .

وشعر بأنه فى الأرض وحدها نحمل على أكتافنا الآثام . . وتزيد حدة شعورنا ببدايات الأشياء ونهاياتها حـين تلطخ قلوبنا شـرور هذا العالم . . أما هنا بين الأرض والسماء على بساط أبيض من البراءة المطلقة والطهر المطلق فقد بدا أنه لا بداية لأى شىء ولا نهاية . . وأن كل شىء موجود منذ الأزل وسائر إلى الأزل . . وانتابت الفتى والطائرة تبدو واقفة فوق ذلك البساط الأبيض الطاهر من أثير مندوف طمأنينة غريبة . . كأنه قد لمح بقلبه سدرة المنتهى .

وكان في المطار شخص آخر!

وكان فى المطار شخص آخر !

وطئت قدما الفتى لأول مرة أرض أوروبا حين هبطت به الطائرة فى صباح خريفى ملبد بالغيوم . لاحظ عند هبوط الطائرة عبر السحاب وهو ينظر من النافذة الصغيرة مبهورا أن أمطارا غزيرة تهطل على أرض المطار ، وقال فى نفسه : مرحى مرحى ، فالبرد والأمطار ولون الهواء الرمادى الغائم هو دليل الانتقال إلى تلك الحضارة التى طالما سمع بها ، وقرأ عنها ، وحفظ أشعارها وسمع موسيقاها .

فى صالة استقبال المطار وجد صديقه القديم محمد عنانى ، وكان قد سبقه بشهور إلى السفر لانجلترا ليبدأ هو الآخر بعثته لدراسة الأدب

الانجليزى . . وفرح لمرآه فرحا شديدا . . فقد كان يأمل أن يقابله هذا الصديق فى المطار فيزيل عنه كل احساس بالغربة والوحشة فى أول لقاء له مع هذا العالم الجديد .

كان الفتى قد تعرف على « محمد عنانى » وهو ما يـزال طالبـا فى الليسانس بقسم اللغة الانجليزية وآدابها ، وكان محمد قد تخرج قبل ذلك بعامين فى القسم نفسه وعين معيدا به . كان وقتهـا فتى مشرقـا ضاحك الوجه متهلل الأسارير مقبلا على الحياة إقبالا هائلا ، وكـأن لسان حاله يهتف دائما أهلا بالحياة ! ورغم أنه كان يميل قليلا إلى السمنة الا أن قوامه الفارع لم يسمح لهذا القدر من البدانة أن يؤثر فى تناسق مظهره العام . جذب الفتى إليه لأول وهلة وجهُه الطفولى البرىء ، وضحكته المجلجلة الصافيـة دائما وهى تصـدر مباشـرة من القلب ، خاصة حين يتذكر طفولته الأولى فى رشيد ، فينسى لهجتـه القاهـرية المكتسبـة ويتحول إلى الحـديث باللهجـة الرشيـدية المحببـة إليه وإلى السامعين ، فيغفل عن نطق نهايات الحروف ، ويمط فى الكلمات مطا حتى لكأنه يزيد معانيها عمقا وحماسا .

من الوهلة الأولى لتعارفهما عرف الفتى أن محمد عنانى يهوى الشعر والطيور ، وورث حب الاثنين من والده واسمه ايضا محمد عنانى . .

فقد كان للأسرة تقليد رشيدى معتمد وهو أن تسمى مواليدها من الذكور محمدا ، وينتسب الجميع إلى اللقب الأكبر عنانى . وقد غرس محمد عنانى الأب فى ابنه حب الفنون والآداب والطيور والموسيقى جميعا ، فكان الابن شديد الاعجاب بوالده يقلده أحيانا ضاحكا من محاولاته فى كتابة الشعر التعليمى الساذج الذى يحذر فيه عنانى (الاب) من قيود الزواج ونفقاته ، أو قصيدته العصماء فى وصف فوائد الملوخية بالأرانب ، أو فى تعداد مزايا البطاطس سيد خضروات هذا العالم !

وكان الفتى وصديقه العنانى الابن يضحكان ملء شدقيهما من هذا الشعر الساذج الذى ينظمه الوالد فى فحولة لغوية واضحة لا تتناسب مع المحتوى التافه لهذه الأشعار المنظومة يتندران بهواية الوالد فى ركوب الطائرات دونما هدف أو قصد سوى الطيران نفسه حتى أنفق ما لديه من مال أو كاد على تلك الهواية ، وعلى هواية جمع انواع الطيور الغريبة منها والمألوفة ، ورسمها وتصويرها وتوثيقها واثبات كل ذلك فى كتاب ضخم لم يقدر له أن ينشر حتى الآن ، ومع كل ذلك فقد كان محمد عنانى يحمل لوالده احتراما لا حد له ، وحبا يقترب من درجة العشق جعل الفتى هو الآخر يهوى الوالد ويأنس إليه ، ويتندر بغرائب أقواله وأفعاله مع صديقه فتراهما معا يذكران نوادره وأخباره فى سعادة تذهب عنهما هموم الدنيا .

قابل الفتى صديقه محمد عنانى لاول مرة عام ١٩٦٠ على درج كلية الآداب فأحس للوهلة الاولى أنه صنو روحه . لم يتخذ محمد امامه سمت المعيد أو الأُستاذ يحادث تلميذا من التلاميذ وإنما شرع يحدثه عن قصص قرأها له فى بعض الصحف ، وأخذ يحلم معه منذ اللحظة الاولى بالكتابة للاذاعة والمسرح والصحف ، وخططا معا عدة مشروعات لمسرحيات يكتبانها معا وتحققت بعضها فيما بعد حين أعدا معا مسرحيتين لمسارح التليفزيون ، التى ولدت بعد ذلك التاريخ بأعوام قليلة وخلقت نهضة مسرحية عريضة ، هما « من اجل ولدى » عن رواية لمحمد عبد الحليم عبد الله ، « وعندما نحب » عن رواية قصيرة لمحمد التابعى ، كما ترجما معا عام ١٩٦٣ للمسرح القومى مسرحية تشيكوف الشهيرة « الخال فانيا » ومسرحية « الخرتيت » للكاتب الفرنسى العبثى الاشهر يوجين يونسكو ، وأحدثت دويا هائلا عند عرضها على مسرح الحكيم فى حوالى ذلك التاريخ ايضا .

فى اللقاء الأول قرأ محمد عنانى على الفتى أشعاراً لصلاح عبد الصبور والمتنبى ، وقدمه إلى حديقة شكسبير بأزهارها اليانعة وعطر عبقريتها الفذة ، وقدمه ايضا إلى شاعر أحبه الفتى بعد ذلك من قلبه هو الشاعر الانجليزى الرومانسى وليام وردزورث . ويذكر الفتى ذات يوم خريفى جميل حين افترش هو وصديقه حديقة الجامعة تحت شجرة وارفة

الظلال وأخذا يقرآن معا « أغنية الخلود » العظيمة للشاعر وردزورث ، وبهرتهما معا أبيات منها تقول :

« الارض تملأ حجرها بمباهج من عندها . . تهفو أشواقها بكل ما
فيها من جمال الطبيعة . .
وبحنان الأم الرؤوم
وبكل جلال القصد
تبذل أقصى ما تستطيع الحاضنة الحنون
لتجعل ابنها النائم فى حضنها
الانسان
ينسى ما قد رآه من روعة وبهاء
فى رياض الجنان قبل خطيئة الانسان . .

ونشأت بينهما منذ ذلك الحين صداقة عميقة ، فكان الفتى يختلف إلى منزل صديقه بالعجوزة حيث كان يعيش مع والدته واخوته ، يقرآن الشعر معا ، وكانا يختصان شكسبير بالذات بالكثير من القراءات ، فقد بهرتهما معا عبقريته الفذة ، وكثيرا ما رددا وهما يسيران على شاطىء نيل الجيزة عبارات الدوق اورسينو فى مستهل مسرحية « الليلة الثانية عشرة » حين قال :

« لو ان الموسيقى غذاء الحب
فاعطنى منها المزيد
ولا تسرف كثيرا فتسأم منا الروح
وتتلبد .
آه يا له من لحن جميل عذب . .
تخفت نبراته شيئا فشيئا . .
حتى يذوب ويتلاشى . .
آه انه يهب على الآذان كالنسيم العليل . .
ينساب رقيقا فى بستان
من زهر البنفسج . .
فيبعث فى الهواء
رائحته العطرة » .

وفى هدأة المساء ، كان الصديقان يبدآن معا رحلتهما الليلية عبر شوارع الجيزة وحواريها إلى مكان ريفى على شاطىء النيل أسمياه بالـ NATURE أو « الطبيعة » هربا من ضجيج المدينة وصخبها ، تيمنا بحب الشاعر الرومانسى « وردزورث » للطبيعة ، فكأنهما قد اختارا فى هذه السن الصغيرة ذلك الموقف الرومانسى المفضل وهو الهروب من

المدينة بكل ما تمثله من ميكانيكية الحياة وآليتها التى تخمد أنفاس الفرد ، ليعودا إلى البراءة والتفرد . . وبرغم الفارق الشاسع بين « الطبيعة » التى تغنى بها الشاعر « وردزوورث » فى مروج انجلترا عند منطقة « كوخ اليمامة » وبين تلك « الطبيعة » الفقيرة عند البقعة الريفية الكالحة الأشجار على شاطىء النيل فى جنوب الجيزة ، إلا أن الصديقين سعدا دائما بالهروب إلى هذه « الطبيعة » ظنا منهما أنهما يسيران على درب التقاليد الرومانسية المعتمدة فى نشدان البراءة والتوحد مع أروع ما خلق الله فى مواجهة الحياة الحديثة التى تخنق فردية الفرد وتحوله إلى ترس فى آلة .

ومضت الحياة بهما هانئة سعيدة إلى أن فرقتهما الأيام فحصل محمد عنانى على بعثة فى انجلترا بينما كان من نصيب الفتى بعثة فى أمريكا ، وكان عليهما أن يبدآ معا رحلة جديدة من أجل طلب العلم . . ورحلة جديدة فى حياة كل منهما ، ولكن كل فى قارة مختلفة . . لذلك عندما نزل الفتى من الطائرة ليبيت ليلة واحدة فى لندن فى طريق سفره إلى واشنطن بامريكا شعر بسعادة لا حد لها إذ سيقضى ليلته هذه مع الصديق الذى كان عليه أن يفارقه بعد ذلك لسنين لا يدريان كم تطول .

لكنه عندما ألقى نظرته الأولى على صديقه الذى وقف ينتظره فى صالة استقبال المطار ، كاد أن لا يتعرف عليه فقد وجد فى المطار شخصا

آخر يختلف عن الصديق الذى كان يعرفه فى القاهرة . كان يرتدى معطفا ثقيلا ويضع على رأسه قلنسوة من الفرو الثقيل تكاد تخفى اذنيه وجزءا كبيرا من وجهه ، وكان يحمل فى يده شمسية ضخمة . لكن أهم ما راع الفتى من منظر صديقه الغريب أن ابتسامته المعهودة وضحكته المجلجلة الصافية قد اختفتا تماما ليحل محلهما حزن هادىء رزين . وكأن الطفل البرىء بداخله قد اغتيل فجأة ليحل محله رجل كبير يحمل على كاهله هموم السنين .

وأدرك الفتى أن مرحلة البراءة من عمريهما معا قد انتهت ، وان سنوات النضج المقبلة مع كل ما قد تحمله من تحقيق للاحلام ستكون مصحوبة دائما بذلك الحزن الرقيق على زمن مضى كنا فيه أطفالا .

آخر يختلف عن الصديق الذى كان يعرفه فى القاهرة . كان يرتدى معطفا ثقيلا ويضع على رأسه قلنسوة من الفرو الثقيل تكاد تخفى اذنيه وجزءا كبيرا من وجهه ، وكان يحمل فى يده شمسية ضخمة . لكن أهم ما راع الفتى من منظر صديقه الغريب أن ابتسامته المعهودة وضحكته المجلجلة الصافية قد اختفتا تماما ليحل محلهما حزن هادىء رزين . وكأن الطفل البرىء بداخله قد اغتيل فجأة ليحل محله رجل كبير يحمل على كاهله هموم السنين .

وأدرك الفتى أن مرحلة البراءة من عمريهما معا قد انتهت ، وان سنوات النضج المقبلة مع كل ما قد تحمله من تحقيق للاحلام ستكون مصحوبة دائما بذلك الحزن الرقيق على زمن مضى كنا فيه أطفالا .

مدينة الغرباء

إنقضت الرحلة إلى أمريكا بعد ساعات طويلة من الطيران . . وقد رأى الفتى لأول مرة والطائرة تعبر به المحيط الأطلنطى خيط النهار الأبيض ، وخيط الليل الأسود يلتقيان فى وسط السماء فكانت لحظة مشهودة تجلت فيها قدرة الله . . وجِل قلب الفتى وانتابته الخشية ، وفكر فيما هو مقدم عليه من مجهول وهو بين يدى الله فى كبد السماء فقرر أن يترك كل شىء لله يفعل به ما يريد . .

هبطت الطائرة فى مطار كيندى بمدينة نيويورك ذات يوم قائظ الحر من صيف عام ١٩٦٥ ، وكان الفتى قد شاهد بعيون مليئة بالدهشة مدينة نيويورك من نافذة الطائرة فى السماء فألفاها مثلما هى فى صور

الكارت بوستال . . ناطحات سحاب عملاقة تخترق السماء ، وتمثال الحرية الشهير رابض وسط البحر معلنا أن الحرية كانت دائما مطلبا عزيزا لدى الإنسان لم يتحقق أبدا . . فأقاموا لها تمثالا !

وأى حرية تلك التى يرمز إليها ذلك التمثال والفتى فى أول سير له فى شوارع نيويورك الخرسانية يشعر بوخزة فى ظهره فيلتفت مذعورا ، فإذا بأحد الشبان من الأمريكان وقد شهر فى ظهره مطواة حادة وهو يطلب منه أن يفرغ ما فى جيبه ويخلع ساعته ! عندئذ ودون أن ينبس الفتى بنبت شفة أخذ يفتش فى جيوبه مذعورا ليجد بضع دولارات قليلة أعطى بعضها لذلك الشاب الغليظ الملامح ، كما أعطى له الساعة متمنيا أن يتركه فى حاله . . وبالفعل اختطف الشاب الدولارات القليلة والساعة غير مصدق لهذا الاستسلام العجيب من جانب الفتى وانصرف عدوا ونظرات الفتى تشيعه فى دهشة مختلطة بالذعر والإشفاق جميعا . . ولعل المدينة الخرسانية الرهيبة بكل ما تموج به من مأكل ومشرب وملبس قد أدارت له ظهرها ولفظته على أرصفتها غريبا جائعا . . مغمورا بالوحشة والاغتراب !

شعر الفتى وهو يقفل راجعا ليركب الطائرة المحلية المتجهة إلى مدينة واشنطون بكراهية شديدة لهذه المدينة الكبيرة ـ نيويورك ولتمثال الحرية وهو يخرج لسانه غيظا وكمدا له . . ولذلك الشاب العبوس الوجه

الغليظ الملامح الذى سلبه بعضا من نقوده . . كما شعر بغير قليل من التعاطف مع ذلك الشاب مع أنه قد سلبه ساعته ونقوده وهرب لا يلوى على شىء . .

وبالقروش النحاسية القليلة التى تبقت معه ركب أتوبيسا أقله مرة أخرى إلى مطار كيندى وحمد الله على أن تذكرته ما تزال فى جيبه وركب الطائرة الصغيرة المتجهة إلى مدينة واشنطون حيث مقر مكتب البعثات . . وحيث يقبض راتبه وبعض البدلات التى تعينه على بدء الحياة فى جامعة كاليفورنيا حيث تم الحجز له من جانب إدارة البعثات بالقاهرة .

هبطت الطائرة الصغيرة فى مطار واشنطون واستقل الفتى وغيره من الركاب أوتوبيس المطار إلى وسط المدينة فوجدها مختلفة تماما عن نيويورك . . مدينة نظيفة هادئة منعشة الهواء . . أنيقة البيوت فى غير تكلف فهتف فى أعماقه يالها من مدينة جميلة تشبه الاسكندرية ! وتنبه إلى أن المصريين جمعياً عندما يشيدون بجمال مدينة من المدن يشبهونها بالاسكندرية ! كما تنبه أنه مهما سافر المصرى فهو يحمل دائما وطنه فى قلبه !

فى غرفة متواضعة بأحد الفنادق الرخيصة وضع الفتى أمتعته القليلة . . ثم خرج قاصدا مكتب البعثات ليسلم نفسه ويعلن عن

وصوله ـ وعند باب الفندق شعر بلفحة هواء بارد انتعشت لها روحه ، لكن سرعان ما أصبح هواء باردا أكثر من اللازم وأجس برعدة البرد بينما انقلب الطقس فى لحظات قليلة إلى شىء يشبه الشتاء القارس ، هكذا فجأة وبلا مقدمات ، فقفل راجعا إلى غرفته يبحث عن شىء يبعث الدفء فى جسده النحيل لكنه اكتشف أنه لم يحضر معه من القاهرة سوى بدلة خفيفة يتيمة وقميصين أو ثلاثة . . ربما لأنه لم يكن يملك ما يكفى من مال لشراء ملابس استعدادا لهذه الرحلة ، وربما لأنه ظن أنه سيحط رحاله فى تلك البلاد البعيدة أثناء الصيف وهناك ـ عندما يقبض راتبه ـ سوف يشترى حاجته إذا كان فى حاجة إلى مزيد من الملابس .

ارتدى الفتى البدلة الخفيفة وسار فى الطرقات النظيفة الأنيقة هابطا التل الممتد من باب الفندق إلى الشارع الرئيسى فى وسط المدينة وهو يرتعد من البرد ، لكنه ظل يقبض باستماتة على ورقة صغيرة فى جيبه بها عنوان ذلك المكتب التعليمى (وكان يسمى بالمكتب الثقافى) . وعندما خشى أن ينقضى النهار فلا يصل إلى المكتب المنشود أو يصل اليه بعد انتهاء ساعات العمل ، ألقى بنفسه فى احدى سيارات الأجرة وأعطى سائقها الورقة التى كتب عليها العنوان ، وفى أقل من دقيقة وجد نفسه هناك ، فاكتشف أنه أثناء سيره كان يدور حول نفسه طول الوقت دون

أن يعينه أو يرشده أحد ممن استوقفهم فى الطريق ليسألهم عن كيفية الوصول إلى العنوان الذى يريده . . بل شعر أن كل من صادفهم فى الطريق أثناء سيره كانوا يحثون الخطى بسرعة شديدة وبشىء غير قليل من التوتر كأن شيئا يلهب ظهورهم . . وقد بدا كل منهم مستغرقا تماما فى نفسه كأنه جزيرة منعزلة تعيش وحدها فى انفصال تام عن الآخرين . . وكان كلما سأل أحدهم أشاح بوجهه ومضى مسرعا فى طريقه . . وتذكر ساعتها قصيدة إليوت التى كان يقرأها فى القاهرة دون أن يدرك بالضبط حقيقة معناها ولأول مرة شعر بأبيات القصيدة وكأنها تصف تماما هذا الجمع الحاشد من الناس المسرعين فى خطاهم وهم يدقون بكعوب أحذيتهم الحادة شوارع المدينة الأنيقة التى كان رذاذ خفيف من المطر قد بدأ يبللها . وترددت فى رأسه أبيات إليوت :

نحن الرجال الجوف
بالقش حشينا
نميل معا
وقد حشيت بالقش رؤوسنا فوا أسفاه !
أصواتنا الجافة
حينما تتهامس
هادئة خالية من المعنى

كالريح فى الحشائش الجافة
أو كأقدام الجرذان على الزجاج المهشم
فى قبونا الجاف
حيث تخزن المؤن
شكل بلا قالب ، ظل بلا لون
قوة مشلولة ، إشارة بلا حركة .

على باب المكتب الثقافى وجد الفتى حارسا نوبيا عجوزا رحب به بلكنته النوبية المحببة فشعر بدفء الدنيا بعد أن كان شعوره بالغربة والاغتراب قد بدأ يثقل صدره . . وصعد بخطوات نشيطة فرحة مستبشرة درجا خشبيا قصيرا إلى مكتب المستشار الثقافى وكان وقتها هو الدكتور مصطفى الشكعة أستاذ الأدب العربى فى جامعة عين شمس وأحد الأسماء اللامعة فى عالم الدراسات الأدبية . . استقبله الرجل ببشاشة أشعرته بالكثير من الثقة فى النفس وأنهى له إجراءاته المالية والادارية فى لمح البصر ثم اقترح عليه أن ينزلا سويا إلى المدينة ليشترى له بعض الأشياء الضرورية قبل أن يرحل فى صباح اليوم التالى إلى حيث مقر دراسته وزال عن الفتى كل شعور بالغربة أو الوحشة وهو يضع ذراعه فى ذراع الدكتور الشكعة . . وبرغم لذعة البرد القارس فى الجو فى منتصف الصيف فقد شعر بالدفء يسرى فى أوصاله جميعا والأمل يملأ

قلبه . وفى أحد المحلات الكبرى التى تبيع كل شىء وأى شىء والتى لم يكن الفتى قد رأى مثيلا لها فى القاهرة ـ اشترى لـه الدكتـور الشكعة « بلوفر » من الصوف حتى يدفىء صدره وأصر على أن يدفع ثمن البلوفر من جيبه الخاص رغم أن الفتى كان قد قبض راتبـه . . فشعر بـذلك الخيط المتين من التواصل الإنسانى الذى يربط الناس فى بلاده بعضهم بالبعض . . وشعر نحو الرجل ـ الذى لم يكن قد رآه من قبل وإن سمع عنه كثيرا بود جارف كأنه قد رأى مرة أخرى والده الذى احتواه ثرى مصر قبل رحيل الفتى إلى هذه البلاد . أسرته تلك الإشارة الحنون من الدكتور الشكعة ، وتذكر وهو يقيس البلوفر فى حجرة القيـاس بالمحـل الكبير صورة والده عندما عاد إلى بيتهم فى الجيزة بعد منتصف ليلة قارسة البرد فوجده وقد وضع بطانية على كتفيه وأسنانه تصطك من البرد ، شاحب الوجه وقد تمكن منه مرض القلب ، وعندما ألقى عليه السلام طلب منه والده أن يجلس اليه قليلا قبل أن ينام . . وأن يتحدثا . . وجلس . . وبعد لحظات من الصمت العتيق فتح الوالد فمه ليقول كلمات قليلة متعثرة . . **ـ أنت مسافر . . إجلس معى . . ربما لن يرى أحدنا الآخر بعد ذلك . . فعندما تعود . . لن أكون هنا . .**

لماذا الموت ؟ وهل من الضرورى أن نفارق من نحب ؟ تذكر أنه ارتمى فى أحضان والده وأراد ألا يفارقه أبدا . . أمسك به واستماتت

راحته على ظهره كأنه يمنعه من الذهاب إلى أرض لا يعرفها . . أراده أن يبقى . . وأراد ألا يفارقه أبداً . . أمسك به واستماتت راحته على ظهره كأنه يمنعه من الذهاب إلى أرض لا يعرفها . . وأحس بكل حنان الدنيا وبكل قسوة الدنيا ! أرسل البصر إلى تراب مصر الذى يحتوى الآن أباه . . وشعر بخيوط غير مرئية تربطه بتلك البقعة الصغيرة من تراب الوطن ، ونظر إلى الدكتور الشكعة نظرة امتنان عميق .

علم الفتى من الدكتور الشكعة أنه مقبول أيضا للدراسة فى جامعة انديانا إلى جانب جامعة بيركلى بكاليفورنيا التى كانت مقصده منذ غادر مصر . . أما جامعة إنديانا فهى أيضا جامعة شهيرة من بين ما يسمونهم هناك بجامعات « الرباط العاجى » ، وهى عشر جامعات كبرى تعتبر قمة التقدم العلمى من بين جامعات أمريكا جميعا . . وهى تقع فى مدينة صغيرة فى أواسط أمريكا لا يعدو عدد سكانها حينئذ الخمسة آلاف لكنها عظيمة القيمة بتلك الجامعة التى تتوسطها ، هى بلومنجتون ، وعندما علم الفتى من الدكتور الشكعة أن السفر إلى كاليفورنيا من واشنطون يستغرق نحو خمس ساعات أو أكثر بالطائرة قرر أن يلحتق بجامعة « إنديانا » لأن السفر إليها لا يستغرق أكثر من ساعتين . . وهكذا كان السبب البسيط الغريب إيذانا بتحول جذرى فى عمر الفتى غير مجرى حياته منذ تلك اللحظة حتى اليوم فقد قدر له أن يلتقى بعد ذلك بعامين

بزوجته التى جاءت هى الأخرى إلى جامعة إنديانا للحصول على درجة الماجستير فى نفس فرع دراسته . ومن يدرى ربما إذا كان قد سافر إلى كاليفورنيا لما التقى بها إلى الأبد . . وكانت له منذ تلك الأيام نعم الرفيق والصديق تزداد أواصر الحب والمودة بينهما يوما بعد يوم ، وأنجب منها طفلين هما الآن قرة عينيه ومحط آماله . . وتكرار عجيب غريب ماديا ومعنويا ـ لصورته وهو يخطو خطواته الأولى المتعثرة فى الحياة . . فكأن الله قد أراد أن يشهده فيهما ومضة من معنى الخلود .

حط الفتى رحاله فى مدينة « بلومنجتون » فى المساء فلم يستطع أن يتبين من نافذة الطائرة المروحية الصغيرة سوى أنوار خافتة متفرقة هنا وهناك ، وكأن المدينة المرتمية فى أحضان الأشجار الكثيفة تغط فى سبات عميق . . ووجد فى استقباله بالمطار الصغير عددا من الدارسين المصريين هناك كان الدكتور الشكعة قد حدثهم تليفونيا فى الصباح من واشنطون معلنا اليهم مقدم زميلهم الجديد ، سائلا إياهم أن يستقبلوه بالحفاوة والترحاب فى المطار حتى ينفوا عنه شعور القادم الجديد بالوحشة والاغتراب .

واصطحبوه فى موكب من السيارات الأمريكية القديمة التى لا تقوى ميزانياتهم الطلابيةعلى شراء أفضل منها . . ولكنها سيارات على أى حال بعثت فى نفس الفتى آمالا عريضة بقرب امتلاكه هو الآخر لسيارة حتى

ولو كانت مفككة الأوصال مرتجة الأجزاء كتلك التى ركبها بجوار حسن الشامى الذى دعا الجميع إلى عشاء بمنزله أعده خصيصا بمناسبة وصول القادم الجديد . . وفى منزل حسن الشامى ـ الذى أصبح الآن واحدا من أساتذة الفولكلور المرموقين فى أمريكا ـ كانت فى انتظارهم مائدة عامرة بالدجاج الأمريكى المشوى والأرز الأبيض طويل البذرة الذى لم يكن الفتى قد رآه قط من قبل ، مطهيا بالزبد ، فأقبل عليه وعلى أفخاذ الدجاج الهائلة الحجم بتلذذ شديد ، واستقر فى نفسه بعد أن رأى ناطحات السحاب فى نيويورك وأفخاذ الدجاج المشوية فى منزل مضيفه أن كل شىء فى هذه البلاد ضخم ضخامة القارة الأمريكية نفسها . . الطعام والأبنية والمساحات ، والتقدم العلمى المذهل ، والثروة الهائلة ، والمنافسة القاتلة . . وحتى الجريمة !

ومضى الليل فى ضحكات شبابية صافية ، وأسئلة ملهوفة عن مصر وأحوال المصريين وعبد الناصر . وحزن دفين يعتصر القلوب وراء القهقهات العالية شعر الفتى أنه الشوق المشبوب إلى الأهل والأحباب ، والحنين الجارف إلى الجذور الراقدة على ضفاف النيل . . ومضى حسن الشامى وسط هذا كله يتغنى بجمال الدجاج الأمريكى ولذة طعمه موجها فى نفس الوقت نقده العنيف إلى الدجاج المصرى المصاب ـ من وجهة نظره ـ بالأنيميا الحادة وفقر الدم . وبدأ فى حماسه الشديد لكل

ما هو أمريكى من مأكل ومشرب وملذات فى الحياة وكأنه نغمة نشـاز وسط غيره من الزملاء الذين لم يتحدثوا طوال الليل إلا عن مـوضوع واحد ولاشىء غيره هو مصر . . وكأن القادم الجديد كان يحمل إليهم فى غربتهم شيئا من عبق الوطن

وفى الصبـاح فتح الفتى ذراعيـه للمدينـة الصغيرة وقـال مـرحى مـرحى . . ها هى الأقـدام تدب عـلى أرض بعيدة . . تتحقق فيهـا الأحلام فى الحصول على مبتغاه من شهادة عليا . . . وعندما اختلف إلى درسه الأول حرص أن يسأل أستاذه وكان أمريكيا من أصل ألمانى واسمه هـورست فرنـز متى تحين العـودة . . أو بـالأحـرى هـل تـطول سنى الدراسة ؟ وعندما علم من هذا الأستاذ أنه لابد أن يستقر بتلك المدينة لفترة لا تقل عن أربع سنوات اعتصر الحزن قلبه ـ فقد بدا له الزمن ثعبانا طويلا ممدودا من تلك اللحظة إلى لحظة الأبد . . . وحلم منذ أول يوم من أيام دراسته بيوم العودة فأراد أن يختصر الزمن بأى شكل . . ولم يكن هذا مجرد جزء من طبيعته التى تتعجل دائما كل شىء . . . فكل شىء عنده كان يبدأ لكى ينتهى سريعا ليعود فيبحث لنفسه عن بداية أخرى لشىء آخر ينتهى وهكذا . وربما توافقت هذه الطبيعة الدفينة فيه مع ما صادفه طـول حياتـه من التبكير فى كـل شىء . . فهو قـد كبر مبكرا . . وخط أول حرف لـه مبكرا ونشـر أول كتاب لـه مبكرا . .

وخالط نجوم عصره من الأدباء والمفكرين وهو بعد فى السادسة عشرة ونال اجازته العلمية الأولى وذاع صيته بين الأدباء وهو بعد فى التاسعة عشرة والنصف ، وجاء إلى هذه المدينة ليحصل على الدكتوراه وهو فى الواحدة والعشرين . . . فهل قدر له أن يبدأ الأشياء وينتهى منها فى وقت يستغرق من غيره عمرا بأكمله ؟ وكثيرا ما تردد فى ذهنه ـــ وما يزال ـــ أنه منذ أن بدأ الحياة كان مقدرا عليه أن يلهث إلى النهاية كالعداء يجرى وحيدا لا يلوى على شىء .

لكن الأمر عندما وصل إلى هذه المدينة الأمريكية الصغيرة الجميلة كان مختلفا . . فلم يكن الفتى قد جاء إليها من حياة منغلقة كتلك التى يعيشها الطالب الفلاح فى ريف مصر عندما ينتقل فجأة إلى الجامعة فى المدينة فتتفتح أمامه آفاق لم يكن يحلم بها . . وهو النموذج الذى رسمه أمين يوسف غراب فى رائعته « شباب إمرأة . . » وإنما كان الفتى مخلفا وراءه فى القاهرة عالما صاخبا من حياة المسرح فى مسرح الحكيم بالذات ومئات الصداقات وبعض المغامرات العاطفية ، والكثير الكثير من متعة الفن ومتعة الفكر . . حياة كاملة صاخبة كان يعيشها كل يوم فى قلب القاهرة بعماد الدين من الصباح إلى المساء يلتقى بمئات البشر ويناقش آلاف الأفكار وتزدحم نفسه بمختلف المشاعر والأحاسيس ، ومتعة لا حد لها فى رؤ ية الممثلين وهم ينطقون على المسرح بكلمات كتبها هو

وهو جالس على مقاهى القاهرة . . وصداقات حفرت فى نفسه أخاديد عميقة من الود ودفء المحبة . . كل هذا تركه فجأة ليجد نفسه وحيدا فى هذه المدينة الأمريكية الصغيرة وإن كان قد احتفى به مجموعة من الدارسين المصريين ليلة وصوله لكن كل واحد منهم انصرف بعد ذلك إلى حال سبيله . .

ووجد الفتى نفسه يسكن فى شارع أنيق ظليل بالأشجار الباسقة التى كانت تملأ كل شبر من أرض المدينة فتحيلها إلى جنة خضراء بعد أن كان يسكن فى إحدى حوارى الجيزة الضيقة المليئة دائما بطفح المجارى ورائحة الطبيخ . . . لكنها كانت فى وعى الفتى فى بداية أيامه هناك قفرا من الوحدة القاتلة . . فأين هو من مصر وحياة مصر . وكثيرا ما كان يتساءل بينه وبين نفسه لماذا ترك كل هذه الحياة الحافلة فى مصر ومن أجل أى هدف . حتى أنه كان يحلم عندما ينام كل ليلة بأن طائرة تقله إلى مصر فى المساء لتعيده إلى الجامعة فى الصباح ! وزاد من شعوره بالوحدة فى تلك الأيام الأولى أن اختار له زملاؤه من المصريين سكنا أمريكيا هو عبارة عن شقة صغيرة من غرفة وصالة مفروشة بأثاث طلابى رخيص تتوسطها ثلاجة قديمة ضخمة . . . فى منزل مكون من طابقين . كان هو يسكن طابقه الأول أما الطابق الثانى فتسكنه المسز جانيت صاحبة المنزل ، وهى عانس أمريكية شديدة القصر والسمنة كانت أيامها فى

العقد الخامس من عمرها ترتدى نظارات سميكة وتخفى مقدمة فستانها دائما بمريلة من تلك التى تضعها النساء أثناء غسيل الأطباق ، لكن المسز جانيت لا تخلعها أبدا ليل نهار فهى فى حالة تنظيف مستمر وأبدى . . ولا يراها الفتى إلا وهى تحمل فى يدها مقشة ، فتذكره ببطلة مسرحية بيجماليون التى صاغها الفنان تمثالا هو آية فى الجمال ثم تمنى على الله أن ينفخ فيه الروح فإذا بها امرأة عارية تمسك فى يدها بمقشة وتمضى فى تنظيف البيت بحماس شديد كأى زوجة ذهبت عنها حالة العشق الرومانسية وانخرطت فى حياة البشر .

غير أن المسز جانيت صاحبة البيت لم تكن تمت إلى جمال فتاة بيجماليون بصلة . . بل كانت القبح الأبيض السمين مجسما . . ولم يكن الفتى – بالطبع – قد صاغها امرأة جميلة ثم ذهب عنها الشعر والسحر ، كما حدث مع بيجماليون ، وإنما بدت له وكأنها ولدت هكذا بالمريلة والمقشة والنظارات السمكية وكتل اللحم والشحم البيضاء وصوتها الحاد الذى يلومه دائما على كل شىء وأى شىء . إذا هو ترك كسرة من الخبز فوق الثلاجة أو إذا هى ضبطته وقد خرج إلى دراسته دون أن يرتب سريره أو يغسل الأطباق المتراكمة فى حوض المطبخ . . فكأنما آلت على نفسها أن تعيد صياغة الفتى من جديد فتعلمه ضروب الأدب والتحضر ! وكانت تحتفظ لنفسها بمفتاح لشقة الفتى فكان إذا انصرف إلى

دراسته فى الصباح تنزل إلى الشقة وتترك له ملاحظات قاسية تكتبها على كروت بيضاء وتلصق الكروت فى كل مكان بدبابيس الرسم فيها من اللوم والتأنيب والتوبيخ على هنات صغيرة فى نظافة المكان بلغة أمريكية ركيكه ما يكفى لأن يتعلم الفتى الأدب طول حياته . . وفى لحظات الصفاء النادرة التى جرى فيها حوار بين الفتى وبين هذه السيدة كانت تسأله من أى البلاد جاء . . أمن الهند أم السند أم بلاد تركب الأفيال ؟ وعندما أعلن لها أنه من مصر سألته فى أى جزء من الهند تقع مصر . . وهكذا كانت المسز جانيت نموذجا للأمريكى الصلف الذى لايعلم من أمر الدنيا شيئا خارج بلاده . . والتى تتساوى عنده مصر بالهند بأى بلد آخر طالما لم تكن هذه البلاد جزءا من أمريكا !

وقرر الفتى أن يترك لها المنزل طول النهار تضع فيه من كروت التوبيخ ما تشاء وأن يختلف إلى مقهى بالشارع الرئيسى الذى يصل حرم الجامعة بحى الحجارين فى جنوب المدينة ـ وكانت مهنة قطع الأحجار هى المهنة الرئيسية لسكان المدينة الأصليين من غير الطلبة ـ فقد كان وجود الطلبة فى المدينة موقوتا بانتهائهم من الدراسة ثم يغادرها كل إلى حياته ـ فكان يقضى فى هذا المقهى طيلة الفترة منذ انتهائه من دروسه بعد الظهر فلا يعود إلا فى المساء . . وفى المقهى الصغير واسمه « نيكس » كان يقتات على ساندوتشات الهامبورجر المحاطة بالبطاطس

المحمرة تقدمها إليه الجرسونة العجوز الوحيدة هناك التى لم يتح له أن يعرف اسمها أبدا . . ولكنها كانت ــ وما تزال ، فقد رآها الفتى بعد ذلك بعشرين سنة وكأن الزمن لم يغير فيها شيئا ــ امرأة نحيلة جاحظة العينين منحولة الشعر إلى درجة تقترب من الصلع ، تستمد من رغبتها فى الاستمرار فى الحياة قوة هائلة تجعلها تقف على قدميها وتذرع المقهى وحدها ذهابا وايابا طيلة عشرين ساعة فى اليوم تقدم لزبائنها من الطلبة الفقراء المأكولات والمشروبات الخفيفة دون كلل أو ملل . . وفى صمت عجيب وبلا تعبير يذكر على وجهها كأنها آلة متحركة وليست بشرا .

ولأول مرة ذاق الفتى فى هذا المقهى طعم اللحم المفروم المشوى على الفحم فكانت له لذة عظمى ظل يتذكرها حتى الآن ولا يجد لمثيلاتها نفس الطعم فى أى مقهى آخر فى العالم ــ على كثرة أسفاره بعد ذلك إلى بلاد الدنيا ــ وربما ارتبط هذا الطعم المميز فى ذهنه بأيام الدراسة الأولى حين لم يكن يعرف كيف يطهو طعامه بنفسه ، وكان هذا ألذ وأجمل طعام يسد به غائلة جوعه كل يوم إذا انتهى من حضور دروسه فى الظهيرة . . وأيضا ليهرب من العودة إلى منزل المسز جانيت ومن مواجهة غضبها بسبب عدم اعتنائه بنظافة المكان .

وبعد هذه الأيام الأولى بدأ الفتى يشعر بالقرب من بعض المصريين الذين يعيشون ويدرسون فى هذه المدينة ، ومعظمهم كانوا يدرسون

الاقتصاد وادارة الأعمال ، فاختص بصداقته ابراهيم حماده الذى كان يدرس الدراما موفدا من أكاديمية الفنون لقرب تخصصه من دراسة الفتى وهوايته معا . . وقد ربطت بينهما أثناء سنى الدراسة فى أمريكا صداقة عميقة تخللتها بعض الشوائب الصغيرة لكن الفتى لم يكف عن إعجابه بابراهيم حماده وصرامته الشديدة المشوبة بروح دعابة وسخرية محببة لا يفصح عنها إلا لمن يألفه ألفة شديدة فيسقط عنه قناع الأستاذ الصارم الذى كان يحلو له دائما أن يضعه ليصبح طفلا كبيرا بريئا محبا للدنيا وملذاتها ساخرا أشد السخرية من هؤلاء الأمريكان الذين كان يكرههم أشد الكراهية ويعجب بإنجازهم أشد الاعجاب فى نفس الوقت . .

وقد سارت به وبالفتى الحياة فى سنوات بلومنجتون حتى تخرجا وحصلا على الدكتوراه فى أسبوع واحد كأوثق ما تكون العلاقة فلا يمر يوم دون أن يتزاوروا . . بل ويتبادلا الكتب وأطباق الطعام . . التى يطهوها كل منهما فى بيته . . وكان الفتى ــ بعد أن مضت به الشهور فى البعثة ــ قد أصبح ماهرا فى صنع اللحم المشوى على الفحم ، أما ابراهيم حماده فقد تجلت مهارته فى طهى مختلف أنواع الأسماك فكانت شلة المصريين تتندر فى لهو برىء بأن الفتى هو « الكبابجى » أما ابراهيم حماده فهو « السماك » فى هذه المدينة وإذا كانت السبل قد تفرقت بهما بعد العودة من البعثة ليصبح الفتى أستاذا بكلية الآداب وابراهيم حماده أستاذا مرموقا بأكاديمية الفنون

ثم عميدا لأحد معاهدها ونائبا لرئيسها ومسئولا ثقافيا كبيرا بوزارة الثقافة ، فإن الود القديم لم ينقطع بينهما قط كما تلاقيا وطفقا يتذكران أيامهما البريئة فى بلومنجتون . . وحنينهما الدفين معا إلى الوطن حين كانا يذرعان معا فى هدأة المساء شارع الجامعة إلى الميدان الصغير الذى يتوسط المدينة . . ولازال الفتى يذكر بيتا من قصيدة أنشأها ابراهيم ذات ليلة صيفية دافئة ذكرته بنسمات مصر الحنون قال فيه : « هذه النسمة السمراء فى تحنانها . . تحمل أنفاس الوطن !»

وتكونت للفتى مع الأيام شلة من الأصدقاء المصريين على رأسهم ابراهيم حماده ، ولكنها ضمت أيضا حسن الشامى المعجب دائما بكل ما هو أمريكى . . الساخر دائما من كل ما هو مصرى وكان أيامها يحب فتاة أمريكية مهذبة وجميلة أصبحت له فيما بعد نعم الزوجة والرفيق . . . أنجب منها ـ على ما يعرف الفتى ـ بنتين كبراهما ليلى لابد أنها الآن فى العشرين من عمرها وقد رآها الفتى منذ شهور حينما عاد لزيارة بلومنجتون بعد طول غياب فوجدها قمرا مكتمل التمام لا هو بالأمريكى ولا هو بالمصرى . . وربما كان هذا مصدر شعور والدها بالقلق العميق بعد أن اختار أن يعيش حياته فى الغربة ، وبعد أن فوجىء بعد مضى كل هذه السنين بأن له بنتا تكبر وأن قلبه الصعيدى يأبى عليه أن يراها تعيش حياة فتيات تلك البلاد ، وقد خيل للفتى أنه

يواجه بينه وبين نفسه الآن ثمن هذا الاختيار الذى انساق إليه فى أول الشباب كما ينساق معظم الذين يبهرون بقشور الحياة الغربية دون أن يدركوا فداحة الثمن .

وكان حسن الشامى بعد حصوله على الدكتوراه فى الفولكلور قد حاول أن يعود ليعيش فى مصر كبقية أعضاء البعثات الذين أتموا دراستهم فاصطحب زوجته وابنته الصغيرة ليلى إلى القاهرة لكنه لم يطق الحياة فيها لأكثر من شهرين أو ثلاثة عاد بعدها أدراجه إلى أمريكا إذ هو لم ير من مصر فى تلك الفترة القصيرة سوى أسوأ جوانبها من بيروقراطية معقدة ، وفوضى فى الشوارع ، وأصوات مزعجة لأبواق السيارات ، وأتربة فى كل مكان . وكانت زوجته فى تلك الأثناء حاملا فى طفلهما الثانى على وشك الولادة فأرسلها لتضع مولودها بمستشفى أميرى غير مجهز باحدى مدن الصعيد تعمل فيه أخته طبيبة ، تصورا منه أنه يضع الزوجة الأمريكية فى أيدى أخته الأمينة ولا يتركها نهبا لعبث الغرباء من أطباء مصر ، لكن القدر أو سوء الأحوال فى تلك المستشفى الريفية النائية ، تسبب فى اجهاض زوجته أو إصابتها بنزيف كاد أن يودى بحياتها فتصورت لهما مصر كأنها قبرا يبتلع كل من يقترب منه ولاذ مع زوجته وابنته بالفرار إلى ما تصور أنها أرض النعيم . .

بعد ذلك . . عاش حسن غريبا فى مدينة غريبة . . وغاضت

الابتسامة على وجهه الذى أصبح معروقا وانطفأت الضحكة التى كانت تجلجل فيسمعها كل من يسير فى الشارع . . ولم يعد للدجاج الأمريكى السمين طعما فى فمه فكف عن صنع الدجاج بالأرز الطويل البذرة . . وانتقل لكى يعيش على الجانب البورجوازى من المدينـة حيث مساكن الأساتذة فى فيلا أنيقة تحتها جراج يتسع لأربع سيارات تحوطه داخلها جدران باردة ببرودة خريف الحياة .

ولا يكتمل عقد هذه « الشلة » الصغيرة من المصريين التى التصق بها الفتى فى أيامه الأولى بمدينـة « بلومنجتون » إلا بـذكر شخصـين ، أحدهما اسمه « وفيق » وكان يدرس للدكتوراه فى الأدب الانجليزى — وهو نفس تخصص الفتى ولهذا كان طبيعيا أن يتخذ منه صديقا — موفدا من جامعة عين شمس ، والآخر هو « عدلى » وكان يدرس للماجستير فى الفولكلور موفدا من مركز الفنون الشعبية بوزارة الثقافة .

أما « وفيق » فقد وفد إلى هذه المدينة الأمريكية الصغيرة قبل الفتى بسنوات ويبدو أنه لم يحقق فى دراسته تقدما يذكر فـأهمل الـذهاب إلى الجامعة وانقطع للعلاقات العاطفية مع الطالبات الأمريكيات ، ومضى يقضى أيامه متنقلا بين المقاهى فى الصباح مقلدا الأمريكان فى ارتداء بنطلونات الجينز الضيقة والقمصان الفاقعة فكان يبدو فى هذا الزى الذى

كان أيامها جديدا غير منتشر كما هو الآن مضحكا غريب المنظر والهيئة لا تتناسب سمرته المصرية وملامحه الفرعونية القمحية مع هذه البهرجة الأمريكية المتناهية . وفى المساء كان يذرع شوارع المدينة بسيارته الأمريكية المتهالكة متنقلا من حفلة إلى حفلة . . أو من « بارتى » إلى « بارتى » من تلك الحفلات التى اعتاد الطلبة والطالبات الأمريكان أن يقيموها فى بيوت بعضهم البعض يعبون فيها أكواب البيرة ويلتهمون سندوتشات الهامبورجر ويتكلمون كثيرا فى توافه الأمور ، ولا تعدم أن تجد بينهم واحدا أو اثنين غالبا ما يكون زنجيا أو هنديا يتحدث بعمق شديد فى أمور الفلسفة أو السياسة . . وخلال كل ذلك يقيمون العلاقات العاطفية والجنسية العابرة فى حرية تامة مجسدين تلك الروح العامة التى كانت تسود الشباب الأمريكى فى تلك الأيام . . وهى النزعة إلى التحرر من كل شىء والتحلل من المواضعات المحترمة للمجتمع الأمريكى تعبيرا عن سخطهم على نظام الحياة الأمريكى ومقاومتهم لذلك القهر الذى كانت تمارسه عليهم الآلة الجهنمية للإدارة الأمريكية المتورطة فى حرب فيتنام حيث يذهب الشباب الأمريكى ليموت فى حرب لا معنى لها ومن أجل لا قضية ولا هدف على بعد آلاف الأميال من أرضه ووطنه .

والغريب أن « وفيق » لم يكن جزءا من كل ذلك . . فلا هو

أمريكى . . ولا هو مهدد بأن يقذفوا بـه فجأة إلى معسكـرات الجيش ليحلقوا رأسه ويبعثوا به إلى فيتنام ليحارب « الشيوعيين » حفاظا على كرامة أمريكا والعالم الحر (!!) ولا هو متمرد على نظام الحياة الأمريكى الذى يورط الفرد فى عجلة الرفاهية ليقضى بقية عمره مكبلا بالديون عبدا لأقساط المنزل والسيارة والثلاجة وبقية الكماليات والمنافسة الجنونية التى تحكم المجتمع الرأسمالى . . بل هو مستمتع جدا بهذا النظام الذى أتاح له أن يشترى سيارة ــ ولو قديمة ــ بالتقسيط المريح ، ويـرتدى البنطلون الجينز ، ويقترض على مرتب البعثة الضئيل من البنك ليشترى تليفزيونا ملونا . وحتى آراؤه فى السياسة لم تكن حادة أو واضحة . . فلا هو ضد حرب فيتنـام ولا هو معهـا . . ولا هو مـع أسرة كينـدى وزعيمها ــ وقتها ــ روبرت ضد انتخـاب نيكسون ولا هـو معها . . ولا هو أى شىء بالنسبة لأى شىء . وحتى موقفـه من الدراسـة كان مائعا . . فلا هو يكمل دراسته ليحصل على درجته العلمية ولا هو يترك الدراسة ويعلن فشله ويختط لنفسه طريقا آخر ليصبح شيئا ، حتى ولو كان سائق تاكسى أو عاملا فى محطة بنزين . . وإنما كانت كل علاقته بثـورة الشبا. هـو جانبهـا الجنسى الذى أتـاح لـه أن يقيم عشـرات العلاقات مع أكبر عدد من الفتيات الأمريكيات ، ويفاخر أمام الفتى بذلك !

كان أول لقاء للفتى بالدكتور صالح الطعمة فى مبنى قسم دراسات الشرق الاوسط ، وكان الدكتور صالح ـ وهو أمريكى من أصل عراقى ـ أحد أساتذة هذا القسم المرموقين . . نزح من العراق فى شبابه . . وجاء إلى هذه البلاد طلبا للعلم والرزق معا . . ولم يستطع أن يعود إلى بلاده منذ ثورة عبد الكريم قاسم بسبب تلك التقلبات السياسية العنيفة التى خضع لها وطنه منذ أن تولى العسكر الحكم . . وتفشت الايديولوجيات من بعثية وقومية واشتراكية وشيعية وسنية فتمزق أبناء الوطن الواحد . . وتحول العراق مثل غيره من الأوطان العربية الأخرى التى مزقها حكم العسكر أيضا إلى وطن طارد لأبنائه من الشباب الذين يتطلعون إلى الخبز الشريف والحرية . .

وكان صالح جواد الطعمة من بين هؤلاء الذين هربوا من جحيم القهر والتقلبات السياسية العنيفة وفقدان الحرية . . وربما رأى فى شبابه صديقا له يزج به فى سجن الاعتقال دون أن يعرف له « طريق جره » ـ كما نقول نحن المصريين ـ وربما شاهد أخا له يذبح أو يسحل فى وضح النهار أمام ناظرى الجميع بتهمة لا يعلمها إلا الحاكم . . وربما وربما . . ولكنه وقد التقى به الفتى بعد أن توسط به العمر ونال الجنسية الأمريكية طلبا لأمان الايام ظل يسير فى حدائق جامعة بلومنجتون الغناء وهو يرى فى كل شجرة من أشجارها الإفرنجية السامقة نخلة من نخيل العراق ،

ويرى فى كل ثمرة من ثمارها الدانية ثمرة من تمر العراق . . وتجول عيناه السارحتان فى شوارع المدينة الأمريكية الصغيرة الأنيقة فلا يرى فيها سوى عطر بغداد وسحر العراق فإذا صافحت أنفه رائحة الهامبورجر الأمريكى تخرج نفاذة من واجهات مطاعم السندوتش المنتشرة فى كل مكان هناك اشتم فيها رائحة السمك المسجوف يشويه فى هدوء وسكينة ذلك الساقى العراقى ذو العيون الجسورة على شواطىء دجلة والفرات . .

كان صالح جواد الطعمة ـ وإن اكتسب الجنسية الأمريكية ـ واحدا من هؤلاء الغرباء الذين ضمتهم مدينة الغرباء بلومنجتون . . مثله مثل هورست فرنز أستاذ الفتى وصديقه ـ الأمريكى من أصل ألمانى ـ الذى فر وأسرته من ألمانيا هربا من طاغوت النازية . . وحط به الرحال فى تلك البلاد وهو بعد شاب يافع ليصبح فيما تلا ذلك من سنين من أساتذة الأدب المرموقين بها . . بل ومن أكثرهم شهرة وسمعة عالمية . . لكن أسعد لحظاته كانت عندما يحدث الفتى عن صباه وشبابه الأول فى مسقط رأسه ألمانيا . . وعندما يقابل من يستطيع أن يتحدث معه اللغة الألمانية . .

وكان صالح جواد الطعمه ايضا واحدا من هؤلاء الغرباء الذين ضمتهم مدينة الغرباء بلومنجتون مثله مثل أولريخ فايشتاين أكبر وأهم

اساتذة الأدب المقارن فى العالم الآن . . وواحـدا ممن تعلم الفتى على يديهم الكثير حينها كان يجلس أمـامه فى مقـاعد الـدرس . . أمريكى بالجنسية لكنه ألمانى شديد الصرامة لايتهاون فى إهمال ولايطيق التقصير ولايخلف ثانية فى ميعاد . . ولايفهم كيف لايؤدى الإنسان أى إنسان ـ واجبه على أكمل وجه مهما كانت الأسباب ولو كان طريح الفراش . . ورغم حياته الطويلة العلمية فى ربوع بلومنجتون وجنسيته الأمريكية إلا أنه لم ينس ولو لثانية واحدة أنه ألمانى يحمل فى داخله ذلك الإحساس الدفين بتفوق الجنس الآرى . . ويعتبر اللغـة الانجليزيـة ـ وإن كان يتعامل بها يوميا ـ لغة من الدرجة الثانية . . وكثيرا ما كان ينتهز الفرصة ـ وهو يعلم الفتى وأقرانه فى قاعة الدرس ـ لكى يحشو فى حديثه الكلمات والمصطلحات الألمانية حشوا دون أن يأبه إذا كان الجالسون من تلاميذه يفهمون أو لا يفهمون تلك العبارات الألمانية التى ينطقها بتلذذ شديد وابتسامة واسعة نادرا ما كانت تعلو وجهه الصارم إلا فى تلك اللحظات وحدها . .

وكان صالح جواد الطعمة غريباآخر فى مدينة الغرباء بلومنجتون مثله مثل وديع جويدةوهو أستاذ فذ من أساتذة الأدب واللغة وعقلية موسوعية جبارة كان يتـرأس قسم دراسات الشرق الأوسط فى ذلك الـوقت ـ أواسط الستينات ـ من أصل عراقى أيضا . . ولكنه أبدا لم يتخل عن دمه

العربى الذى يجرى ساخناً فى عروقه مهما طالت به سنين الغربة منذ أن نزح من أرض الرافدين وهو شاب يافع حتى أشرف ـ فى ذلك الوقت ـ على الستين . . كان لا يأبه للمدينة ولا ساكنيها ولا يألف أساتذة جامعتها من الأمريكان ، والأمريكان من أصول غربية . . إنما كان يغلق أبواب نفسه على عالم خاص به من كتب التراث العربى القديم والعلم العربى القديم كأنه لايريد أن يرى من هذا العالم سوى أصالة العرب وتفوق العرب وعبقرية العرب التى كانت يوما سحيقا من أيام الزمان لكنها اختفت لتعيش فى وجدانه وتملك عليه روحه أبد الزمان . وفى المساء عندما كان يترك مكتبه بعد ان يغرق طيلة اليوم فى كتب التراث وفى تعليم ذلك لتلاميذه ، كانت متعته الكبرى أن يقف فى مطبخ منزله الأمريكى الأنيق فى ضواحى المدينة ليتفنن فى طبخ المأكولات العربية ولا يكل أبدا من الحديث الباسم فى تؤدة ووقار عن مباهج الأكل العربى !

وكان صالح جواد الطعمة غريبا آخر فى مدينة الغرباء بلومنجتون مثله مثل جورج سعادة المسيحى اللبنانى الأصل الذى بهر بالحضارة الغربية ورأى القبح فى كل ما هو عربى ، فنزح إلى أمريكا ليدرس بها ويعمل أستاذا للعلوم السياسية بجامعة انديانا ويعجب أشد الإعجاب بما فيها ومن فيها . . كأنها دنيا الخلاص تولدأمام عينيه عند مشرق كل

صباح . . وآثرأن ينسى متعمدا لغته العربية فينطقها فى لبنانية متكسرة إذا حتمت الظروف وفى تلعثم واضح وكأنه يـريد أن يعـطى سامعـه الانطباع أنه نسى مفرداتها . . وغير ذلك يؤثر دائما أن يحادث أقرانه من الأساتذه والطلبة العرب أو ممن هم من أصل عربى فى انجليزية أمريكية لم تصل أبدا لدرجة الإتقان تشوبها لكنة لبنانية واضحة . . ورغم أنه كان أستاذا فذا فى مادته ـ كما سمع الفتى من تلاميذه ـ إلاأن المقارنة الدائمة فى ذهنه ومناقشاته بين جنة الديموقراطية الغربية وجحيم الدكتاتوريات العربية ، الملكية منها والجمهورية ، كـانت تنظر دائـما لمظاهـر التقدم الغربى الذى صنعته سنوات طويلة من حكم الشعب بالشعب . . من خلال مؤسسات ديموقراطية . . وعندما اتخذ هذا القرارالمصيرى فى صدر شبابه بتفوق الغرب الساحق على الشرق . . وبأن الشـرق لاتأتى من ورائه غير المصائب والنكبات التى ستؤدى بالأخ هناك لأن يقتـل أخاه برصاصات الكلاشنكوف ـ وكأنه يرى الحرب اللبنانية تمزق وطنه فى أفق الزمان الذى تلا تلك الأيام ـ عندما اتخذ قراره هذا تزوج من أمريكية تكبره بأكثر من خمسة عشر عامـا وهو بعـد فى العشرينـات الأولى من عمره . . وأصرت على أن تنجب له أولادا وهى فى أواخر الأربعينات مثبتة له بذلك صحة وسلامة الجسد الأنثـوى الأمريكى وقـدرته عـلى الإنجاب فى مقابل ضعف وهزال الجسد الأنثوى العربى حين تتـوقف

المرأة عن ممارسة أنوثتها بعد الثلاثين وتتفرغ للولولة على حظها العاثر بسب ما تجلبه تربية الأولاد من عنت وأنكاد . .

لكن جورج سعادة وقد أصبح ـ عندما قابله الفتى فى بلومنجتون لأول مرة ـ فى أواسط الأربعين وجد نفسه محاصرا فى حياة رتيبة وكئيبة تحكمها عجوز أمريكية تقرّعه كل يوم بسبب عاداته العربية الفوضوية إذ يعن له أحيانا أن يأكل دون شوكة أو سكين كما يحلو له التدخين فى غير الأماكن المخصصة لذلك . . فى السنوات الأخيرة قابل الفتى جورج سعادة فوجده رجلا كهلا ملتحيا تتخلل الشعيرات البيضاء لحيته التى طالت حتى منتصف الرقبة ، وعندما هتف به الفتى فرحا : جورج ، لم يمد يده وإنما هز كتفيه بلا اكتراث قائلا : ليس الذى أمامك الآن هو جورج القديم .وإنما هو « سعد اليتيم » وعرف الفتى بعد ذلك أن جورج قد تخلى عن اسمه وهجر زوجته وأولاده . . واتخذ له اسما عربيا هو سعد اليتيم . . وطفق يكتب الشعر العربى بهذا الاسم وينشر الدواوين فى بلده لبنان .

ذات يوم كان الفتى يجالس صالح جواد الطعمة فى مكتبه بقسم دراسات الشرق الأوسط يتحدثان عن الوطن ، وعن مسرحية شعرية جديدة لصلاح عبد الصبور عندما قال له صالح هل تعرف صحفية مصرية اسمها نهاد جاد . . إنها محررة بصباح الخير . . هى قادمة بعد

أيام إلى بلومنجتون لتدرس الماجستير فى الدراما والأدب المقارن على منحة من الجامعة هنا . . أعلم أنك مختلط بكل الأوساط الثقافية والصحفية فى مصر فهل تعرف نهاد جاد ؟ هز الفتى رأسه وقال : نعم سمعت عنها ، ، قرأت لها فى « صباح الخير » لكننى لم أرها من قبل . . ولا أعرف شكلها! قال صالح وهو المفتون دائما بكل من يكتب كلمة مطبوعة فى جريدة أو مجلة عربية : إنها قادمة إلى هنا . . وستتعرف عليها . . ولمعت عيناه حماسا . .

عاد الفتى الى بيته وفى مخيلته صورة فتاة مصرية قادمة إلى هذه البلاد البعيدة ، وربما تكون هى الفتاة العربية الوحيدة فى الجامعة ، وبالقطع ستكون مسئوليته هو الشخصية أن يساعدها فضلا عن أن يحميها ويحافظ عليها حماية الأخ الشرقى لأخته . . لكنه أجهد ذهنه أن يتذكر صورتها بلا جدوى . . كل ما استطاع أن يتذكره هو اسمها المطبوع على صفحات المجلة . . وصورة (بورتريه) رسمها لها رسام طبعت بنفس المجلة لكنها لاتنبىء عن صورتها الحقيقية . . وفى محاوله لتجميع أجزاء هذه الصورة الزيتية فى ذهنه قطعة قطعة وملمحا ملمحا حتى يعد نفسه لاستقبال تلك الوافدة المصرية الجديدة تذكرها . . وقفز من فوق سريره صائحا كما صاح أرشميدس منتصرا وجدتها !

نعم . . تذكر أنه ذات يوم وهو بعد معيد بقسم اللغة الإنجليزية

بجامعة القاهرة وكان يقف فى نهاية ذلك الكوريدور الطويل نصف المظلم الذى ينتهى بمدرج ١٣ العتيق ، لمح صديقا حميما له من الصحفيين هو مصطفى الحسينى يصطحب معه فتاة سمراء هيفاء ذات شعر أسود كثيف وعينان واسعتان يعتريهما تعبير دائم بالدهشة ممزوج بشيء من التعالى وسخرية خفيفة ربما كانت تدارى به خجلها الكامن . . وكانت تسير منحنية الرأس قليلا رجلاها تكادان تصدمان ببعضهما البعض كأنها خجلة من طولها الفارع الذى أضفى عليها فى حقيقة الأمر من جمال الوجه والعينين والشعر جاذبية لاحدود لها . .

وقدمها مصطفى الحسينى للفتى باعتبارها زميلة صحفية له . وبالإضافة إلى ذلك فهى أيضا طالبة بقسم اللغة الإنجليزية بالسنة الثالثة لكنها لا تحضر لانشغالها بعملها وبحياتها الأسرية . . وطلب مصطفى الحسيني إلى الفتى أن يعطيها دروساً خصوصية للتقوية فى بعض المواد فهش الفتى قائلا انه فى الخدمة شريطة أن تحضر إليه فى مكتبه ليساعدها فى دروسها دون مقابل . . واعتذر فى أدب عن عدم قبول مسأله الدروس الخصوصية لأنه لم يقبل فى حياته أن يتنازل عن هيبته أمام طالب أو طالبة فى سبيل أى مبلغ من المال . . كما أنه لم يذهب فى حياته الى طالب أو طالبة فى المنزل لأنه يعتبر ذلك غير لائق بمكانته ! (وكان غروره المصطنع فى ذلك الوقت واعتزازه بمكانته كأستاذ جامعى شيئا طبيعيا بالنسبة لفتى

فى مثل سنه لم تشخن الايام قلبه بالجراح بعد) ويبدو ان هذا اللقاء القصير قد أغضب نهاد جاد فقد اشترطت أن يذهب إليها الفتى فى منزلها بمصر الجديدة ليعطيها الدروس الخصوصية وبمقابل مادى معلوم وإلافهى ليست فى حاجة إليه أو إلى مساعدته .

وزاد فى عينيها الواسعتين ذلك التعبير المتعالى المشوب بالسخرية كأنها تقول له بنظرتها من أنت حتى ترفض واستدارت لتذهب أدراجها لاتلوى على شىء ووراءها سار مصطفى الحسينى حثيثا ليلحق بخطواتها المسرعة وهى تتجه نحو الباب الخارجى .

كانت هذه هى المرة الأولى والأخيرة التى التقى الفتى فيها بتلك الصحفية السمراء الجميلة نهاد جاد قبل ذلك . . لحظات انتهت بما يشبه العاصفة تنذر بانقطاع ما يمكن أن ينشأ بينهما الى الأبد . . وقد نسى الفتى بعد ذلك كل شىء عن هذه اللحظات وعن تلك الفتاة حتى جاء ذكرها على لسان صالح الطعمة وعرف أنها قادمة وحدها غريبة جديدة فى بلومنجتون مدينة الغرباء ! .

ذات صباح فى إحدى فصول الأدب المقارن التى كان يدرسها أولريخ فايشتاين والفتى يدلف إلى قاعة الدرس لمح فى نهاية القاعة من خلف وجوه الطلبة الأمريكان فتاة سمراء طويلة كثيفة الشعر الاسود واسعة

العينين لكنها حائرة النظرات كأنها تستغرب وجودها فى ذلك المكان ، وتعرف على وجهها على الفور إذ كانت هى نفسها نهاد جاد ! ابتسم لها ابتسامه واسعة وتوقع أن تهرع إليه مستغيثة به من ذلك الشعـور المؤلم بالغربة الذى ينتاب القادم الجديد ، لكنها جلست فى هدوء صامتة فى نفس اللحظة التى دخل فيها الأستاذ إلى القاعة وشرع يلقى درسه فى همه وحماس . انتظر الفتى حتى أنتهت المحاضرة وذهب إليها يقدم لها نفسه فسلمت عليه فى تحفظ واضح دون ترحيب كبير وسارا سويا صامتين إلى خارج المبنى دون أن تدعوه هى الى السير معهـا أو تعترض عـلى ذلك والفتى يشعر خلال لحظات الصمت أنه قـد أصبح ـ بـدافع النخـوة الشرقية ـ مسئولا عن هذه الفتاة المصرية مسئولية كاملة . . عن أكلها وشربها ومسكنها وراحتها ودراستها . . وأن عليه أن يعمل ما فى وسعه ليجعل إقامتها فى مدينة الغرباء إقامة طيبة ومثمرة ويذهب عنها كل شعور بالوحشة والاغتراب .

عند الباب الخارجى استدارت مودعة الفتى فى أدب شديد وابتسامة مقتضبة واسرعت الخطى فى اتجاه الممر المؤدى الى الحديقة .

اندهش الفتى ولحق بها وتذكر أنه ربما كان قد أغضبها فى لقائهما الأول القصير بالقاهرة ، ولذلك فهى تتصرف بهذه الجفوة ، واكتشف أنها نسيت كل شىء عن هذا اللقاء كما أنها نسيته منذ اللحظة التى افترقا فيها

عند الممر الطويل بقسم اللغة الإنجليزية . . وقال فى نفسه إنها فتاة غريبة أو ربما مجنونة . . فكيف تنساه هو ؛ وهو الذى كان معيدا مرموقا ذائع الصيت فى جامعته ، وواحدا من شباب الحركة الثقافية المعروفين - إن لم يكن من اللامعين قبل مجيئه إلى أمريكا . . وإذا كانت قد نسيته وهو بمثابة أستاذ لها بقسم اللغة الإنجليزية فكيف لم تقرأ له شيئا أو تسمع عنه من عشرات الصحفيين والكتاب من أصدقائها وزملائها . . آثر أن يتناسى هذا الجفاء قليلا فما زالت نخوته الشرقية تفرض عليه حماية هذه الفتاه ومساعدتها فهى أولا وأخيرا مثل أخته . . ومن بنى وطنه . .

ووحدها . بادرها بالسؤال : هل تشربين معى القهوة فى مقهى قريب حتى نرى ماذا أنت فاعلة فى هذه المدينة الجديدة . غمغمت : لا أحب القهوة ! ابتلع الإجابة وأردف : إذن فلنذهب الى مكتب عقود مساكن الجامعة حتى نستأجر لك شقة أوبيتا فلا بد أنك تعيشين حتى الآن فى فندق ، أدارت رأسها وقالت : استأجرت . مرة أخرى يبتلع الإجابة لكنه يشعر فى أعماقه أن فى الأمر شيئا . . فسَّره أول الامر لصالحه فقد قال بينه وبين نفسه إن هذا هو دفاع الأنثى الغريزى عن نفسها فربما تصورت أنه يريد أن يعاكسها أو أن جمالها المصرى الصميم جعله - وهو فى الغربة - يطمع فى وصالها . . وطفق يعرض عليها عروضا أخرى كثيره كان يأخدها فى جولة فى المدينة لتعرف أماكن المحلات

والمشتروات ، أو أن يدعوها على العشاء فى احد المطاعم أو أن يعرفها ببقية أفراد الجالية الصغيرة من الطلبة المصريين . . وهى ترفض هذه العروض جميعا فى أدب شديد ولكن فى اقتضاب حاسم لا يترك مجالا للمناقشة . . هز كتفيه وقال فى نفسه « تتفلق » ومضى لا يلوى على شىء ! .

ومضت بهما الأيام يقابلها فى مقاعد الدرس ، ويتبادلان الابتسامات الخفيفة ويفترقان دون أن يتبادلا سوى عبارات قصيرة من قبيل المجاملة أو التظرف المصرى . . لكنه علم من الحوار المقتضب الممتد بينهما على فترات قصيرة فيما بين المحاضرات أنها تسكن مع طالبة أمريكية تدرس الدكتوراه فى التاريخ المصرى وتعشق القاهرة المملوكية كانت قد قابلتها فى القاهرة وهى التى شجعتها على الدراسة العليا بأمريكا وبهذه الجامعة بالذات . . اسمها سوزان ستافا . . وأنها جاءت إلى هذه المدينة وجميع الترتيبات لاقامتها ومعيشتها قد تمت من قبل سوزان هذه فزينت له نفسه ردا لاعتباره أمام نفسه أنها لم تقصد بالضبط إهانته حين رفضت جميع عروضه بالمساعدة فى أوائل أيام مقدمها وإنما هى لم تكن فى حاجة إلى هذه المساعدة فعلا حيث قامت سوزان بكل ما يلزم ويزيد . . وضحك الفتى ضحكة صافية من القلب حين أخبرته ذات يوم أنها قد تقاسمت العمل فى المنزل مع سوزان . . بحيث تقوم سوزان بأعمال الطبيخ بينهما تقوم

نهاد بأعمال التنظيف (وهى الأقسى والأشق) فداعبها ضاحكا وهو يقول إن هذا التقسيم غير العادل يجعل من سوزان سيدة المنزل والقائمة بالطبخ ، أما هى فكان من نصيبها بعد كل ما شهدته فى القاهرة من عز وتدليل فى بيت أبيها أن تصبح هى الخادمة ! وأخبرته وهى ضاحكة أيضا ــ وكانت قد بدأت بينهما روح من الألفة والشعور العميق بالزمالة والانتماء لنفس الأفكار ونفس الأصدقاء من نجوم الحركة الثقافية فى القاهرة ــ أخبرته أن سوزان الأمريكية تطبخ مالا يؤكل ومالا يشرب . . فهى كعادة الأمريكيين تفرض عليها أكل السمك المسلوق فى اللبن . . والطرشى بالسكر وغير ذلك مما تعافه نفس المصرى . . عند ذلك وفى اللحظة المناسبة تماما أخبرها أنه قد طبخ اليوم بامية مصرية باللحم الضانى مع أرز بالشعرية ثم أعطى لها ظهره واستدار متجها إلى الطريق الموصل إلى منزله على مشارف شارع الجامعة . . وتعمد ألا يلتفت إلى الوراء ، وعندما أدار المفتاح فى باب المنزل وجدها تقف خلفه مباشرة !

منذ تلك اللحظة أصبحا صديقين حميمين وعلمها كيف تطبخ المحشى المصرى بالكرنب وأخبرته ذات مرة أن أبناء البيوتات فى مصر ــ وهو بالقطع ليس منهم ــ يطبخون البامية بصدور الدجاج فصدق ولكنه اكتشف فيما بعد أنها جاهلة بفنون الطبخ وأنها لاتعرف فعلا كيف تطبخ

البامية أو غيرها من المأكولات المصرية لأنها عاشت بنتا وحيدة فى أسرة صغيرة ميسورة وتعرضت لضروب من التدليل لم يشهدها غيرها إلا فيما ندر . . ضحك ملء شدقيه لمحاولتها المضنية أن تثبت له ما تتمتع به من شطاره ! أطرق فى لحظة من اللحظات وهما يذرعان معا طريق الجامعة التى كانا يشتركان فى حضور بعض دروسها سويا . . وسألته ما باله فإذا به يفاجئها بالسؤال الذى طالما شغل باله طيلة الشهور الستة الماضية منذ أن التقيا لأول مرة فى بلومنجتون . . لماذا كان كل هذا الجفاء فى المقابلة الأولى بقاعة الدرس بالجامعة الأمـريكية ؟ صمتت قليـلا ثم أخبرتـه بالقصة الحقيقة ـ لم يكن السبب هو ذلك التوتر الذى نشأ بينهما عندما رأته لأول مرة بقسم اللغة الإنجليزية بالقاهرة حين رفض أن يعطيها دروسا خصوصية . . ولم يكن الأمر مجرد خجل من جانبها أو حاسـة أنثويـة سادسة صورت لها أن الفتى كان طامعا فى مغامرة مع فتاة مصرية غريبة فى بلد غريب . لا لم تجافيه لكل هذه الأسباب جميعا . . وإنما المسألة كلها كانت يوسف إدريس !

كانت تستعد للسفر إلى أمريكا حين قابلها يوسف ادريس صدفة فى أروقة دار روز اليوسف . . وأخبرته أنها مسافرة إلى أمريكا لتنال درجة الماجستير . . وأنها سعيدة لهذا رغم أن السفـر مغامـرة . . ورغم أنها وحدها . . وكان يوسف إدريس عائدا لتوه من جوله بالولايات المتحدة زار فيها عددا من الجامعات الأمريكية وألقى فيها المحاضرات عن فنه

وعن المسرح المصرى . . وفى بلومنجتون حط رحاله فى نهاية الـرحلة واستقبله الفتى وزميله إبـراهيم حمادة بكـل الحفـاوة والتـرحـاب والاحترام . . وكانت مسرحية «الفرافير» . قد ترجمت إلى الانجليـزية قبل مجيئه ، وعرضها الفتى مع زميله ابراهيم حمادة على واحد من كبار أساتذة الدراما بقسم المسرح هناك وهو الأستاذ هيوبرت هيفنر فلم ير فيها سوى عمل ساذج لا ينم عن الكثير من عظمة الفكر أو الفن . . وفى أول لقاء للفتى وصديقه مع يوسف ادريس فى بلومنجتون صـارحاه ، برأى هذا الأستاذ الأمريكى فى مسرحيته التى كـانت حدثـا مدويـا فى القاهرة حين عرضت لأول مرة فصدم صدمة شديدة . . وربما تصور أن الفتى وصديقه يختلقان هذا الكلام ويضعاه على لسان الأستاذ الأمريكى هذا . . فلم يكن اعتداده الشديد بنفسه وبمسرحيته ليسمح أن ينالها أحد بأى نقد ، فضلا عن أن يصفها بما وصفها به استاذ الدرما الأمريكى . . ولابد أنه كره الفتى وصديقه كراهية شديدة فقد ألقى محاضرته فى اليوم التالى وغادر بلومنجتون دون أن يودع أحدا .

المسألة إذن كانت يوسف ادريس !

قابلها صدفة وأخبرته إنها مسافرة للدراسة فى جامعة انديانا بمـدينة بلومنجتون فأخبرها أنه عائد لتوه من هناك ، وأنه يحذرها من الاختلاط بأى من المصريين الدارسين هناك ، فكلهم أشرار لا يوثق فيهم ولا فى

أخلاقياتهم ، وعلى وجه الخصوص ذلك الشخص الذى اسمه . . وذكر لها اسم الفتى !

بعد عشرين عاما من تلك الحادثة ، والفتى جالس على مائدة العشاء بصفته الرسمية فى أحد مطاعم عمان الفاخرة فى جلسة دعا اليها وزير الثقافة الأردنى لعقد مصالحة بين وزير الثقافة المصرى حينذاك محمد عبد الحميد رضوان ويوسف ادريس بعد تبادلهما الهجوم فى جريدة الأهرام ، ضمت لفيفا من نجوم الصحافة والثقافة فى مصر والأردن ، امتد بهم السمر والضحكات والقفشات الى ما بعد منتصف الليل بعد أن تم الصلح المنشود ، ووجد الفتى نفسه يصيح بيوسف ادريس فجأة وبلا مقدمات . .

أهكذا يايوسف يا إدريس كنت ستمنع زواجى من نهاد جاد ؟وطفق الفتى يحكى القصة كلها وسط ضحكات الجميع ، أما يوسف ادريس نفسه فلم يبد عليه انه تذكر شيئا من هذه الحادثة التى وقعت قبل سنين طويلة ولكنه قهقه عاليا لهذه النادرة . . وتعجب الجميع كيف كاد يوسف ادريس أن يغير من مجرى حياة الفتى ، فلو أن الصدفة والثقة لم تتوطد بينه وبين نهاد جاد ، ولو أنها ظلت على موقفها المتشدد منه بسبب تحذيرات يوسف إدريس المشددة لتزوجت هى من رجل آخر ، ولتزوج هو من أخرى . . ولكانت حياتهما تختلف تماما عما قدر الله لهما أن تكون .

بعدها سارت الحياة بهما فى صداقة تتوطد يوما بعد يوم حتى اقترب موعد امتحان التى الأخير الذى يرشحه لنيل درجة الدكتوراه ، وكان يستذكر لهذا الامتحان أكثر من عشرين ساعة فى اليوم بلا نوم فهو الفاصل بين النجاح والفشل ، فكانت نهاد جاد تسهر على راحته ، وتجلب له طعامه من بيتها وتحنو عليه حنانا جارفا بدد لديه كل شعور بالوحدة والغربة الذى كثيرا ما كان يعتصره عندما يغلق عليه بابه ويغمض عينيه ويرسل البصر وراء البحار البعيدة إلى حيث الوطن . . لكن حنانها كان صامتا لا يأخذ شكل الكلمات إلا نادرا عندما تنصحه غاضبة أن ينتظم فى أكله أو فى نومه . . وكانت تجلس بجواره الساعات الطوال وهو يذاكر وبيدها روايات تاريخية وعاطفية من تلك التى يجدها الإنسان فى المطارات ومحطات القطار . . تلتهمها التهاما الواحدة بعد الأخرى وتأتى على رواية أو اثنتين منها فى اليوم ، ويزجرها هو أحيانا لعدم التفاتها إلى دروسها التى لم تكن تأبه لها كثيرا إما ثقة فى ذكائها الشديد أو أنها بقليل من المذاكرة تستطيع أن تجتاز الامتحانات ، وأما لغرامها الشديد بتلك الروايات التى كانت تنقلها الى عوالم سحرية ومثالية من الفروسية والعواطف الرومانسية التى تنسيها شرور الدنيا . .

وبدأ يترقب مجيئها كل يوم بشغف واضح . . وبدأ يختلق الأسباب لرؤيتها أطول فترة ممكنة فى اليوم . . كأن يفكر فى أكلة جديدة يطبخانها

سويا ، أو يقترح عليها الذهاب إلى الخلاء على جانب بحيرة ليمون الواقعة على مشارف المدينة يذاكران فى الهواء الطلق ، وفى عطلة نهاية الأسبوع كان يأخذها فى سيارته التى اشتراها بالتقسيط لصيد السمك فى البحيرة أو لزيارة مدينة إنديانابوليس عاصمة الولاية الواقعة على بعد أميال قليلة من بلومنجتون .

فى اليوم الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ طرقت بابه فى الصباح الباكر لتخبره انها جاءت تودعه فقد قررت السفر لأسبوعين أو ثلاثة إلى مدينة نيويورك للفسحة والفرجة انخلع قلبه ولم يدر ماذا يقول . إرتدى ملابسه على عجل وقال إنه سيوصلها إلى مدينة أنديانابوليس القريبة بسيارته حيث تستقل الطائرة من هناك . . انطلقت السيارة فى الطريق الواسع الرائع الجمال الذى تظلله على الجانبين أشجار باسقة يانعة الخضرة . . جلسا صامتين حتى منتصف الطريق تقريبا . امتدت يده ليدير مفتاح راديو السيارة حتى يقطع الصمت الذى كاد أن يخنقه . . إنسابت الموسيقى هادئة فدغدغت أعصابه . . مد يده فأمسك يدها . . أول مرة يلامسها . . تركت يدها فى يده شعر بدفء الدنيا . . فى لحظة أحس أنه عاد إلى وطنه .

- تجوزينى ؟ !

أطرقت موافقة دون أن تنطق بكلمة .

استدار بالسيارة . . وعاد فى الطريق المتجه إلى بلومنجتون فى سرعة جنونية كسرعة دقات قلبه الذى غمره الفرح . . وعجب لماذا لم يفكر فى ذلك من قبل . . وعجب أكثر لأنه اكتشف فجأة انه كان قد وقع فى حبها منذ اللحظة الأولى . . وانه ظل طوال هذه الفترة يكابر . . ولابد أنها أيضا قد وقعت فى حبه . وإلا فلماذا وافقت على الفور عندما عرض عليها الزواج ؟ كانت السعادة تغمرهما كطفلين يرتديان ملابس جديدة فى صباح يوم العيد عندما توقفت السيارة عند بيتها لتزف الخبر الى صديقتها سوزان . قالت سوزان إنها كانت تعرف انهما لابد عائدان منذ أن انطلقا بالسيارة . . وأنها ظلت جالسة تنتظر عودتهما وهى تمسك بساعتها . . كانت تعرف أن الحب قد ربط بين قلبيهما . . وأنه لن يتركها تسافر . . وستعود هى معه عند أول اعتراف له بالحب . . ضحكت نهاد ولم تعلق وإنما وضعت حقيبة السفر وأسرعا إلى منزل إبراهيم حمادة ليرتب أمر زواجهما . . لم يندهش إبراهيم أيضا وإنما أخذهما إلى زميل لهم من الأخوان المسلمين الذى عقد قرانهما وشهد إبراهيم وزميل آخر على العقد وقال إنه سيرسله صباح الغد إلى السفارة المصرية فى واشنطون لتوثيقه ، كما أشار أن يذهبا إلى مكتب عقود الزواج المدنى فى صباح اليوم التالى ليصبح زواجهما ساريا أمام الحكومة الأمريكية . . قال الزملاء المصريون سنقيم فرحا فى المساء ونرقص رقصا بلديا حتى الصباح ، وزغرد أحرودة

طويلة متعرجة وضحكوا ضحكات صافية من أعماق القلوب المغتربه وهم يرددون « إتمخترى ياحلوه يازينة » ويصفقون وعم الجميع شعور بأنهم فى وطنهم وإن كانوا بعيدين عنه آلاف الأميال . .

ها هو يجد الحب بعد أن ظل يبحث عنه فى ليالى الوحدة بلا جدوى . . وها هى بلومنجتون المزهرة تحتويه مع من أحب فتبعث أخيرا ذلك الشعور بالسكينة والأمان الذى يحس به الملاح التائه عندما تطأ قدمه الأرض بعد الليل الطويل . . ليل الوحشة والاغتراب/لاتقطعه سوى أصوات هدير الأمواج المتلاصمة . . وها هى النجوم تصعد شيئا فشيئا إلى سماء المدينة مع أول خيط من خيوط المساء الرقيق لتضىء له ولحبيبته طريقهما إلى رحلة العمر القادم . . وصاح فى نفسه آه بلومنجتون يا مدينة الغرباء . . أخيرا وجدت فيك المرفأ والأمان . . شعر انه يريد الآن أن يجرى الى كل الغرباء فى المدينة . . صالح جواد الطعمة وفرنز وفايشتاين وجورج سعاد ووديع جويدة ويضعهم جميعا فى منزل واحد هو منزله ووطن واحد هووطنه الجديد فى قلب هذه المرأة التى سكنها . . فكانت له اليت والوطن . . شعر أنه فى تلك الليلة بالذات لابد أن يصحب كل هؤلاء الغرباء المعذبين فى ليل المدينة الموحش فى رحلة طويلة كل الى حيث الوطن الذى طال اليه الاشتياق .

أدار مفتاح راديو السيارة مرة أخرى والليل قد أقبل ومصابيح الطريق قد بدأت ترسل نورا خافتا لف المدينة بالسحر والغموض . . ونظر الى تلك المصابيح المتناثرة وكأنه يراها لأول مرة ، فلم يكن قد لفت نظره من قبل أن فى الطرقات مصابيح . . وأن نورها الرقيق يبدد ذلك الظلام الذى ظل يشعر حتى هذه اللحظة إنه يجثم على صدر ساكنى المدينة من الغرباء . . بعينى خياله شاهد مدينة أخرى غير تلك التى عاش فيها وحيدا غريبا طوال أيامه الماضية . . مدينة جديدة تنبثق من قلب الحلم القادم بأجمل الأيام . . طفقا يحلمان بيوم العودة ، والبيت فى مصر الجديدة . . والأولاد الذين لابد سيولدون فى زمن أجمل وأسعد . . قطع المذيع الارسال فجأة . . قامت الطائرات الاسرائيلية بقصف جميع المطارات المصرية منذ قليل (وكان الوقت صباحا فى مصر) وتهشمت جميع الطائرات المصرية وهى على أرض المطار . . كطيور سامقة تتأهب للتحليق كسروا أجنحتها فظلت ترفرف بجناح مكسور والدم ينزف من الأجساد . . ورائحة الموت قادمة . . صاحت به بيتنا فى مصر الجديدة . . هل يدمروه . . صاح ملتاعا . . آه ياوطنى الجريح ! وأخذها بين ذراعيه !

وعاد إلى وطنه... دون أن يبرح

وعاد إلى وطنه ... دون أن يبرح !

ويقفز وعى الفتى عبر السنوات إلى أيام عاشها فى أمريكا يطلب العلم . . اختاره أستاذ شهير ليدرس على يديه فنون الأدب هو البروفيسور هورست فرنز . من اسمه أدرك الفتى منذ الوهلة الأولى للقائهما أنه ألمانى الأصل . كان هورست قد نزح من ألمانيا النازية وهو ما يزال طفلا فى العاشرة من عمره . وكان قد بدأ لتوه يتعلم الأسماء والأفكار والأشياء وكان يجد فى لغته الألمانية التى تفجر بها إحساسه بالعالم تيارا دافقا من المشاعر والأفكار . لكن العالم من حوله ــ حينئذ ــ كان يموج بالكراهية والقتل ، وينشر عليه الشر جناحه الأسود كأنه طير أسطورى كريه . واضطر الصبى الألمانى أن ينزح مع أسرته إلى عالم جديد . . . يتنفس فيه نسيم الحرية ، ويعرف طعم الأمان .

وفى أمريكا شب الصبى الألمانى ليجد نفسه مضطرا أن يتعلم لغة غير لغته . . يمارس بها أمور حياته . . وكان عليه أن يقرأ بهذه اللغة الجديدة . . يكتب بها . . يبيع ويشترى بها . . . وعندما تزوج من أمريكية . . كان عليه أن يمارس بهذه اللغة الجديدة فنون الحب .

وسرعان ما أصبح الصبى الألمانى هورست الذى نزح عن وطنه صبيا مهزوما فقيرا . . واحدا من أساتذة الجامعات المرموقين . . وكان دائما يتحاشى الحديث عن أصله الألمانى . . ويتحاشى أن يتحدث بلغته الألمانية الأصلية التى تفجر بها وعيه على العالم من حوله . كل ما كان يربطه بوطنه القديم هو صورة كبيرةللممثلةالألمانية مارلين ديتريش مهداة إليه وموقعة بخط يدها . . خط متعرج طويل لكنه بدا وكأنه يمد حبالا غير منظورة تصله بأرض الوطن .

وكان يعلق الصورة على جدار غرفة مكتبة فى بيته الريفى الأنيق فى تلك المدينة الأمريكية الجامعية الصغيرة .

ولم يكن فى هورست فرنز ما يذكر الناس بأصله الألمانى القديم ، بعد أن أصبح منذ صباه مواطنا أمريكيا ، سوى تلك القامة المشدودة دائما ، وهذه الوسامة الواضحة فى قسمات الوجه ، وذلك الشعر الأصفر لغزير والطول الفارع والصرامة فى أداء العمل ، والحيوية الفائقة التى

كانت تجعله يقفز من سيارته إلى قاعات المحاضرات بالجامعة فى خطوات سريعة حاسمة .

كان البروفيسور هورست فرنز وقد اقترب من الستين عندما قابله الفتى لأول مرة فى مكتبه بالجامعة يبدو شابا فى الثلاثين ، ارتضى لنفسه هذه الحياة العقلية فى رحاب الجامعة الأمريكية العريقة . . وهذا الوطن الجديد على أرض لم يولد بها . . وسعد بهذه الشهرة الواسعة التى جعلت منه رئيساً لأكثر من جمعية أدبيـة فى امريكـا ، ومحررا لأكبـر المجلات العلمية والأكاديمية . . واستاذا يشار إليه بالبنان .

ومنذ التحاق الفتى بهذه الجامعة الامريكية فى أواسط الستينات شعر بأن البروفيسور المهاب هورست فرنز يتوسم فيه بعض النبوغ ويتعهده بغير قليل من الرعاية والاهتمام . جذبه إلى الفتى فى أول الأمر اهتمامه الواضح بدراسات «الأدب المقارن» وكانت حينئذ ما تزال فرعا جديدا من فروع الدراسات الأدبية يتلمسون له منهجا علميا واضحا ، ويحار دارسوه بين المدرسة الفرنسية التى تقول بأنه لابد لمقارنة الأعمال الأدبية من أن تقوم الدلائل الثابتة على وجود صلات ووشائج حقيقية بين كتابها تثبت تأثر هذا الكاتب بذاك أو العكس ، وبين المدرسة الامريكية التى تقول بأنه يكفى لمقارنة الأعمال الأدبية بعضها بالبعض أن يقوم بينها قدر

من التشابه فى البناء أو النسيج دون أن تكون هناك صلات فعلية بين كاتب هذا العمل الأدبى وذاك .

وانخـــرط الفتى فى دراســة الأدب المقــارن عــلى يــد أستــاذه البروفيسور . . ونشأ بينهما ود وتعـاطف عميقان ، ربمـا كان مصـدره شعورهما سويا بـأنهما ـ بالـرغم من كل شىء ـ غـريبان عـلى أرض غريبة . وربما كان الفتى وحده هو الذى أحس بهذا الشعور عندمـا لم يستطع أن يتلاءم مع حياته الجديدة فى الغرب ـ رغم كل ما فيها من صخب ومتعة وفائدة ـ فظل يراوده كل ليلة إذا آوى إلى فراشه ذلـك الحلم الغريب بأن طائرة تأتى إليه فى المساء عندما ينتهى من محاضراته لتنقله إلى وطنه مصر ينام فى حضن أمه ، المرأة والأرض معاً ، ثم تعيده فى صباح اليوم التالى عبر الأميال الطويلة وفوق مياه البحار والمحيطات ليجلس مرة ثانية فى مقاعد الدرس !

ولم يكن الاقتراب ـ على هذا النحو ـ من البـروفيسور بـالشىء الهين . . كان تلاميذه من الامريكيين يخشونه ويحسبـون ألف حساب لمقابلته . . فهو ، رغم بشاشته ولطف معشره ، صارم كحد السيف إذا أخطأ واحد منهم أو أخل بواجبه . . وهو لا يتردد فى أن يصدر حكمه القاطع بإنهاء دراسة هذا أو ذاك لأنه لا يأخذ عمله بالقدر الكافى من الجدية .

لذلك فوجىء الفتى واستولت عليه سعادة غامرة انخلع لها قلبه حين قابله «البروفيسور» فى صحن الجامعة ذات صباح خريفى ممطر ودعاه لتناول الغداء معه . . وفى بيته ــ كان اللقاء تحت ظلال غابة الأشجار الكثيفة التى يكتظ بها حرم الجامعة ويرتع فيها حيوان السنجاب صاعدا الأشجار هابطا منها قارضا جذوعها فى حرية تامة كأن جسده الصغير قد تحول إلى تجسيد حى لمعنى مجرد طالما بحثت عنه الانسانية هو الحرية . وكان هذا الحيوان الجميل الذهبى اللون الواسع العينين ، ذو الذيل الطويل الكثيف الفراء ، يحدق ساعتها فى البروفيسور وتلميذه الفتى الغريب وكأنه قد أدرك ، ولو فى لحظة خاطفة ، ما بين ثلاثتهما من صلة خفية ــ كانت هذه الغابات التى تفترش صحن الجامعة وطنه لكنه كان يحدق دائما عبر مساحات الأرض والبحار فى الهواء الذى يحمل إليه نسمة وطن آخر قديم انتزعوا منه آباءه وأجداده ليعيشوا ويتوالدوا هنا . وكان احساس ذلك السنجاب الجميل بالغربة رائعا فى ألمه . . فرغم أنه ولد هنا إلا أن دماءه الافريقية لم تألف تلك الأشجار أبدا . ولم تتوحد أبدا مع ساكنيها حتى إذا مد أحدهم يده ليربت على ظهره الذهبى الأليف سارع إلى الاختفاء بين صفرة أوراق الشجر المتساقطة فى خريف المدينة . ذهب الفتى مع استاذه البروفيسور إلى منزله ، وهناك فى غرفة مكتبه رأى صورة مارلين ديتريش . . ولفت البروفيسور نظره ضاحكا إلى

توقيع الممثلة بخط يدها على الصورة وأكد للفتى ما يعرفه وهو أنها ممثلة ألمانية !

وجاءت زوجة البروفيسور لتداعبه فى هزل ممزوج بالجد ـ قائلة إنها تغار من مارلين ديتريش لأن البروفيسور ما زال يحبها وإن كان لم يلتق بها سوى مرة واحدة عندما وقّعت له على هذه الصورة بصفته واحدا من ملايين المعجبين . وأردفت الزوجة أن الصورة الصامتة المعلقة على الجدار والتى تكشف فيها الممثلة عن قدر ضئيل من ساقيها ـ بوصفها صاحبة أجمل ساقين كما كانوا يسمونها ـ تشعرها دائما أن فى المنزل امرأة أخرى !

وضحك الفتى من أعماقه لكنه شعر بنظرات استاذه البروفيسور تتعلق بالصورة على جدار الحائط وعيناه الثاقبتان قد تكسرتا تحت وطأة حزن عميق بطول المسافة بين عمره والوطن .

ذات صباح . . بعد سنين طويلة . . وكان الفتى قد أنهى دراسته ورحل عن أمريكا وأُصبح هو الآخر «بروفيسورا» فى بلده . . جاءته رسالة قصيرة من أحد أصدقائه بأمريكا . . لقد اصيب البروفيسور بشلل فى المخ جعله ينسى تماما اللغة الانجليزية التى عاش بها طيلة هذه السنين غريبا فى بلاد غريبة . وطمأنه الصديق أن صحة «البروفيسور»

العامة على خير ما يرام . . ما عدا شىء واحد . . هو أنه لا يتحدث الآن سوى اللغة الألمانية !

وبالرغم من الألم العميق . . شعر الفتى بسعادة خفية تملك عليه قلبه فبالرغم من أن هورست ما زال يعيش فى ذلك المنزل الريفى الأنيق بالمدينة الامريكية الصغيرة ـ إلا أنه اختار أن يعود أخيرا إلى وطنه .



الأستاذ يجلس وحيداً !

الأستاذ .. يجلس وحيداً !

يظل الانسان يقرأ لكاتب كبير ، أو يعجب بشخصية عالمية من شخصيات السياسة أو العلم أو الفن والأدب ، ولا يتصور أبداً أنه سيلتقى بها . تظل هذه الشخصيات تدور فى فلك الأحلام أو بالأحرى تظل حلما رماديا يغلفه الضباب ، يعيش فى مخيلة الانسان ، يهرب إليه فى غمرة تفاصيل الواقع ليعيش من خلاله لحظة نورانية مستحيلة ، فيتصور أن هذا العملاق أو ذاك ممن سمع بهم أو قرأ لهم قد استطاع أن يفلت من قبضة الزمان والمكان ، وأصبح ظلا يظلل الأرض بنور علمه أو فنه أو شهرته ، فلم يعد جزءا من الحياة اليومية التى ترسم ألوانها

الكالحة عوادم السيارات . وزحام المدن ، والسعى وراء لقمة العيش ، والأحقاد الصغيرة .

ذات صباح والفتى يسعى إلى محاضراته فى تلك الجامعة الأميريكية فى أواسط الستينات جاءه من يقول بأن أستاذه الألمانى الأصل هورست فرنز يطلب إليه الحضور لمقابلته ، فتوجه من فوره إلى مكتب الأستاذ فقد اشتم أن الأمر لابد أن يكون خطيرا ، وعندما دلف إلى مكتبه استقبله بوجهه البشوش وابتسامته الخفيفة التى تعلو دائما صفحة وجهه الوسيم القسمات ، وسأله ان كان قد سمع بالأستاذ الكبير رينيه ويليك وكان ملء السمع والبصر فى تلك الأيام ، فهو أستاذ لأساتذة الأدب ، خاصة فى مجال النقد الأدبى ودراسات الأدب المقارن ، يشار إليه أيضا بأنه أكبر مؤرخ للأدب فى عصرنا ، كما أنه أكبر نقاد الأدب فى العصر على الاطلاق . وكانت كتبه الكثيرة ومنها « تاريخ النقد الأدبى » و « نظرية الأدب » هى الأساس الذى يتعلم منه جميع دارسى الأدب وأساتذته على طول العالم الغربى وعرضه ، والكثير ايضا من بلاد الشرق .

أومأ الفتى إلى استاذه بأنه يعرف طبعا البروفيسور رينيه ويليك ، وأنه مدرك لشهرته الواسعة وصيته الذائع ، وكان مستعدا ــ على قدر علمه الضئيل ــ أن يجيب على أسئلة قد يلقيها عليه أستاذه فيما تحويه كتب رينيه



ويليك من معلومات ونظريات وفيرة . لكن الأستاذ لم يسأل شيئا من ذلك وبدلا من وضع الفتى فى موضع الامتحان كما توقع فى أول الأمر ، سأله إن كان يحب أن يرى رينيه ويليك شخصيا رأى العين ، ويجلس إليه ، ويتجاذب معه أطراف الحديث .

ذهل الفتى لهذه الدعوة المفاجئة ، فلم يكن ليتصور أبدا أنه سيرى فى حياته ذلك الأستاذ الكبير العظيم الشهرة الواسع النفوذ فى الدوائر العلمية والأدبيةالعالمية ، ناهيك عن أن يجلس إليه ويتجاذب معه أطراف الحديث .

خطر بباله أن يسأل أستاذه لماذا اختاره هو بالذات لهذا الشرف العظيم ، وأجابه استاذه ببساطة وبشىء من اللا مبالاة :

- لأن الاستاذ الكبير يجلس فى غرفته وحيدا !

الأستاذ يجلس وحيداً ؟! كان هذا آخر ما يمكن أن يتصوره الفتى ، لقد جاء البروفيسور الكبير رينيه ويليك إلى هذه الجامعة ، وقطع آلاف الأميال من مقر عمله فى شرق الولايات المتحدة ليلقى محاضرة عامة احتشدت لها الجامعة وأساتذتها ، وظلوا يعلنون عن موعدها ويرتبون لحدوثها شهورا طويلة ، فقد كان حدثا علميا كبيرا أن يأتى إلى الجامعة رينيه ويليك . وفعلا كانت محاضرته فى « مناهج الأدب المقارن » فتحا

جديدا فى ذلك العلم الجديد ، فقد تحدث عن نظريته فى « عالمية الأدب » التى تتمثل فى هجرة الموضوعات الأدبية من مجتمع إنسانى إلى مجتمع آخر بحيث تتشابه وتتكرر الموضوعات فى آداب الأمم شرقا وغربا مهما اختلفت ثقافاتها وخلفياتها الحضارية ، مما يثبت من خلال الدراسة المقارنة للأعمال الأدبية أن الوجدان الانسانى واحد والتجربة الانسانية واحدة فى كل مكان وزمان .

قال الاستاذ الالمانى لتلميذه الفتى الأسمر :

– اذهب إلى رينيه ويليك ، واجلس معه . حاول أن تسرى عنه بحكاياتك الشرقية فهو ضيق الصدر .

– وسأل الفتى فى دهشة : ولكن ــ سيدى ــ لماذا يضيق صدر الأستاذ الكبير ؟

– أجاب : لأن أحدا لم يطرق بابه ، أو يطلب مقابلته رغم أنه جالس فى تلك الغرفة من ساعات .

وبعد المحاضرة دارت مناقشة علمية واسعة من الطلاب والأساتذة ، ثم انصرف البروفيسور رينيه ويليك إلى حجرة فاخرة أعدت له خصيصا ليختلىَ فيها إلى نفسه يتأمل أو يستريح ريثما يأتى موعد المأدبة الرسمية التى تقيمها له الجامعة فى السادسة مساء .

- أردف الفتى :
- لعله آثر أن يجلس وحده ليتأمل ، أو يعيش فى بحر افكاره .
- قال الاستاذ :
- لقد كان يتوقع أن يسعى الجميع إليه فى غرفته ، يشرفون بالمثول فى حضرته ، يتحدثون إليه ، يرون بعيونهم ذلك العملاق جالسا يشرب الشاى مثله مثل أى انسان آخر ، لكن أحدا لا يريد ان يطرق أبواب العمالقة ، فالجميع بشر !

اندفع الفتى إلى غرفة الاستاذ الكبير ، وقلبه يرجف من الخشية ، وقدم نفسه ومضى يحكى حكاياته الشرقية والأستاذ واجم أول الأمر ، ثم تهللت أساريره شيئا فشيئا ، وطلب إلى الفتى أن ينزلا معا إلى مقهى صغير فى صخب الحياة ، وان يتناولا الشاى معا على رصيف المدينة ، وفى المقهى اتصل الحديث بينهما حميا كصديقين قديمين تلاقيا بعد فراق طويل فى الزمن الصعب ، وحكى الأستاذ عن فتاة أحبها فى صباه ورفضت زواجه بسبب منظاره السميك .

وحكى الفتى عن فتاة شرقية فى بلده أرادت الايقاع به ليتزوجها ، فضرب لها موعدا فى أكثر ميادين العاصمة ازدحاما ولم يذهب . وفى اليوم التالى اعتذر لها بأنه لم يرها وسط الزحام ففهمت أنه لا يريد الزواج

منها وانصرفت عنه فى هدوء . وضحكا طويلا لهذه التفاصيل التافهة الصغيرة ، وشعر الفتى فى أعماقه أن الاستاذ الكبير كان يحس بسعادة لا حد لها ، بعد أن تكسرت كل حواجز المنصب والهيبة ، وزالت عنه الغربة ، وعاد يلتقى بنهر الحياة كأدفأ ما يكون ، وكأكثر ما يكون تدفقا وحرارة .

وخطر ببال الفتى أن العظمة عندما تصبح قدرا للانسان الكبير تجعل منه نسرا مهيبا ينشر فى السماء جناحى الرهبة ، لكنه عندما ينظر إلى الأرض من عليائه يدركه ذلك الشعور الأليم بأنه وحيد ، وحيد ، وأنه يحتاج ولو للحظة إلى لمسة حنان ، حتى من إنسان غريب .



توفيق الحكيم

توفيق الحكيم

مازال ظله الرحيب يفرش أرض الأدب العربى بالخصب والنماء . . وما زالت ابتسامته الحانية ، ووجهه الصبوح ، وضحكته المجلجلة تبعث فينا الأمل بأن أيام الصفاء والبراءة أبدا لم تطحنها معاول الأيام المادية . . وما زالت نظرته العميقة الثاقبة المختلطة دائما بروح الدعابة المحببة تشعرنا بأن الفنان الحق هو ضمير هذا العالم . . وما زالت عيناه اللامعتان بالفكرة والفلسفة والتاريخ تشعان بالنور فتبدد ظلمة الجهل وسوار التعصيب . .

ذات صباح قريب منذ أيام ، التقى الفتى بتوفيق الحكيم وقد ودع عامه السادس والثمانين ، فى منزله المشرف على نيل القاهرة وكان

موعدها فى الصباح ، فتحت المربية التى تلازمه منذ أكثر من ثلاثين عاما الباب . . لتطل على الفتى طلعة الحكيم مستندا إلى عصاه الشهيرة ، محاولا أن يقطع المسافة من حجرة نومه ومكتبه معاً عبر الردهة الطويلة إلى غرفة الصالون حيث جلس الفتى فى انتظاره . وكان صوته المجلجل يملأ فراغ الردهة الخافتة الضوء بعبارات الحب والترحيب . أمسك بيده بآخر كتاب له صدر منذ أيام «يقظة الفكرة» ، وباليد الأخرى عصاه محاولا أن يقطع المسافة القصيرة دون أن تطاوعه قدماه . . لكن الوهن الذى أصاب القدمين لم يصب أبدا ذلك الذهن المتوقد العملاق . . لا ولم يخبُ من وجهه الصبوح نور العينين اللامعتين بتألق الفكرة !

لم يقبل الفتى أبدا يد والده رغم ما كان يحمله له طول حياته القصيرة من حب يشبه الوله . . فقد كان يشعر دائما أن تقبيل اليد نوع من الخضوع حتى لمن نحب . . والعشق لا يلغى الكبرياء .

لكنه عندما أطلت عليه طلعة حكيم هذا الزمان الفقير إلى الحب والحرية ، لم يملك إلا أن يأخذ راحته المعروقة بين يديه وينحنى عليها فيقبلها ، اعترافا منه بأن الزمان ما زال بحاجة إلى نور فكر . . وصفاء سريرته . . وجمال العقل والروح فيه . .

سحب الحكيم يده المطبوعة عليها قبلة الخشوع من شفتى الفتى ،



وتمتم أن «استغفر الله» . ومضت لحظة صمت قصيرة مشبعة بالحرج من هذه العاطفة المشبوبة المفاجئة فلماذا تقبيل اليد مادام الشيخ ليس أباك الذى أتى بك إلى هذه الدنيا من صلبه . . لكن صوتا همس فى أذن الفتى أن الحكيم هو أبونا جميعا الذى أتى بنا جميعا إلى هذه الدنيا . . دنيا التأمل . . والفرح المشبوب . . والحزن الدفين . . والدهشة . . والمرح ! من فكره تعلمنا . . من قلبه الكبير ولدنا . . من معطفه خرجنا . . فيا أبانا الحكيم فى السادسة والثمانين كل الحب لك . . وكل التبجيل لمقامك العالى . . وألف قبلة على يدك لا توفيك الحق من العشق والاحترام .

فقير أنت فى مسكنك المتواضع ذى الأثاث القديم . . تنام على سرير بسيط تحيط به على الجدران مكتبة ذات رفوف خشبية متهالكة لكنها تحمل أغلى وأثمن ما أثمر فكرك للانسانية ، ودائرة صغيرة للمعارف تستعين بها أحيانا على ما تريد أن تذكره من أماكن أو بشر ، ودراجة طبية رخيصة تستعين بها على تحريك مفاصل القدمين حتى لا يصيبها التيبس والتوقف . . حياة بسيطة لو شهدها أغنياء هذا الزمان الردىء لعجبوا كيف يعيش حكيم هذا الزمان وغيره يرفل فى الطنافس والحرير . .

لكنك ــ يا حكيم هذا الزمان ــ قانع بهذا العمر المديد الذى يشع

فى الغرفة البسيطة نورا لا بداية له ولا نهاية . . ويحكى مع كل سطر خطه يراعك الكريم على صفحات كتبك ، المحمولة على الأرفف العتيقة ، قصة شموخ الفكر فى هذا الزمن الفقير .

بادره الفتى بالسؤال عن الصحة والأحوال وكان سؤالا نثريا . . والرجل قصيدة متصلة من عشق الفكرة . . كان سؤالا لا يسمو إلى جلال اللحظة أو رفعة المقام . . فآثر الجلوس صامتا بينما انطلق الحكيم ينبش فى خزانة الذكريات . . معتذرا عن وهن الجسد الضامر النحيل ، شاكرا مهارة أطبائه الذين أعطوه من العقاقير ما يحفظ عليه صحوة العقل وانطلاقة اللسان . . سعيدا بأنه مادام اللسان قادرا على النطق بما يعتمل به القلب والعقل . . ومادام الفكر يمضى نهرا فياضا لا يعوقه الضعف أو المرض ، فلا وهن الجسد يهم ، ولا الدنيا تضيق . .

نشوان جلس الفتى سويعات مع حكيم الزمان كأنه خرج من رحم النور وأفلت من قبضة هذه الدنيا التى تضج بالقتل والحروب والتدمير والتدليس والخداع .

الفهرس

* * *



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الأيداع بدار الكتب ٢٠٠٤/١٩٨٨

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١٦٨١ - ٥

يا سيدى القارىء . .

هــذه بعض من أوراقى . . أو قـل بعض من أيامى . . أضعها بين يديك . . ولتغفر لى إن كنت قد نسيت أو أخطأت . . فعذرى الوحيد أنى كتبتها بكـل الحب لمن فيها من أبـطال ومن أحـداث . . وبالكثير الكثير من الصدق .

د . سمير سرحان



مطابع الهيئة المصرية

٤٠٠ قرش